الألف كتاب
الثاني



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

محمد كرد على

بين المدنية العربية والأوربية

أشرف على إعداد هذه الطبعة وعلق عليها

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الأعمال
المختارة

إهـــــداء ٢٠٠٦
الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة

محمد كرد على

بين المدنية العربية والأوربية

أشرف على إعداد هذه الطبعة وعلق عليها

د.عبد الرحمن عبد الله الشيخ

الطبعة الثانية



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٢

الألف كتاب الثانى

نافذة على الثقافة العالمية

الفهـــــــرس

تقديم

ست أفكار رئيسية تدور حولهـا المباحث الستة التى يضمها هذا الكتاب : (أثر المدنية العربية القديمة فى ثقافة مصر الحديثة) و (تمازج الحضارتين العربية والغربية ـ أثر العرب فى الأندلس وصقلية وما اليهما) و (أثر الحضارة العربية فى الحروب الصليبية وأثر الحضارة الغربية على عهد الاستعمار الحـــديث) و (أثر علوم العرب وفنـــونهم وما كشفوه واخترعوه) و (أثر المدنية الغربية فى البلاد العربية) و (التنظير بين المدنيتين وأهلهما) :

١ ـ ان الحضارة الأوربية الحديثة تضم بين ثناياها كثيرا من مفردات الحضارة العربية الاسلامية التى اشتملت بدورها على مفردات من حضارات المناطق التى فتحها العرب ونشروا فيها الاســـلام فتمثلوها وهضموها ووا‌ءموها مع دينهم وروحهم ، وأضـافوا اليها ، فأصبحوا جزءا منهـا وأصبحت جزءا منهم ، فلم يعد أحد يتوقف كثيرا أمام عرق (أو جنس) ابن سينا أو جابر بن حيان أو الشريف الادريسى أو حتى يحيى بن ماسويه .. فكل ما توصلوا اليه رصيد يضاف الى الحضارة العربية الاسلامية .

٢ ـ ان أوربا لم تتوان عن الأخذ بأفكار الحضارة العربية ومنجزاتها، يوم أن كانت هذه الحضارة مزدهرة راقية لا تملك أوربا مثلها ، وكان الوجود العربى الاسلامى فى شبه جزيرة أيبيريا (اسبانيا والبرتغال) وفى صقلية وجنوب ايطاليا ، بالاضافة للاحتكاك بين المسلمين والعرب أثناء الحروب الصليبية ـ كل ذلك كان بمثابة البوابات التى فتحت على مصاريعها بين الشرق والغرب ، فنهل الغرب من حضارة العرب ما كان أحد أسباب نهضته . ومادام الأمر كذلك ، فلا بأس ولا جناح على العرب

والمسلمين أن يأخذوا من ثقافة الغرب ـ وهي في حالة نهضتها الآن ـ ما يعينهم على الترقي والتقدم ٠

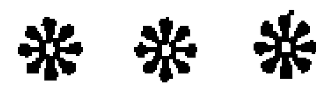
٣ ـ ان التفاصيل لا ينبغي أن تعمينا عن ملامح الصورة العامة ، لذا يرى الأستاذ محمد كرد على أن حركة الاستعمار الأوربي الحديث للعالم العربي والاسلامي كان لها جوانبها الايجابية ، وراح يعدد المخترعات التي وصلت عن طريقهم ، والمشروعات التي أتموها في البلاد التي استعمروها ، وأفاض كثيرا في ذلك ، تماما كما سبق أن رأى في الحروب الصليبية جوانب ايجابية ٠ وسنورد بعض التعليق على ذلك ٠

٤ ـ ان الحضارات تتداخل وتتأثر كل منها بالأخرى ، ولا جناح في ذلك ، وان اختلاف الأديان لا يفسد للود قضية ، ولا يمنع التأثير والتأثر ، خاصة في ظل حضارة رحبة توقر كل الأديان السابقة عليها ، ويقصد بذلك الحضارة العربية الاسلامية التي لم يجد اليهود أمنا الا في ظلالها بعد أن سحقتهم أوربا وداستهم جحافل الصليبيين وهم قادمون الى الشرق ، ولم يجد يعاقبة مصر أمنا الا بعد الفتح الاسلامي بعد أن كان البيزنطيون (الروم الشرقيون) الملكانيون يسومونهم سوء العذاب حتى تركوا الدنيا واتجهوا للأديرة ٠٠٠ الخ ٠

٥ ـ ان التقدم ليس قصرا على جنس دون جنس أو عرق دون عرق ، وانما له أسباب موضوعية ، ويفيض في تفاصيل نرى من الواجب أن نعلق عليها ٠

٦ ـ ان الأتراك العثمانيين هم السبب الجوهري في تخلف العالم العربي ، وان الاحتكاك القسري بأوربا كانت محاسنه أكثر من مساوئه ٠

بالاضافة الى أفكار جانبية أخرى اقتضاها السياق ـ لكن ما ذكرناه هو المحاور الرئيسية التي تتحلق حولها أفكار الكتاب ، ومعظمها أفكار تنويرية كما سيتضح من سياق هذه المقدمة وان كان بعضها في حاجة الى وقفـــة ٠



لكن من هو الأســتاذ محمـــد كرد على ؟ وما الفترة الزمنيـــة التي عاشها ؟ فذلك أمر ضروري لفهم بعض أفكار الكتاب ٠ ولد الأستاذ محمد كرد في سنة ١٨٧٦ ، وتوفى سنة ١٩٥٣ أي أنه كان قد بلغ أشده أثناء

الثورة العربية ضد الأتراك ، تلك الثورة التى عرفت بالثورة الكبرى ، كما عاصر الحرب العالمية الأولى ، وعاصر خيبة الأمل العربية فقد ظن العرب أن أوربا (بريطانيا وفرنسا خاصة) ستخلصهم من حكم الأتراك لتقيم لهم دولة عربية • وكان هذا الظن ــ بلا شك ــ لنقص الوعى السياسى لدى الجمهور العربى الذى انخـرط فى هذه الثـورة ، اذ سرعان ما اقتسـم المنتصرون (فى الحرب العالمية الأولى) فيما بينهم بلاد العالم العربى •

ورغم أن الأستاذ محمد كرد على أصله من أكراد السليمانية بالعراق (كانت من أعمال الموصل) الا أنه من الواضح أنه أكثر تعاطفا مع الحضارة العربية الاسلامية التى ضمت بين جناحيها كل الأجناس أو الأعراق ، وكل المذاهب بل كل الأديان ، وجعلت منها نسيجا متآلفا لا تناقض حادا بينه بالضرورة • ولا شك أن مما عمق فكرة العروبة لديه أنه كان أحد فحول العربية فى عصره فقد وصل الى رئاسة المجمع العلمى العربى بدمشق ، وهو منصب علمى رفيـع ، وأية رفعة ! ورغم أنه كردى الأصل ، الا أنه ولد فى دمشق (ومات بها) وتعلم بها مما جعله يحس بآلام العرب لبعض التجاوزات العثمانية ، كما أن الأكراد لم يذوبوا تماما كعرق فى رحاب الدولة العثمانية التى كانت تعتبرهم أتراكا •

ربما لهذا نجده متحاملا شيئا ما على الأتراك حتى كعرق فهو يصفهم بالغباوة وعدم القدرة على التطور ، ويرجع اليهم كثيراً من مظاهر الجمود التى حاقت بالعالم العربى • والواقع أن المؤرخين المدققين لم يعودوا يرددون مثل هذه الأفكار ، وبصرف النظر عن الأسانيد التاريخية التى قد تكون موضع خلاف ، فان تأمل الوضع الحالى يعتبر خير مثال ، وأكثر وضوحا (وهو ما نسميه الدليل الأنثروبولوجى فى البحوث التاريخية) ذلك أن لدينا الآن كيانات سياسية لم تخضع للحكم العثمانى (الشكلى) ومع هذا نجدها على نفس الدرجة من السلم الحضارى لبقية الكيانات العربية • فالمغرب الأقصى لم يخضع للحكم العثمانى ، واليمن لم يخضع تقريبا للحكم العثمانى ، فهل التقدم ــ فى أى منهما ــ وصل النهى ! واذا تركنا العالم العربى ، فان كلا من باكستان وايران لم تخضعا للحكم العثمانى ••

ثم ان العثمانيين لم يحكموا العالم العربى بالمفهوم الدقيق لكلمة الحكم ، وانما تركوا الحكم للقوى المحلية الحاكمة فعلا (كالمماليك فى مصر ، والأشراف فى الحجاز ، والبايات والدايات شبه المستقلين فى تونس والجزائر ••) •

كانت الدولة العثمانية اذن تكاد تكون متفرغة تماما لمقاومة القوى الخارجية وصدها عن العالم العربى • فاذا قيل انها بهذا قد أخرت احتكاك العالم العربى بأوربا المتحضرة ، كانت الاجابة ان الاحتكاك القسرى بأوربا فى ذلك الوقت كان فى منتهى الخطورة ، فبعد اخراج المسلمين من الأندلس أى بعد سقوط غرناطة ١٤٩٢ ولفترة بعد ذلك اصطبغت الروح الأوربية بالروح الصليبية ، وكانت الفكرة السائدة هى حروب الاسترداد Reconquisita أى استرداد بلاد الدولة الرومانية من المستعمرين المسلمين ، رغم أن سكان هذه البلاد كان أغلبهم من المسلمين • وعندما أتى الأوربيون بعد ذلك (حركة الاستعمار الأوربى الحديث) كانت هذه الفكرة قد تلاشت شيئا ما ، وكان الأوربيون قد علموا عن الاسلام والمسلمين أكثر ، والأهم أن السلطات الدينية فى أوربا (الدينيين فيما يسميهم الأستاذ كرد) قد تلاشت أو كادت ، فلم يعد البابوات يحركون الملوك •

لنبحث اذن عن أسباب أكثر عمقا لتخلف العالم العربى عن أوربا •

لقد استفاد الأستاذ كرد من رحابة الدولة العثمانية التى لم تحارب اللغة العربية وانما حاول الأتراك أنفسهم تعلمها ، ولم يحدث أن عملت على تتريك العالم العربى اللهم الا قبيل الحرب العالمية الأولى ، وكان هذا من جانب جمعية الاتحاد والترقى التى كانت تستتر وراء حزب تركيا الفتاة العامل على تتريك العناصر العثمانية • والدليل الحى على هذا هو محمد كرد نفسه الذى يملك هذا اللسان الفصيح ، وهذا القاموس العربى الخصب رغم أصوله الكردية ، فقد حفظ مقامات الحريرى وأشعار المتنبى، وتولى تحرير جريدة الشام ، وكتب فى المقتطف خمس سنوات ، وزار مصر فى سنة ١٩٠١ وتولى تحرير الرائد المصرى ثم عاد الى دمشق ، وهاجر الى مصر فأنشأ مجلة المقتبس سنة ١٩٠٦ ، وعاد بعد الدستور العثمانى ١٩٠٨ الى دمشق فتابع اصدار مجلة المقتبس • كرد اذن كردى عراقى شامى مصرى يتنقل كيف يشاء والبلاد أمامه واسعة • حقيقة ان مصر وقت قدومه اليها كانت تحت الحكم البريطانى (منذ سنة ١٨٨٢) لكن لم يكن الانجليز هم الذين رحبوا به وولوه هذه المناصب •

لكن رغبة كرد فى الاصلاح جعلت الأتراك ــ لفترة ــ ينظرون له كعدو ، وكانت له تجربة مريرة مع جمال باشا كادت توروده موارد التهلكة • فهو عندما عاد الى دمشق بعد مغادرته مصر رفع الواشون بشأنه

وشاية فتم تفتيش بيته وظهرت براءته ، ومرة أخرى اتهمه أحد الولاة الترك بالتعرض للعائلة المالكة العثمانية فى احدى مقالاته ففر الى مصر ومنها الى أوربا وعاد مبرأ ٠ وبعد اعلان الحرب العالمية الأولى كان من الطبيعى أن تلتفت السلطات العثمانية لمن كانوا معارضين مخافة أن يكونوا على اتصال بجهات أجنبية ، فكاد يساق مع من كانوا يتصلون بأعداء العثمانيين (القوى الأوربية) الا أنه نجا فى اللحظات الأخيرة ، فقد فتشت السلطات العثمانية قنصليات الحلفاء فى دمشق فوجدوا فى القنصلية الفرنسية تقريرا كتبه أحد موظفيها قبل الحرب ، وكان هذا الموظف قد زار كرد على فى بيته وأراد استغلال نقمته على (الاتحاديين) ليؤيد السياسة الفرنسية فى الشرق ، لكن الأستاذ كرد خيب ظنه ونصحه بأن تبدل فرنسا سياستها فى الجزائر وتونس ، كما عثروا على نشرة رسمية سرية بعث بها سفير فرنسا فى الآستانة يحذرهم من التعاون مع الأستاذ محمد كرد على لأن ميوله عثمانية ٠٠ وهذا يؤكد أنه ليس كل معارض خائنا ٠٠ فالتاريخ مدرسة وعظة واعتبار ٠

على كل حال فرغم هذا استدعاه أحمد جمال باشا اليه وهنأه بالنجاة ، لكنه أنذره ان عاد للمعارضة فانه سيقتله بيده بمسدسه ، ويقول الأستاذ خير الدين الزركلى ـ صاحب كتاب الأعلام وهو الكتاب الذى نستعين به الآن فى تناول جزئيات من حياة محمد كرد على مع عرض وتحليل وربط بمسار التاريخ ـ « لقد أخبرنى بذلك وقت وقوعه » ويقول الزركلى ان كرد ظل يخشى شبح جمال حتى بعد الحرب ٠ لقد أصيب الرجل بالرعب مع أنه ليس بخائن ٠ وفى مذكراته ما يدل على بقاء هذا الأثر فى نفسه الى آخر أيامه ٠ ويه ! انه جمال باشا !

لكن الأستاذ كرد تولى وزارة المعارف مرتين فى عهد الاحتلال الفرنسى ، وهذا ليس دليلا على انسلاخه من محيطه العربى والاسلامى ، لكننا نعجب من قدرة الأستاذ كرد على التسامى ، أو مطالعة الأحداث بحيدة شديدة ، فيحدثنا عن استعمار أوربا للعالم العربى ، وكأنه مجرد علاقة ٠ قد يكون الأمر كذلك أمام باحث يأتى بعد خمسمائة سنة مثلا ، لكن الأستاذ كرد كان معاصرا للأحداث ٠ وهذا يحتاج الى وقفة ٠ فلم يكن الاستعمار الأوربى للعالم العربى هو سبب تقدمه ـ ونحن نفترض هنا تقدمه بالفعل ٠ ومناقشة مثل هذه الأمور قد تطول ان لجأنا لمجرد الأدلة التاريخية ، لكننا نفضل دائما اللجوء الى الحاضر الملموس ، فاليابان قبل خضوعها للحلفاء بعد اسقاط قنبلتين ذريتين عليها ، كانت قد بلغت شأوا

كبيرا فى سلم الحضارة لم يكن يقل عن دول الغرب • لقد امتحت اليابان مفردات الحضارة الغربية طائعة مختارة ، ولم تكن قد خضعت للاستعمار الأوربى (الاحتكاك القسرى) •

ولدينا أمثلة من أوربا نفسها ، فغرب أوربا لم يخضع للحكم الاسلامى فى العصور الوسطى ، وكانت الحضارة العربية الاسلامية هى الأرقى فى ذلك الوقت بلا جدال ، بينما خضع جانب من شرق أوربا للحكم العثمانى (الاسلامى) واحتك بالحضارة الاسلامية احتكاكا قسريا • أى أن شرق أوربا سبق غربها بالاتصال بالحضارة الاسلامية اتصالا قسريا بينما راح الغرب الأوربى يمتص مفردات الثقافة الاسلامية الراقية شيئا فشيئا وبما يناسبه ، وراح يطور ما يصله ويوائمه • فكانت النتيجة ما نراه اليوم ، وهو أن الغرب الأوربى أرقى من الشرق الأوربى ، وعملت النهضة (الرنيسنس) فيه بشكل أسبق وأكثر تفاعلا من الشرق الأوربى؟ ولم تتعرض تركيا للاستعمار الأوربى (وان كان قد قطع منها ما كان تابعا لها) وراحت تركيا منذ القرن السابع عشر للميلاد وربما قبل ذلك تدخل النظم الأوربية ، وفى القرن التاسع عشر أصدرت مجموعة القوانين المعروفة بخط كلخانة ١٨٣٩ (قوانين قصر الزهور) ، وغيرت بعد ذلك تغييرا اختياريا حتى حروف لغتها •• وهى رغم عدم خضوعها للاستعمار المباشر ليست أقل درجة فى السلم الحضارى من دول أخرى تعرضت لهذا الاستعمار •

ومصر لم تكن خاضعة للفرنسيين أو الانجليز ، يوم راح محمد على الذى تولى أمورها فى سنة ١٨٠٥ ينشىء فيها المدارس ويقيم المصانع ويرسل المبعوثين الى الدول الأوربية ـ خاصة فرنسا ـ ليعودوا بالعلم الذى يحتاجه •• العلم المفيد الذى تتقبله التربة المصرية •• وكان اتصاله بالحضارة الأوربية اتصالا طوعيا لا قسر فيه •• انه احتكاك اختيارى واع ، لذا لم نسمع عن معارضة دينية أو اجتماعية ضده ولم يرفع أحد من شيوخ الأزهر أو رجال الطرق الصوفية أو الأشراف عقيرته بأن تنظيم الرى حرام أو أن اقامة الجسور حرام ، أو أن اقامة القناطر الخيرية حرام أو أن تدريس الحساب أو الفلك على أيدى فرنسيين (كفرة) حرام •• لقد كان اختيار محمد على لمفردات الحضارة الغربية واعيا • وكان تعطيل هذه المسيرة بسبب الاستعمار البريطانى (الأوربى) وليس العكس •

واذا قيل ان الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١) هى السبب فى الدرجة الحضارية التى تضع مصر قدميها عليها الآن . كانت الاجابة - بوضوح كامل - أن الحملة الفرنسية رغم قصر حكمها والمقاومة العنيفة التى واجهتها من المصريين ، قد أدخلت نظمـا ديمقراطية عرفها المصريون لأول مرة ، وأنجزت انجازا علميا باهرا ممثلا فى كتاب وصف مصر ، لكنها ليست السبب فى وصول مصر للدرجة الحضارية التى تقف عليها الآن ، بدليل أن فرنسـا لها وجـود قديم فى غرب أفريقيـا (الفرانكوفون) ومن المعروف أن دول غرب أفريقيا الفرنسية أقل تطورا بكثير من مصر ، وحكمت فرنسا الجزائر حكما حقيقيا طويلا يربو على المائة عام - وليس ثلاث سنوات فقط كما هو الحال فى مصر - ومع هذا فالجزائر على نفس الدرجة من السلم الحضارى التى تقف عليها مصر وربما أقل . انه العمق التاريخى لمصر ، وكونها دولة موحدة منذ نطق التاريخ ، ولكونها كانت تحت حكم اسـلامى رشيد كان نقلة حضارية بالنسبة لما كان قبله . كان الاتصال القسرى بالحضارة الأوربية ممثلا فى الاستعمار الانجليزى هو أحد أسباب التأخر عن ركب الحضارة العالمية . كما كان التركيب العرقى المملوكى وتوارث مكوناته هو السبب فى أن النظم الديمقراطية التى أدخلتها الحملة الفرنسية كانت شكلا بلا مضمون ، أو على الأقل تأخرت ثمارها كثيرا ربما أكثر من مائة سنة .. هناك اذن أسباب فى تركيب المجموعة السكانية ، الأجدر بنا أن نبحث عنها ونعالجها علاجا اجتماعيا أو عمرانيا أو فكريا ، فالقوانين وحدها لا تكفى .



كل هذا لا ينفى المعنى التنويرى الذى ساقه الأستاذ كرد وهو أن الحضـارة الأوربية فيها جوانب شتى لابد أن يأخذ الشرق بها ان أراد التقدم ، لكننا فقط أردنا أن نفرق بين الأخذ بالحضارة الأوربية اختيارا كما فعل محمد على وبين أن تفرض علينا من خلال استعمار يستنزف مواردنا ويهين كرامتنا الوطنية .

أما عن اشادة الأستاذ كرد بحكم الولايات المتحدة الأمريكية للفلبين التى استقلت عنها فى سنة ١٩٤٦ ، وقوله ان حكم الولايات المتحدة أرقى من الحكم الاسبانى الذى خلصت منه الفلبين فى سنة ١٨٩٨ ، فلا محل للاطالة فى التعليق عليه ، كل ما يمكن قوله ان الولايات المتحدة فى ذلك الوقت كانت دولة منكفئة على أمورها الداخليـة وعلى تنميـة مساحتها

الشاسعة ولم تكن تلتفت لاستعمار خارجى • لكننا كنا نتمنى أن يطول العمر بالأستاذ كرد حتى الستينيات والسبعينيات من ذلك القرن ، فربما غير رأيه ، فالتجويع والحصار وما الى ذلك هو أيضا نوع من أنواع فرض الارادة ، ولا ندرى ما تفعل الولايات المتحدة عندما تختل ميزانيتها •

وعلى كل حال فان رجلا كان له دور فى السياسة والحياة العامة وشغل الوزارة مرتين فى ظل الحكم الفرنسى لسوريا ، ربما كان يتحتم عليه أن يصوغ أفكاره على هذا النحو ، والرجل قد عزف بعد الحرب العالمية الأولى عن السياسة والمناصب • يقول الزركلى : « بعد الحرب انصرف تماما عن السياسة فلم يدخل حزبا ولا جمعية وابتعد عن روح الجمهور ، أما حياته العلمية فقد ظلت سلسلة متصلة الحلقات ، ومن أهم أعماله :

- ترجمة كتاب تاريخ الحضارة عن الفرنسية وهو لشارل سينويوس •
- غرائب الغرب ، فى مجلدين •
- أقوالنا وأفعالنا •
- دمشق مدينة السحر والشعر •
- غابر الأندلس وحاضرها •
- أمراء البيان ، فى مجلدين •
- الاسلام والحضارة العربية •
- القديم والحديث (مجموعة مقالات) •
- كنوز الأجداد ، تراجم •
- الادارة الاسلامية فى عز العرب •
- غوطة دمشق •
- المذكرات ، فى أربعة أجزاء •

وسنتعرض فى الصفحات التالية لكل مبحث من مباحثه فى هذا الكتاب الذى بين أيدينا على حدة •

❋ ❋ ❋

ففى المبحث الأول (أثر المدنيــة العربية القديمة فى ثقافة مصر الحديثه) ــ وهو لا يقصد بالحضارة القديمة حضارة معين وسبأ وغيرهما ، كما لا يقصد حصارة ما قبل الاسلام بشكل عام ، وانما استخدم اللفظ (القديمه) استخداما غير اصطلاحى ، فهو يعنى به حضارة مضى على ظهورها زمن طويل وهى حضارة العرب التى هدبها الاســـلام فخرجوا حاملين اياها معهم فى حركة الفتوح العربية أو الاسلامية الكبرى ، وان كان هدا لا يمنع ان عرب شبه الجزيرة العربيه عرفوا مصر قبل ظهور الاسلام تجارا أو لاجئين اليها هربا من قحط بلادهم وجدبهـا ــ فى هذا المبحث يســـتعرض المؤلف مكونات الثقافة المصرية الحديثة كمحصلة لتطورات تاريخية جلبت معها عناصر مختلفة تلاحمت وامتزجت ، فالعرب الذين قدموا لمصر انتسبوا لقبائلهم فى بداية الأمر ثم انتسبوا بعد ذلك للبلدة أو القرية أو المدينة التى قطنوها ، وهم من عرفوا فى التاريخ بالعرب المزارعة ، ويؤكد المؤلف من خلال نصوص موثقة ساقها ترحيب المصريين بالفتح العربى الدى خلصهم من الاضطهاد الدينى ، ويشير المؤلف الى أن انتشار الاسلام فى مصر كان مزامنا للفتح ، فكأنما فتح العرب مصر وحال فتحهم لها أو بعد ذلك بقليل تحول المصريون للاسلام ، وليس الأمر من الناحية التاريخية كذلك ، فاننا لا نستطيع أن نقول ان مصر قد أصبح أغلب سكانها من المسلمين الا فى القرنين الثالث والرابع للهجرة / التاسع والعاشر للميلاد ، لكنها ــ أى مصر ــ كانت قد أصبحت دولة عربية ــ أغلب سكانها يتحدثون العربية ــ فى القرنين الأول والثانى للهجرة/السابع والثامن للميلاد ، فكأنما يمكننا القول بوضــوح كامل تدعمه المصادر ان العروبة فى مصر سبقت الاسلام ، فمنذ القرن الأول للهجرة ، كانت ــ حتى الطقوس الكنسية والصلوات المسيحية تجـرى أغلبها باللغة العربية ، وكانت دواوين الدولة ، ومراسلاتها تجرى باللغة العربية ، رغم أن الموظفين الحكوميين كان أغلبهــم قبطـا ، وهذا يختلف عما حـدث فى مناطق أخرى فتحها العرب ، كالمغرب مثلا الذى سبق فيه الاسلام العروبة بشوط كبير ، فلم يمض وقت طويل على فتح المغرب (بمعناه الجغرافى الواسع) حتى انتشر الاسلام انتشارا كبيرا ، بينما ظل أغلب السكان يتحدثون البربرية وغيرها حتى انتشرت العربية بعد ذلك انتشارا وئيدا ، وظلت مسألة اللغة شاغلا من شواغل المغرب حتى القرن العشرين ، لكنها بطبيعة الحال حسمت فى النهاية لصالح لغة القرآن الكريم ــ العربية . كانت معرفة اللغة العربية ــ اذن ــ طريقا للمصرى كى يعتنق الاسلام ، وكان الاسلام ــ اذن ــ دافعا للمغربى على تعلم اللغة العربية .. وهذا يفسر

شيئا كثيرا من مسيرة التاريخ ، ويعين على فهم كثير من الجوانب الثقافية • وشيئا كالذى حدث فى المغرب ، وجدناه فى العراق ، كما أن اسلام فارس وما يليها شرقا كان يشكل توقا لأهلها ـ بدون ريب ـ لتعلم العربية او محاولة ذلك للتمكن من فهم النص القرآنى • وهذا يفسر لنا أن التفسير الباطنى أو الغيبى للقرآن الكريم والحديث النبوى لم ينتشر فى مصر انتشارا كبيرا لسبب بسيط وهو أن المصريين تعاملوا مع نصوص عربية يفهمونها ـ فهم عميقو العروبة •

وكان من عوامل انتشار الاسلام فى مصر مما ركز عليه المؤلف أن العرب عاملوا أهل مصر على أنهم « مجاهيد » أى أجهدهم من حكموهم من بيزنطيين ورومانيين ، أجهدوهم بجمع الأموال بما يفوق طاقة الأهالى ، لذا كانت توجيهات الخلفاء الراشدين منذ عهد عمر بن الخطاب بعدم تحميلهم أكثر مما يطيقون فهم « مجاهيد » • ثم يشير المؤلف لملاحظة اجتماعية مهمة وهى أن الفلاح المصرى لفرط ما تعرض له من ضغط غدا حريصا جدا على المال ، وان كان المؤلف قد عبر عن ذلك بصيغة فيها شىء من المبالغة (ان المال كان عزيزا على قلوب أهل البلاد يستحلون لأجله ما ينكره دينهم عليهـــم) •



ويتعرض المؤلف لما يمكن أن يوصف بأنه تضييق على المسيحيين فى عبادتهم ، لكن الأمر يختلف اذا تم توضيح هذا الأمر فى ضوء ظروفه التاريخية • ففى سنة ١٠٤ هـ صدر أمر الخليفة (يزيد بن عبد الملك ١٠١ ـ ١٠٥ هـ/٧٢٠ ـ ٧٢٤ م) بالتضـــييق على عبادة الصور أو استخدامها فى عبادة المسيحيين فى مصر ، وقد فسر الأستاذ المؤلف ذلك بأن عبادة الصور أو استخدامها يناقض التوحيد الذى تنادى به الكتب السماوية ، لكن هذا فى الواقع كان مرتبطا بظروف سياسية ودينية أشمل ، فقد عرفت الفترة من ٧١١ الى ٨٤٣ م فى تاريخ الدولة البيزنطية بأنها عصر مناهضة عبادة الصور أو الحركة اللاأيقونية iconclasm (*) وقد اشـــتدت هذه الحركة مرة أخرى فى الفترة من ٨١٣ الى ٨٤٣ م ،

(*) الفعل اليونانى القديم Eiko بمعنى انا اشبه أو أماثل ، والاسم Eikon بمعنى صورة ، ومن المشتقات المعروفة فى التاريخ البيزنطى Icondulo و Iconoclator بمعنى عابد الصور و Iconclast بمعنى محطم الصور ـ د• ابراهـيم طرخان ، الحركة اللا ايقونية •

وما يهمنا فى هذا الصدد أن اعداء الحركة اللاأيقونية كانوا يعتبرونها تاثيرا اسلاميا (١) ، وكان أحد أسباب هجوم المسلمين على الدولة البيزنطية - السبب الظاهرى على الأقل - هو انهم عباد صور (أوثان) وبالتالى فهم ليسوا أهل كتاب . وتمشيا مع هذا الخط العام أو مع هذه السياسة العليا أصدر يزيد بن عبد الملك قراره بازالة الأيقونات من الكنائس المسيحية بالدولة الاسلامية ، تدعيما منه لحزب مناهضة عبادة الصور المقدسة فى الدولة البيزنطية (٢) . والدليل على هذا البعد السياسى. أن مثل هذا القرار الاسلامى تأخر الى سنة ١٠٤ هـ ، وتلاشى أثره بالتدريج بعد ذلك .



ويتعرض المؤلف لوسيلة أخرى من وسائل انتشار الاسلام فى مصر وهى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه - ومن تبعه من الخلفاء - كان يرسل الى مصر الفقهاء والقراء والقصاص يقصون عليهم فى كل ممسى ومصبح ما يرقق قلوبهم ، وكان يختارهم من أفقه الصحابة ... وهنا لابد من وقفة بسيطة ، لقد كان ابن الخطاب ومن أتى بعده يرسل الفقهاء . هذا صحيح . ويرسل المحدثين . هذا صحيح . أما القصاص فهم رواة الحكايات والأخبار ، وكان لأهل السنة موقف معارض لهم .. ولم يرسلهم الخلفاء الراشدون ولا حتى خلفاء بنى أمية .. بل كان المسئولون يعمدون الى طرد القصاص من المساجد . والقصاص هم رواة الحكايات الدينية بقصد ترقيق القلوب ، وقد يضطر الواحد منهم الى وضع الحديث أو تلفيقه اذا عز عليه الحديث الصحيح ، وكانوا فى الأغلب ذوى أهداف سياسية للترويج لأحد الدعاة أو لواحد ممن يدعون انتسابهم لآل البيت مثلا أو للترويج لقبر أحد الأولياء ليكثر زائروه فتكثر أعطياتهم .. مثلا .. الخ ، وقد اعتبر علماء الحديث القصاص من بين واضعى الحديث أى ملفقيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأغلب الظن أن الأستاذ المؤلف قد استخدم هذا المصطلح بحسن نية ، وفيما يلى صفحات من أحد كتب أهل السنة وهى كثيرة التى تشير للقصاص - رواة الحكايات فى المساجد - باعتبارهم من المزورين واضعى الحديث ، الذين

---

(١) الباز العريني ، الدولة البيزنطية ، ص ٢٠١ .
(٢) نفسه ، ص ص ٢٠١ - ٢٠٢ ..
وأيضا سيدة كاشف ، مصر فى فجر الاسلام .

يستدرون الدموع من رواد المساجد بالمبالغة والتهافت ، والكتاب الذى بين أيدينا هو (تحذير الخواص من أكاذيب القصاص) لجلال الدين السيوطى المعروف(ت ٩١١ هـ) وهو فى هذا واحد من سلسلة كتب كتبها علماء الحديث وأهل السنة منها (الباعث على الخلاص من حوادث القصاص تأليف أبى الفضل عبد الرحيم العراقى) • والآن اليك صفحات السيوطى :

تحذير الخواص

من أكاذيب القصاص

للامام المجتهد خاتمة الحفاظ جلال الدين أبى الفضل
عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى المتوفى سنة ٩١١
رحمه الله تعالى

« الحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى • روى الحافظ أبو نعيم فى الحلية عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « ان لله عند كل بدعة كيد بها الاسلام وليا من أوليائه يذب عن دينه »• وقد استفتيت فى هذه الأيام فى رجل من القصاص يورد فى مجلس ميعاده أحاديث ويعزوها الى النبى صلى الله عليه وسلم جازما بها ولا أصل لها عنه ، بل منها ما اشتهر فى كتب بعض أرباب الفنون ولا أصل له عند المحدثين ، ومنها ما هو باطل مكذوب • من ذلك أنه روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ــ وكذب عليه وحاشاه صلى الله عليه وسلم واستغفر الله قبل ايراده من حكايته ، ولولا الضرورة الى حكايته لأجل بيان أنه كذب ما حكيته ــ أنه قال لجبريل حين نزل قوله تعالى (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) هل أصابك من هذه الرحمة شىء ؟ فقال : نعم ، خلق الله قبلى ألوفا من الملائكة كلهم يسمى جبريل ، يقول لكل منهم : من أنا ؟ فلا يعرف الجواب ، فيذوب • فلما خلقنى وقال لى من أنا ، قال لى نورك يا محمد : قل أنت الله الذى لا اله الا أنت •• الى آخر ما قال من الكذب ، استغفر الله من حكاية ذلك • فافتيت بأن هذا لا أصل له ، وهو باطل لا تحل روايته ولا ذكره وخصوصا بين العوام والسوقة والنساء ، وأنه يجب على هذا الرجل أن يصحح الأحاديث التى يرويها فى مجلسه على مشايخ الحديث ، فما قالوا ان له أصلا يرويه ، وما قالوا انه لا أصل له لا يذكره • هذا نص الفتيا أولا • فنقل اليه ذلك

فاستشاط وقام وقعد ، وقال : مثلى يصحح الأحاديث على المشـايخ ؟! مثلى يقال له فى حديث رواه انه باطل ؟! انا أصحح على الناس ؟! أنا اعلم أهل الارض بالحديث ، وغيره الى غير ذلك من الفشارات . ثم اغرى بى العوام فهمست على الغوغاء وتناولونى بألسنتهم وتوعدونى بالقتل والتكفير ، فلما بلغنى ذلك أعدت الجواب وزدت فيه : « ومتى لم يصحح الاحاديث التى يرويها على المشايخ ، وعاد الى رواية هذا الحديث بعد أن بين له بطلانه ، واستمر مصرا على نقل الكذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ افتيت بضربه سياطا » . فازداد هو حدة ، وتزايد الأمر من عصبية العوام شدة ، وثاروا ثورة كبرى ، وجاءوا شيئا امرا . وقد ألفت هذا الكتاب فى هذه المسألة وسميته « تحذير الخواص من أكاذيب القصاص » وهو مشتمل على فصول ، وقد الف قبلى الحافظ الكبير زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم العراقى رحمه الله تعالى كتـابا سـماه « الباعث على الخلاص من حوادث القصاص » وهو ملخص هنا فى فصل من فصول هذا المؤلف . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(فى سياق الأحاديث الواردة فى تعظيم الكذب على رسول الله ﷺ)
(والتشديد فيه والتغليظ فى الوعيد عليه)

أخرج البخارى والترمذى والنسائى وابن ماجه والدارقطنى فى مقدمة كتاب الضعفاء عن أنس أنه قال انه ليمنعنى أن أحدثكم حديثـا كثيرا أن النبى صـلى الله عليه وسلم قال : « من تعمـد على كذبا فليتبوأ مقعده من النار » واخرج البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه والدارقطنى فى مقدمة كتاب الضعفاء والحاكم فى المدخل عن على بن أبى طالب قال قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تكذبوا على فانه من كذب على فليلج النار » وأخرج البخارى وأبو داود والنسـائى وابن ماجـه والدارقطنى عن عبد الله بن الزبير قال قلت للزبير انى لا أسمعك تحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يحدث فلان وفلان ، قال : أما انى لم أفارقه منذ أسلمت ولكنى سمعته يقول : « من كذب على فليتبوأ مقعده من النار » . زاد الدارقطنى : والله ما قال متعمدا وأنتم تقولون متعمدا . وأخرج البخارى ومسلم والحاكم فى المدخـل عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسـلم قال : من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعـده من النار .... الخ » .

بل حتى رواة السيرة النبوية لم يبعثهم الراشدون ولا خلفاء بنى أمية ، فقد كان هناك نزاع بين علماء الحديث ، وكتاب السيرة ، فلم تكن

علاقة علماء الحديث بابن اسحق على ما يرام ظنا منهم أن كتاب السيرة لم يكونوا يراعون الشروط الدقيقة لرواية الحديث كما وضعها علماء الحديث .. انها زلة من الأستاذ المؤلف لا تقلل من المعنى العام المبثوث فى محاضراته القيمة ، ومن منا لا يخطىء ؟!



ربما بفعل الحماس وجدنا الأستاذ المؤلف يذكر أن مصر غيرت دينها قبل الاسلام مرة واحدة وبحد السيف ، وهو يقصد بالطبع انتشار المسيحية فى مصر قبل دخول الاسلام ، لكن الحقيقة التاريخية المعروفة أن المسيحية لم تنتشر بحد السيف أو بفعل ضغط الدولة (الرومانية) فالحق أنها انتشرت رغم أنف الدولة ، التى اضطر حكامها الى اعتناق المسيحية . وكانت مصر فى طليعة البلاد التى تسرب اليها الدين المسيحى خفية من فلسطين منذ القرن الأول للميلاد ، فاضطهدهم الرومان ليتركوا المسيحية لا لاعتناقها ، فقد كانوا قد اعتنقوها بالفعل ، وتعتبر الكنيسة عام ٢٤٨ م هو عام الشهداء لكثرة من قتلهم دقلديانوس فى هذا العام من المصريين المسيحيين ، ولم يحدث الا فى سنة ٣٢٣ م أن أصبحت المسيحيه هى الدين الرسمى للامبراطورية الرومانية وكان ذلك فى عهد الامبراطور قنسطنطين الأول .

لكن الأستاذ المؤلف قد يقصد اضطهاد البيزنطيين (الروم الشرقيين) للمصريين بسبب النزاع الذى نشب حول طبيعة السيد المسيح ، اذ قال المذهب الملكانى Melkeites أو الملكى (نسبة الى الملك أو الامبراطور) بأن للمسيح طبيعتين : الهية وبشرية . ولم ترض الكنيسة المصرية بذلك وسموا أنفسهم (أرثوذكس) ، وهى كلمة معناها أصحاب العقيدة السلفية أو الأصولية (أو الصحيحة) فتعرض المصريون لاضطهاد قيرس Cirus أو المقوقس الذى ولاه الامبراطور هرقل على مصر فى سنة ٦٣٢ م .. لكن الكنيسة المصرية لم تغير مذهبها رغم هذا الاضطهاد .. نحن هنا ازاء وقائع تاريخية مضت ، وحقيقة الأمر أن مثل هذه الخلافات بدأت تتلاشى تدريجيا ، بل ان كثيرا من الخلافات بين الأديان المختلفة وليس فى نطاق المسيحية فحسب بدأت ــ فيما يقول مونتجمرى وات ــ تتلاشى رويدا رويدا ، اذ اكتشف أصحاب الديانات المختلفة أن كثيرا من خلافاتهم

ناتج عن أنهم يتحدثون بلغة مختلفة ، أو بمعنى آخر لا يفهم بعضهم مضامين الديانات الأخرى ، أو أنهم يستخدمون الألفاظ نفسها لكن بمفاهيم مختلفة (١) ٠

على كل حال ، لقد كان هذا الاضطهاد أحد أسباب ترحيب أقباط مصر بالفتح الاسلامى ٠



أشار الأستاذ المؤلف الى أن الأقباط ثاروا سنة ١٠٧ وفى سنوات أخرى لاحقة من سوء المعاملة ، لكن الحقيقة أنها لم تكن ثورات أو (اضطرابات) قبطية وانما هى اضطرابات مزارعين أو فلاحين سواء أكانوا قبطا أم من العرب الذين اشتغلوا بالزراعة ، بسبب فداحة ما كان يجمع منهم ، ونجد أن ما كتبه مؤرخ معروف هو أحمد مختار العبادى فى مبحثه (أحداث مصر الاسلامية) الذى الحقه بكتاب أزمنة التاريخ الاسلامى الذى وضعه عبد السلام الترمانانى من خير ما يوضح تكوين مصر الاسلامية ، اذ أوجزه العبادى فى نقاط كالتالى :

« تكوين مصر العربية الاسلامية

تحولت مصر بمرور الزمن فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة من أمة مسيحية تتكلم القبطية الى شعب اسلامى يتكلم العربية ٠ ويمكننا أن نقسم الفترة التى تبدأ بالفتح العربى لمصر سنة ٢٠ هـ ، وتنتهى باستقلال مصر بزعامة أحمد بن طولون سنة ٢٥٤ هـ ، الى ثلاثة أقسام أو فترات متتالية ، لنبين من خلالها مدى استعداد المصريين لقبول هذا التحول الكبير :

الفترة الأولى : وتمتد من ٢٠ الى ١٠٧ هـ (٦٤١ ـ ٧٢٥ م)

كانت فترة هدوء عاش فيها العرب مع المصريين الأقباط اليعاقبة الأرثوذكس ، جنبا الى جنب فى سلام ٠ ولم ينس العرب للأقباط ما قدموه لهم من مساعدة وتأييد ، فكفلوا لهم الحرية الدينية وتركوا لهم

---

(١) راجع : الاسلام والمسيحية تأليف مونتجمرى وات ـ سلسلة الالف كتاب الثانى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٠

وظائفهم فى ادارة الدواوين • وكان عدد العرب ضئيلا بالنسبة للمصريين ، كما أنهم لم يختلطوا بهم بل عاشوا فى محيطهم القبلى كجنود فى الفسطاط وفى الثغور بمعزل عن الشعب المصرى • كذلك كان موقف الاقباط سلبيا فى حوادث الفتن التى سادت الجيش العربى أيام عثمان وعلى ومعاوية فلم يشتركوا فيها •

ـ تميزت هذه الفترة الأولى أيضا بحدث هام سنة ٨٧ هـ (٧٠٦ م) أثناء ولاية عبد الله بن عبد الملك بن مروان على مصر من قبل أخيه الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك • اذ أمر هذا الوالى بتعريب جميع الدواوين ونسخها باللغة العربية بدلا من اللغة اليونانية أو القبطية •

الفترة الثانية : وتمتد من ١٠٧ الى ٢١٦ هـ (٧٢٥ ـ ٨٣٠ م)

تميزت هذه الفترة بزيادة الهجرات العربية الى مصر وبداية اشتغالهم بالزراعة وتربية المواشى ومن ثم عرفوا باسم العرب المزارعة •

كذلك قام المصريون الأقباط فى هذه الفترة الثانية بثورات عديدة متتابعة ضد السيادة العربية • ولم يكن الدين هو سببها وانما السبب الحقيقى يرجع الى عوامل اقتصادية وهى زيادة الخراج والأعباء المالية وتشدد الولاة فى جمعها مما دفعهم الى الثورة •

وقد حدثت سبع ثورات متلاحقة فى السنوات الهجرية : ١٠٧ ، ١٢١ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٥٠ ، ١٥٦ ، ٢١٦ • وكانت الثورة الأخيرة أخطرها لمشاركة العرب المزارعة بالوجه البحرى فيها ، مما اضطر الخليفة المأمون الى الذهاب الى مصر لتهدئة الحالة •

ولهذا تعتبر هذه الفترة نقطة تحول فى تاريخ مصر لأن هذه الثورات القبطية انتهت تدريجيا باندماج الشعبين وانتشار الاسلام واللغة العربية بين المصريين •

الفترة الثالثة : وتمتد من سنة ٢١٦ الى ٢٥٤ هـ (٨٣٠ ـ ٨٦٨ م) أى الى قيام الدولة الطولونية

فى هذه الفترة أسقط اسم العرب من دواوين الجند كقوة عسكرية فى الدولة فى عهد الخليفة المعتصم العباسى سنة ٢١٩ هـ ، فانتشروا فى

البلاد المصرية يشتغلون بالزراعة وتزوجوا بالمصريات وصارت أجيالهم يجرى عليها المصطلح المعروف حتى اليوم بأولاد العرب • فالعرب اذن تمصروا ، ومعظم المصريين تعربوا ، وبدت مصر جزءا من الأمة العربية الاسلامية ، بحيث لم يأت القرن الرابع الا ونجد أسقفا مصريا مرموقا مثل ساويرس بن المقفع يضطر أن يكتب كتابه سير الآباء والبطاركة باللغة العربية ، لأنه — كما يقول هو نفسه فى كتابه المذكور — لم يجد من يعرف اللغة القبطية أو اليونانية باقليم ديار مصر •

وهكذا نرى أن الفتح العربى لمصر قد اختلف عن الفتوحات السابقة واللاحقة ، وأعطاها طابعها العربى الاسلامى المعروفة به الى الآن » •



وبعد أن حدثنا الأستاذ كرد على عن كثير من العرب الذين استقروا فى مصر ، وحلت أسماء مواطنهم فيها محل أسماء قبائلهم ، حدثنا أيضا عن العدد الكبير من العجم الذين استقروا فيها وشربوا من نيلها وأصبحوا من أبنائها ثم يواصل حديثه حتى عصر دولة المماليك ويدهش لكثرة منشآتهم ومبانيهم ، ثم يتناول الدولة العثمانية وتغلب عليه روح العصر الذى كتب فيه والثورة العربية الكبرى ضد العثمانيين وتطلعهم للاستقلال والأخذ بالنظم الحديثة فنجده يقول ان طبيعة العثمانيين كطبيعة المغول •• وقد أصبح الباحثون الآن على وعى بأن الدولة العثمانية تركت للقوى المحلية حكم البلاد المفتوحة وتفرغت هى للتصدى للقوى الأوربية ، وأن المؤرخين الواعين يسمون العصر العثمانى فى مصر باسم العصر العثمانى المملوكى ، لأن المماليك ظلوا هم الحكام الحقيقيين فى مصر • وعلى كل حال لا يمكن اعفاء العثمانيين — شيئا ما — من الجمود الذى حاق بالبلاد التى فتحوها •



وينهى الأستاذ مبحثه باستعراض أسباب التخلف الذى حاق بمصر فى ظل حكم دولة المماليك ، وفى ظل حكم المماليك من خلال الدولة العثمانية ، حيث شاعت الخرافة والاتكال •• الى آخر ما يطالعه القارىء ، ويتوقف عند الاحتكاك الواعى بالحضارة الأوربية أيام محمد

على ٠٠ ويرى أن الثقافة أو المدنية المصرية تسير فى طريق واع ، اذ وصفها بقوله انها ثقافة عربية اسلامية غربية ٠

ولعل أهم ما فى هذه المحاضرة القيمة أن المؤلف أظهر تلاحم الأمة المصرية بمختلف أديانها ، كما أنه أظهر روح التسامح فى ظل الحكم الاسلامى عامة ، انه يروى لنا فتوى شيخ الاسلام فى الدولة العثمانية بعدم جواز اخراج غير المسلمين منها ، ورفض فكرة السلطان سليم ، ذاكرا ــ أى المفتى ــ أن هذا يتنافى مع روح الاسلام ٠



وفى المبحث الثانى (تمازج الحضارتين العربية والغربية ــ أثر العرب فى الأندلس وصقلية وما اليهما) يظهر لنا العناصر الحضارية أو الثقافية التى أخذها كل طرف من الطرف الآخر فيحدثنا عن نصارى ارتدوا أزياء المسلمين ، وعن مسلمين ــ خاصة فى أواخر فترة الوجود الاسلامى فى الأندلس ــ يلبسون لباس مسيحيى شمال أوربا ، ويحدثنا عن حركة الترجمة من العربية الى اللاتينية وعن دور اليهود الكبير فى ذلك ، وعن ملوك صقليين وأيبيريين استدعوا علماء عربا ، وأنشأوا مدارس لتعليم العربية ٠ ويركز على أن الأندلس الاسلامية كانت هى البلد الأوربى الوحيد الذى أمن اليهود الاقامة فيه ورحلوا اليه من كل صقع أوربى ، وهو ما آكده رحالة يهودى هو بنيامين التطيلى (القرن السادس الهجرى / الثانى عشر للميلاد) ٠

ولأن المؤلف يتناول فى الأساس ظواهر حضارية وثقافية فقد كانت اشاراته للوقائع الحربية والتطورات السياسية مقتضبة ؛ لأنه افترض أن القارىء يعرفها ٠ ولأن التطور الحضارى والثقافى كثيرا ما يكون مرتبطا بالوقائع والتطورات السياسية ، وجدنا من المفيد ربط هذه بتلك (*) فى عناصر موجزة لنعين القارىء على متابعة أفكار المؤلف ، وذلك كالتالى :

(*) اعتمدنا فى هذا العرض الموجز على كتابات حسين مؤنس وأحمد مختار العبادى ٠

● قبل الفتح الاسلامى لشبه جزيرة أيبيريا كان نبلاء الأسرة المالكة القوطية فى صراع مرير للوصول الى العرش مما أدى لفقدان الوحدة السـياسية ٠

● السبب المباشر للتدخل العربى هو رغبة الملك القوطى المخلوع (وقله Akhila) فى استعادة ملكه بمساعدة المسلمين ، وهناك روايات أخرى تعزو أسبابا أخرى للتدخل العربى ٠

● تنفيذا لأوامر الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك قام موسى ابن نصير (٩١ هـ / ٧١٠ م) بارسال الطلائع لاستكشاف جنوب اسبانيا بعضها كانت بقيادة طريف بن مالك الذى لازال اسمه يطلق على المكان الذى نزل به (طريف Tarifa) وساعد يوليان حاكم ولاية سبته المسلمين فى ذلك الذى كان على خلاف مع ردريق Rodrigo ملك القوط ٠

● وكانت نتيجة الاستطلاعات مشجعة فأرسل موسى بن نصير قائده المغربى ونائبه على طنجة طارق بن زياد على رأس جيش كبير معظمه من البربر نقلته السفن الى الشاطىء المقابل ، وتم القضاء على جيش القوط فجـأة ٠

● انضم جيش الملك الاسبانى المخلوع (وقله) لجيش المسلمين لمحاربة جيش ردريق ، وفى رمضان ٩٢ هـ/٧١١ م دارت معركة شذونه وهى المعركة الفاصلة التى حسمت أمر الأندلس لصالح المسلمين ، فاستولى جيش طارق على غرناطة وقرطبة وهو فى طريقه للعاصمة طليطلة ، وفى ٩٣ هـ عبر موسى بن نصير بجيش كبير معظمه من العرب والتقى بطارق فى طليطلة وواصـل معه الفتح حتى جبـال البرت (البرانس) فى سنة ٩٥ هـ ٠

● أما الركن الشمالى الغربى (باشتوريس) فى منطقة جليقية أو غاليسيا فان المسلمين أهملوه لوعورته وقسوة مناخه شديد البرودة لهذا اعتصمت به فلول الجيش القوطى ، ومن هذه البـؤرة نمت نواة دولة اسبانيا المسيحية ٠

● بعد سقوط الدولة الأموية فى سنة ١٣٢ هـ استطاع عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان أن يفر من العباسيين الى أخواله من قبيلة نفزه المغربية واستطاع بمساعدة موالى بنى أمية فى الأندلس أن يؤسس ملكا ٠

● بعد موت عبد الرحمن المعروف بالداخل فى سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م تولى الحكم ابنه هشام المعروف بهشام الرضا ، وأمه جارية اسبانية اسمها حلال وكان صالحا لذلك لاقى تأييدا كبيرا من سكان الأندلس الأصليين ، وتولى بعد هشام بن عبد الرحمن ابنه الحكم الذى عرف بالربضى (١٨٠ ــ ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ ــ ٨٢٢ م) ، وفى عهده قام المولدون بثورة عارمة ، وكانوا كثيرى العدد (والمولدون آباؤهم عرب أو بربر وأمهاتهم من أهل البلاد) ، وكان منهم عدد كبير من الفقهاء ٠ وقد توفى الحكم فى سنة ٢٠٦ هـ / ٨٢٢ م ، تاركا لابنه عبد الرحمن دولة متماسكة٠

● تولى عبد الرحمن المعروف بالأوسط (٢٠٦ ــ ٢٣٨ هـ / ٨٢٢ ــ ٨٥٢ م) وامتاز عهده بالحدة والاستقرار فى كل شيء ، مد يده للدولة العباسية وقضى على سياسة البعد عنها ، فأدخل الموسيقا الراقية لتشارك الموسيقا الحجازية فراحت أنغام زرياب الفارسى الأصل تشنف آذان الأندلسيين ، ولما أغار النورمانديون والفيكنج على سواحل الأندلس الغربية هزمهم عبد الرحمن وأسر معظمهم ودعاهم للاسلام فاستجابوا بسرعة مدهشة ، ووسع دولته بالاستيلاء على جزر البليار : ميورقة ومنورقة ويابسة فى سنة ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م وكانت قبل ذلك تحت سيادة الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وجرت مراسلات بينه وبين الامبراطورية البيزنطية ، ووسع الجامع الكبير بقرطبة ، وشيد عدة مساجد أخرى ، وأعاد التنظيم الادارى للحكومة وكان بلاطه حافلا بالعلماء والأدباء والفنانين ٠

● وبلغ الأندلس عصره الذهبى فى عهد عبد الرحمن الناصر لدين الله (٣٠٠ ــ ٣٥٠ هـ/٩١٢ ــ ٩٦١ م) والحكم المستنصر (٣٥٠ ــ ٣٦٦ هـ/٩٦١ ــ ٩٧٦ م) ثم المنصور بن أبى عامر (توفى ٣٩٢ هـ/ ١٠٠٢ م) لاحظ أن أمراء الأندلس بدأوا منذ عبد الرحمن الأوسط يتخذون ألقابا ذات طابع عباسى ٠

● وانفجرت الثورات الداخلية بعد ذلك وتفتت الأندلس فيما عرف بعصر ملوك الطوائف مما أتاح للمد المسيحى القادم من الشمال الغربى أن

يزداد ، فسقطت طليطلة في سنة ١٠٨٥ م على يد ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون ، وتدهور حال المسلمين في الاندلس فاستعانوا بالمرابطين في المغرب فعبروا وأحرزوا نصرا باهرا في معركة الزلاقة Sacrajas في ٤٧٩هـ/١٠٨٦ م وبذلك انتهى عصر ملوك الطوائف وحل محـله حكم المرابطين ، ولما سـقط حكم المرابطين في المغرب على يد الموحدين انتقلت الأندلس اليهم (٥٥٢ هـ ـ ٦٣٠ هـ/١١٥٧ ـ ١٢٣٢ م) ، وفي كل هذه الأثناء كانت الجبهة المسيحية تحرز تقدما اثر تقدم وسقطت قرطبة في يد فرناندو الثالث في سنة ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م ٠

● وتجمع الفارون في جنوب البلاد واستطاع محمد بن نصر الأحمر أن يؤسس أسرة حاكمـة (بنو نصر أو بنـو الأحمـر) في غرناطـة سقطت أخيرا في يد ملك ليون وقشتالة في سنة ٧٩٨ هـ / ١٤٩٢ م ٠ وبذلك انتهى الوجود السياسى للمسلمين في الأندلس وان بقى الى حد كبير وجـودهم الفـكرى والأدبى والفنى وهو ما يركز عليه الأستاذ المؤلف ٠

وفي **المبحث الثـالث** عن (أثر الحضـارة العربية في الحروب الصليبية ، وأثر الحضارة الغربية على عهد الاستعمار الحديث) فانه لا يتوقف كدأبه عند الأحداث الحربية والسياسية ، ومن هنا فقد كانت الحروب الصليبية بالنسبة له فصلا من فصول العلاقات بين الشعوب ، وكان لها ـ رغم آثارها السيئة ـ جوانب ايجابية على الجانبين ٠

والحقيقة أنه لم يكن لدى الصليبيين الأوربيين ما كان يمكن للعرب أو المسلمين أن يأخذوه عنهم في هذه المرحلة من التاريخ فلم يكن الأوربيون قد وصلوا لنهضتهم ولم يكونوا قد تخلصوا من سيطرة الكهنوت ، ولم يكن لهم حتى ذلك الوقت علم الا وعند المسلمين ما هو أفضل منه ٠ انها ـ أى الحروب الصليبية ـ كانت صفحة سوداء ربما ظلت تتوارث ذكرياتها الأجيال عندنا مما أخر أخذنا من الحضـارة الأوربية بوجهها الجميل (حضارة عصر النهضة وما بعده) ٠ لقد امتدت الحروب الصليبية حتى القرن الخامس عشر ، فهناك حملة صليبية على تونس لم يركز عليها المؤرخون كثيرا ربما لأنها فشلت ، وهناك حروب الاسترداد (الركون كيزتـا Recon quisetta) التى أعقبت طرد المسلمين مـن الأنـدلس ، وكانت هذه الحملات التى يوجهها الاكليروس تصطبغ بالتعصب البغيض ، وكانت في حاجة لمن يصدها ، وهو بصده لها لم يكن يمنع اتصال الحضارة

الاسلامية بالحضارة الأوربية ، وانما كان يمنع قوى تريد محق هوية الحضارة الاسلامية وخصوصيتها ، وهو ما ينطبق على دور الدولة العثمانية فقد حجبت عنا فى مرحلة مهمة أوربا حرب الاسترداد ، وأوربا الحروب الدينية ، وأوربا حرب الثلاثين عاما ، وأوروبا البابوات ، ومن حسن حظنا أن الحملة الفرنسية عندما أتت لمصر لم تكن توجهها كنيسة ولا لاهوت ، كما نحمد الله - ولا يحمد على مكروه سواه - أن حركة الاستعمار الأوربى الحديث لبلادنا كانت تكمن وراءها فى الأساس أسباب اقتصادية وتجارة ومصالح ومصانع مما أتاح لنا رؤية بعض جوانبها المشرقة ، رغم أن الاحتكاك الاختيارى بالحضارات أفضل بكثير من الاحتكاك القسرى • ورغم أن الروح الانسانية العامة هى السائدة فى عصر العولمة فاننا نتمنى ألا يهيمن عليها الراغبون فى هدم خصوصية حضارات الآخرين •

كانت أوربا هى التى ازدادت رقيا باحتكاكها بحضارة المسلمين الراقية ، أما على الجانب الاسلامى فقد كانت الآثار سيئة •

لقد تعرف الأوربيون الصليبيون أثناء الحروب الصليبية على سماحة صلاح الدين الأيوبى الذى يفادى الأسرى ويدفع عن الفقراء منهم ، والذى كان - فيما يقول الباحثون الغربيون - يحارب بعقله وقلبه أكثر مما يحارب بجيشه وسلاحه ، وأنشد المنشدون فى فرنسا وانجلترا بفضائله وفروسيته (دائرة المعارف الاسلامية - مقال صلاح الدين) • لقد رأى الصليبيون بأعينهم المسيحيين الشرقيين يعيشون فى رحاب الدولة الاسلامية فى رغد من العيش ، وربما دهشوا لوجود اليهود أيضا ، بينما كان المذبوحون بالآلاف يوم دخل الصليبيون القدس وطرابلس وأنطاكية وغيرها ، وقد تأثروا قطعا بهذه الروح الرائعة مما أثر بالتالى فى أوضاع أوربا النهضة وما بعدها •

★ ★ ★

وفى **المبحث الرابع (أثر علوم العرب وفنونهم وما كشفوه واخترعوه)** يفيض فى ذكر مفردات حضارية أضافها العرب للحضارة الانسانية ووصلت هذه المفردات لأوربا من خلال البوابات التى أفاضت على أوربا بالتقدم :

- الأندلس
- صقلية
- الحروب الصليبية

مما يؤكد أن احتفاء الأستاذ كرد بالحضارة الأوربية الحديثة لا يعنى غمطه لحق الحضارة العربية الاسلامية •

***

وفى المبحث الخامس (أثر الحضارة الغربية فى البلاد العربية) يتعرض المؤلف لعناصر حضارية كثيرة جدا أخذناها من الغرب معظمها مفيد ، ويتعرض لعناصر أخرى سيئة كانت نتيجة أن التربة العربية لم تكن مهيأة بالقدر الكافى لتلقى عناصر حضارية أوربية بعينها ، ويؤكد ــ وهذا صحيح ــ على أن الاستفادة من علم الآخرين لا تتعارض مع دين ولا فطرة سليمة • وهو يفيض فى ذكر الجوانب الحضارية الطيبة للحملة الفرنسية على مصر ولجهود محمد على لنقل ما هو مفيد من أوربا •

***

وفى المبحث السادس (التنظير بين المدنيتين وأهلهما) ــ والتنظير تعنى هنا المقارنة ــ يتعرض الأستاذ كرد لأثر رجال الدين فى الغرب وأثر الزعماء على الدين فى الشرق فى مسيرة المدنية ، فيقول ان أوربا لم تتقدم الا بعد حركة الاصلاح الدينى التى أجبرت البابوات على الانكماش والابتعاد عن أمور السياسة والاقتصاد •• الخ • أما الشرق ، فلم يتأخر الا بالبعد عن جوهر الدين وقيام زعماء يتمسحون بالدين أو يحكمون باسمه ، وهى اشارة الى الخلافة أو السلطنة العثمانية • ونحن نتفق مع الأستاذ كرد أن الحضارة العربية ازدهرت فى حضن الاسلام ومن الصعب أن نتحدث عن حضارة عربية خالصة ، لكن حديثنا عن حضارة اسلامية عربية يعنى أيضا أن غير المسلمين كانوا مكونا من مكوناتها •

ويركز على أن حضارة الاسلام واسعة رحبة لم تشهد تعصبا مقيتا وكانت تقبل دائما أصحاب المعتقدات الأخرى ما أظهروا الطاعة للدولة ، ويتعرض بايجاز لمحاولة السلطان أكبر فى الهند توحيد الأديان •

والغريب أن الأستاذ كرد يؤيد ما ذهب اليه بعض الباحثين الغربيين من أن عدم احتفاظ العرب بعنصرهم واختلاطهم بأهل البلاد المفتوحة كان أحد أسباب ضعفهم ، ويصل الى نتيجة غريبة ، جزء منها صحيح وهو أن اختلاط العرب بغيرهم من أهل البلاد المفتوحة واختلاط عناصر الدولة

الاسلامية بالتزاوج ، قد أدى الى ظهور ملامح أجمل وأجسام أقوى ، لكنه ــ فيما يرى كرد ومن استشهد بهم من مستشرقين ــ كان أحد أسباب انهيار الحضارة العربية ، وهذا بالتأكيد غير صــحيح ، فقد أدى اختلاط العرب ــ بالتزاوج ــ مع أهل البلاد المفتوحة الى توسيع قاعدة العروبة ، والى عدم بقاء العرب « كأقلية عسكرية » كان يسهل القضاء عليها فى أى وقت ٠

لكن الأقرب الى الحقيقة التاريخية هو أن هذه العناصر التى تكونت منها الدولة الاسلامية ــ بما فيها العنصر الكردى ــ والعناصر المملوكية بعد ذلك ، ظل لكل منها تراث ثقافى تتوارثه الأجيال ، ولم تتلاحم هذه « التراثات » تلاحما كافيا أو لم يهيأ لها توجيه ثقافى لاختيار المفيد من كل منها ، فلا زال هناك « تراث » بدوى وآخر « فلاحى » وآخر « مملوكى » وهذا الأخير انقسم بعدد « الشراذم » المملوكية ، بل لازال هناك مجموعات « عثمانية » أو عثمنلية ، وهى انتماءات لاتزال مجال فخر رغم الجنسية المصرية الشاملة ، وفى العراق وكثير من الدول العربية الحالية لا يكاد الوضع يختلف عن ذلك ، فاختلاط الدماء قوة ، لكن بقى تلاحم هذه « الثقافات » من خلال توجيه ثقافى واع ٠ كما أن الظروف التاريخية التى مر بهــا الانســان العربى ، وبعضها صعب ، قد أوجدت مجموعة من السلوكيات ، فى حاجة الى علاج « ثقافى » و « اجتماعى » وليس مجرد اصدار قوانين ٠

وعموما فنحن ازاء كتاب متوازن وتنويرى ٠

د ٠ عبد الرحمن عبد الله الشيخ

مقدمة

بين اليوم الحاضر والأمس الدابر روابط وصلات وثيقة العرى موصولة النسب ، لذلك ينبغى لنا فى نهضتنا الحاضرة أن نتئد الخطى وأن ننعم النظر والاعتبار الفينة اثر الفينة فى ذلك الارث الرائع الجليل • فلا نتقدم خطوة حتى نأخذ لها أهبتها ونعد لها عدتها ، نستضىء بأشعة الماضى لنهتدى فى الحاضر الى سواء السبيل •

من أجل هذا وضع هذا الكتاب ، وهو يضم بين دفتيه سلسلة من المحاضرات التى نظمها قسم الخدمة العامة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ، وتكرم بالقائها نخبة ممتازة من أعلام النهضة الفكرية •

وهى تنقسم فى مجموعها الى قسمين ، أولهما أثر الثقافة الغربية فى العربية وأثر الثقافة العربية فى الغربية • وقد ألقى الأستاذ محمد كرد على منها ست محاضرات وألقى الأستاذ على مصطفى مشرفة محاضرة واحدة • أما القسم الثانى فيشمل أثر الفكر الحر المستقل ، منوها بقادة الفكر فى القرن الثامن عشر فى فرنسا كفولتير وروسو ورينان

وتين • وقد ألقى حضرة صاحب العزة الدكتور طه بك حسين خمس محاضرات منهـا • وليس من شـك فى أن الثقـافة العربية قد تأثرت الى حد كبير بهذه الثقافة الغربية ، سـواء أكان ذلك فى القـانون أم فى الفن أم فى التربيـة أم فى الاقتصاد •

هذا موضوع هذا الكتاب وقد تركنا لحضرات المحاضرين، وهم من الأعلام البارزين ، مطلق الحرية للتعبير عن آرائهم ومراجعة التجارب المطبعية أثناء طبع الكتـاب • واليهـم وحدهم ترجع التبعة والمسئولية •

ويغتبط قسم الخدمة العامة بأن يقـدم هـذه البحوث القيمة فى كتاب واحد ، يجمع بين أثر الحضارة والثقافة فى الحركة الفكرية ، وهو يسدى جزيل شـكره وعاطر ثنـائه لحضرات من ساهموا فى اعداد هذا الكتاب ٠

اندل كليـلاند

المحرر :

اكتفينـا فى هذا المطبوع الذى بين يـدى القـارىء بمحاضرات الأستاذ محمد كرد علي ، ليكون للمطبوع الواحد مؤلف واحد •

المبحث الأول

أثر المدنية العربية القديمة
فى ثقافة مصر الحديثة

يتقاضانا النظر في انبعاث الثقافة العربية في مصر قديما أن نقف بالجملة على روح الفاتح العربي ، وعلى حالة البلاد التي افتتحها وعلى سياسة الفتح التي أدت الى سرعة انتشار تلك الثقافة . والواقع أن العرب لم يفتحوا قطرا من الأقطار على صورة سهلة كما فتحوا مصر ، فلم يتكبدوا في استصفائها من المال والرجال الا ما لابد منه في حصر بعض المواقع الحربية . وتجلت في هذه الحملة ، وكان التيسير مؤاتيا لها من كل وجه ، روية عمر بن الخطاب الخليفة المنقطع القرين بعدله وبعد نظره ، وبديهة عمرو بن العاص القائد الذي يحارب بدهائه أكثر مما يحارب بجيشه . ومن الذين تولوا معاونته من رجال الصحابة في الفتح وبعد الفتح ، زمرة كان الواحد منهم مقام الألف بصفاته السامية ، ومنهم : الزبير بن العوام (١) وسعد بن أبي وقاص (٢) وعمار ابن ياسر (٣) وخالد بن الوليد (٤) وعبد الله بن عمرو (٥) وعبد الله بن عمر (٦) وعبادة بن الصامت (٧) وخارجة بن حذافة (٨) ومسلمة بن مخلد الأنصاري (٩) ومعاوية بن حديج (١٠) وقيس بن أبي العاص (١١) وعبد الله بن سعد (١٢) وعقبة بن نافع (١٣) ومحمد بن مسلمة الأنصاري (١٤) والمقداد بن الأسود (١٥) وأبو ذر جندب بن جنادة الغفاري (١٦) وأبو الدرداء عويمر بن عامر (١٧) وعقبة بن عامر (١٨) والمغيرة بن شعبة (١٩) وأمثالهم ، ومنهم من تولوا بعد فتح أفريقية (٢٠) وجزائر البحر

الرومى (٢١) وقضوا على أسطول الروم عقبى وقعة الصوارى (٢٢) ٠ ومن هؤلاء الصحابة من كان هبط مصر لغرض التجارة فى الجاهلية ، واتجر فيها ، القائد الأول عمرو بن العاص بالأدم (٢٣) والطيب فتعرف مداخلها ومخارجها ، وكان يعرف أن « أهل مصر مجاهيد(٢٤) قد حمل عليهم فوق طاقتهم » ، وهو الذى حسن للخليفة الثانى فتحها ، وسهل عليه الأمر ، وقال له : ان فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم ، وهى أكثر الأرض أموالا وأعجزها عن القتال والحرب ٠

واتفق أن كان سئم قبط مصر ، وهم كثرتها الغامرة ، أحكام الروم البيزنطيين لما أرهقوهم به من المظالم والمغارم ، ولما ساموهم من الخسف والعنف مدة اثنى عشر قرنا(★)، ثم حاولوا ادخالهم فى مذهب الكنيسة الملكية(٢٥) ، وأرادوهم على أن يصبأوا عن مذهب النصارى اليعاقبة ، فأهلكوا منهم نفوسا، وخربوا بيوتا، وأتوا على بيع وأديار(٢٦)، والخلاف على أشد ما يكون فى مسألة المشيئة الواحدة أو المشيئتين فى السيد المسيح ، يضطهد كل من لا يشايع أهل دين الدولة الحاكمة ٠ والروم فى دور انحطاطهم يرتكبون كل منكر ، ويأتون كل شناعة ، وعامة البلاد التى تخفق عليها أعلامهم فى حالة تشبه مصر فى تبرمها وتظلمها ٠ وتناصرت الأخبار فى مصر على أن العرب أصحاب الدولة الفتية التى فتحت الشام والعراق وبعض فارس ، هم على جانب من

(★) وقت الفتح لم يكن قد مضى على الحكم البيزنطى ١٢ قرنا ولا حتى على الحكم الرومانى ٣١ ق٠م٠ (موقعة اكتيوم) ولا حتى على الحكم الاغريقى ٣٣٢ ق٠م ، هو اذن خطأ وقع فيه الأستاذ المؤلف ٠

العدل والرحمة فى أحكامهم فاشرأبت الأعناق اليهم ، وود الناس لو أنقذوهم مما هم فيه ٠

وكان الرسول قد بعث الى المقوقس (٢٧) ــ أكبر عامل للروم من القبط ــ كتابا يدعوه فيه الى الاسلام ، فتلطف فى جوابه وأهدى اليه جارية قبطية اسمها مارية (٢٨) بنى بها صاحب الرسالة فولدت له ابنه ابراهيم وعدت من أمهات المؤمنين ٠ ذكر عمرو بن العاص فى احدى خطبه قال : حدثنا عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله يقول : «ان الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لهم منكم صهرا وذمة » ، وفى رواية : « فاستوصوا بالقبطيين خيرا لأن لهم رحما وذمة » ولطالما أوصى الرسول بأهل الذمة ، وقال : «من آذى ذميا فأنا حجيجه ومن قتل قتيلا من أهل الذمة لم يرح رائحة الجنة » ، وقال : « من قتل نفسا معاهدة بغير حلها حرم الله عليه الجنة أن يشمها » ، وجعلت الشريعة دية المعاهد كدية المسلم ألف دينار ، ولطالما قتل المسلم بالذمى ، ولطالما خان الروم وغيرهم عهد العرب فقال المسلمون : « وفاء بغدر خير من غدر بغدر » ٠ وقد حاسن المسلمون النصارى خاصة، منذ انبعثت دعوتهم فى جزيرة العرب ، لأن نصارى نجران اليمن كانوا أول من أدى الجزية ولم يجلهم عمر عن أرضهم ويوصى بهم أهل العراق والشام الا لما أكلوا الربا ، وكان شرط عليهم الامتناع عنه ٠ أما اليهود فحاسنهم الرسول أيضا ، ولكنهم آذوه مرارا فأجلاهم فى حياته من الحجاز الى الشام ٠ وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : « أهل مصر أكرم الأعاجم كلها وأسمحهم يدا وأفضلهم عنصرا وأقربهم رحما بالعرب عامة وبقريش خاصة » ٠

ورأينا الروم يصفون العرب بأنهم « فرسان فى النهار رهبان فى الليل يدوون بالقرآن اذا جن عليهم الليل دوى النحل وهم آساد الناس لا يشبهون الأسود » • ولما عاد رسل المقوقس من عند عمرو بن العاص قال لهم : كيف رأيتم هؤلاء ؟ قالوا : «رأينا قوما الموت أحب الى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب الى أحدهم من الرفعة ، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، انما جلوسهم على التراب ، واكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد منهم من العبد ، واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم » وربما كان من أهم العوامل فى فتح مصر ، كون العرب يمتازون بصفات لا مثيل لها فى دولتى فارس والروم ، ومنها : صدق العزيمة وصحة الايمان ، وأنهم ما كانوا يفرقون بين الرفيع والوضيع والموافق والمخالف فى تطبيق قانونهم ، ويدينون بالطاعة لرؤسائهم ويصبرون ويصابرون ويبتعدون عن عيش البذخ والاسراف ، ويعرفون الهدف الأسمى الذى يرمون اليه ، ويستبطنون من أحوال الشعوب التى ينزلون عليها أكثر مما تعرف هذه الشعوب من أحوالهم •

وفى الحق ، ان مصر كان لها موقع من نفوس العرب ويكفى أن يحببها اليهم ذكرها فى الكتاب العزيز فى أربعة وعشرين موضعا ، منها ما هو بصريح اللفظ ، ومنها ما دلت عليه القرائن والتفاسير ، ولم يقع مثل هذا فيه لمصر من الأمصار عامة، فان أجدادهم القدماء كانوا احتلوا أماكن منها وغزوها مددا متطاولة • وعثر المتأخرون فى اللغة المصرية

القديمة على ألوف من الألفاظ العربية . والغالب أن غزو العرب مصر كان أيام القحوط والجدوب التى طالما أصيبت بها بلاد العرب ، فكانوا ينتجعون ما جاورهم من الأصقاع ، فاذا تبرم بجوارهم أهلها غزوهم . ثم ان بلاد العرب تخرج أصنافا من الزراعة لا توجد فى غيرها ، وتجار العرب ينقلون تجارة أقطار الشرق الى الشام ومصر وأفريقية ، والعرب كسائر الساميين تجار أقحاح منذ عرف تاريخهم ، والتاجر من شأنه التعرف الى الناس والبلاد .

ويكتب أبو ميامين أسقف القبط بالاسكندرية الى جماعته يعلمهم أنه لا يكون للروم دولة ، وأن ملكهم قد انقطع ، ويأمرهم بتلقى عمرو بن العاص ، فيقال ان القبط الذين كانوا بالفرما (٢٩) كانوا يومئذ لعمرو أعوانا ، ثم توجه عمرو لا يدافع الا بالأمر الخفيف . وكان عمرو لما نزل على بلبيس (٣٠) ، قتل بعض من كان بها وأسر جماعة وانهزم من بقى ، ووقعت فى أسره ابنة المقوقس فأرسلها الى والدها مكرمة فى جميع مالها . ولما نزل عمرو على القوم بعين شمس (٣١) قال أهل مصر لعاملهم : ما تريد الى قوم فلوا جيوش كسرى وقيصر وغلبوهم على بلادهم ، صالح القوم واعتقد منهم ولا تعرض لهم ولا تعرضنا لهم . وأرسل صاحب الاسكندرية الى عمرو انى قد كنت أخرج الجزية الى من هو أبغض الى منكم معشر العرب لفارس والروم (٣٢) ، فان أحببت أن أعطيك الجزية على أن ترد على ما أصبتم من سبايا أرضى فعلت . وكانت السبايا قد أرسلها عمرو الى الحجاز واليمن فردها الخليفة الى قراها وصيرهم وجميع القبط على ذمة (٣٣) . والسبب فى سبيهم أن أهل مصر

كانوا أعوانا لعمرو بن العاص على أهل الاسكندرية ، الا أهل بلهيب (٣٤) وخيس (٣٥) وسلطيس (٣٦) وسخا (٣٧) وغيرهم فانهم أعانوا الروم على المسلمين ، وسباهم عمرو وخيرهم عمر بين الاسلام ودين قومهم ، فمن اختار منهم الاسلام فهو من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ، ومن اختار دين قومه وضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل دينه فدخل كثير منهم فى الاسلام ·

واذا عطف الفاتح على القبط للأسباب التى ذكرنا ، فذلك لأن جمهورهم حاسنه وما خاشنه ، ولذلك شاهدناه يضاعف الجزية على الروم الواغلين على البلاد · ويأخذ من القبط الجزية دينارين على كل حالم الا أن يكون فقيرا ، وقد أقر النصارى واليهود على ما بأيديهم من أرض مصر يعمرونها ويؤدون خراجها ، وألزم كل ذى أرض مع الدينارين ثلاثة أرادب حنطة وقسطى زيت وقسطى عسل وقسطى خل ، رزقا للمسلمين تجمع فى دار الرزق وتقسم فيهم ، وألزم لكل رجل جبة صوف وبرنسا أو عمامة وسراويل وخفين فى كل عام أو بدل الجبة الصوف ثوبا قبطيا · وما كان الخراج يجبى منهم الا فى ابانه (٣٨) ، مخافة « أن يخرق الوالى بهم فيصيروا الى بيع ما لا غنى لهم عنه » ووقع بعد ذلك الدور بعض الحيف على من عاهدوا على حسن الطاعة وارتضوا بالجزية (٣٩) ، ثم ما عتموا أن عمدوا الى أساليب للتفلت من أدائها ، كأن يدعى بعضهم أنه من رجال الدين يعتصم بالديرة والبيع (٤٠) ، حتى اضطر عبد العزيز بن مروان (٤١) الى أن يحصى الرهبان فأحصوا وأخذت الجزية عن كل راهب دينار · وهى أول جزية أخذت

من الرهبان • ومنهم من كان يهجر بلده وينزل بلدا آخر حتى اضطر الولاة بعد القرن الأول الى أن لا يجوزوا انتقال أحد من قريته وبلده الا بجواز الحاكم ، وانتقض بعضهم غير مرة مدفوعين بعوامل كثيرة ، فما وسع الدولة الا أن تردهم الى الطاعة • والسبب فى كل هذا ، كما قال المؤرخون من غير المسلمين ، ان المال كان عزيزا على قلوب أهل البلاد يستحلون لأجله ما ينكره دينهم عليهم (٤٢) • وهو القائل : « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » •

وترك الفاتح القبط وشأنهم فى كنائسهم وأديارهم ، وأعاد اليهم ما كان أخذه الروم الملكيون منهم ، وأطلق لهم الحرية فى أن يبنوا منها ما طاب لهم • ولما هدم فى القرن الثانى على بن سليمان (٤٣) بعض الكنائس ، احتج موسى بن عيسى (٤٤) والى مصر من قبل الرشيد بأن هذه الكنائس مما بنى فى عهد الصحابة والتابعين ، وأفتى الليث بن سعد (٤٥) وعبد الله بن لهيعة من أحبار الأمة بارجاعها الى سالف عهدها وقالا هى من عمارة البلاد • أما الأصنام والتماثيل ؛ فقد صدر أمر الخليفة فى سنة ١٠٤ هـ بكسرها ومحوها فى مصر لأن دين التوحيد لا يحتمل شعار الوثنية (٤٦) ، وقد جاء للقضاء عليها • وما يتناغى الروم بحبه لا يستلزم أن يشايعهم العرب عليه ، وهو ليس من طبيعتهم ولا من أصل دينهم • والاسلام كما قال عمرو ابن العاص يهدم ما كان قبله (٤٧) ، قال هذا لما أبطل سنة المصريين فى النيل ، وكانوا يعتقدون أنه لا يجرى الا اذا ألقيت فيه كل سنة جارية بكر وزينت بأفضل ما يكون من الحلى والثياب • ولما استقر عمرو بن العاص على ولاية

مصر ، كتب اليه عمر بن الخطاب أن صــف لى مصر فكتب اليــــه :

ورد كتاب أمير المؤمنين ــ أطال الله بقاءه ــ يسألنى عن مصر • اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء ، طولهــا شــهر ، وعرضــها عشر ، يكنفهــا جبل أغبر (٤٨) ، ورمل أعفر (٤٩) ، يخط وسطها نيل مبــارك الغدوات ، ميمون الروحات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشــمس والقمر (٥٠) ، له أوان يدر حلابه ويكثر فيه ذبابه (٥١) ، تمده عيــون الأرض وينابيعها ، حتى اذا ما اصلخم عجــاجه (٥٢) ، وتعظمت أمواجه ، فاض عـــلى جانبيه ، فلم يمكن التخلص من القرى بعضها الى بعض الا فى صغار المراكب ، وخفــاف القــوارب ، وزوارق كأنهن فى المخايل (٥٣) ورق الأصائل ، فاذا تكامل فى زيادته ، نكص على عقبيه (٥٤) ، كأول ما بدا فى جريته ، وطما (٥٥) فى درته ، فعنــد ذلك تخرج أهــل ملة محقــورة (٥٦) ، وذمة مخفورة ، يحرثون بطون الأرض ، ويبذرون فيهــا الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب ، لغيرهم ما سعوا من كدهم ، فناله منهم بغير جدهم (٥٧) ، فاذا أحدق الزرع وأشرق ، سقاه الندى ، وغذاه من تحتــه الثرى ، فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضــــاء ، اذا هى عنبرة ســوداء ، فاذا هى زمردة خضراء ، فاذا هى ديبــاجة رقشــاء ، فتبــارك الله الخالق لما يشاء ، الذى يصلح هذه البلاد وينميهــا ، ويقر قاطنيها فيهــا ألا يقبل قول خسيسها فى رئيســها (٥٨) ، وألا يستأدى خراج ثمرة الا فى أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها ، فاذا تقرر الحال مــع

العمال فى هذه الاحوال ، تضاعف ارتفاع المال ، والله تعالى يوفق فى المبدأ والمآل •

فلما ورد الكتاب على عمر قال : « لله درك يا ابن العاص لقد وصفت لى خبرا كأنى أشاهده ! » •

الآن وقد ألممنا المامة خفيفة بموضوع الفتح وصلات العرب بمصر ، ساغ لنا النظر فى الثقافة التى حملها العرب الفاتحون الى هذه الديار ، وهى ثقافة دينية وأدبية معا ، مازجتها بعد حين ثقافة علمية واجتماعية ، كان أن خرج من مجموعها لون من ألوان الثقافة لا يشبه ما كان من نوعه فى الأمم الأخرى ، وانتهت باعراب مصر واسلامها • فقد كان من عمر بن الخطاب وهو فى صدد الفتوح فى الشرق والغرب أن لا يغفل عن ارسال البعوث الدينية الى كل بلد أظلته الراية الاسلامية : يرسل الفقهاء والقراء والقصاص (٥٩) يفقهون المسلمين ويقرئونهم ، ويقصون عليهم فى كل ممسى ومصبح ما يرقق قلوبهم ، ويختارهم من أفقه الصحابة وأقرئهم وأبلغهم ليتأدب العامة والخاصة بأدب الدين ويجمع المسلمون الى فطرتهم الذكية معارف كسبية (٦٠) •

كان أول من قرأ القرآن بمصر ممن شهد فتحها أبو أمية المغافرى ، ومن فقهائها جبلة بن عمرو وعقبة بن الحارث الفهرى وحيان بن أبى جبلة ، ومن قضاتهم كعب بن يسار ، وكان قاضيا فى الجاهلية ، وهو أول من أسند اليه القضاء فى مصر • وتولى بعد القضاء والقصص(٦١) فيها سليم بن عتر

التجيبى (٣٩ هـ) ، وهو أول من أسجل بمصر سجلا فى المواريث . ومن حكماء الصحابة أبرهة بن شرحبيل ، ومن فصحائهم أيمن بن خريم ، وكان يسمى خليل الخلفاء لاعجابهم به وبحديثه لفصاحته وعلمه . أما الشعر فكثير من الصحابة ومن بعدهم كانوا يقرضونه بالفطرة ، ويخطبون الخطب البليغة من دون ما تعمل ولا تكلف .

قلنا ان العرب كانوا ينتجعون مصر ويغزون أطرافها وربما أقاموا بها زمنا فى بعض الأدوار ، ولكن العرب في مصر وقد فتحتها دولتهم قد تبدل مقامهم فيها ، فسما لهم شوق الى الرحيل اليها لينزلوها ويستعمروها(★)، وتكون لهم ولذراريهم موطنا . ولما لم يرض الفاتح أن يسلب الأرض من أهلها الأصليين ، وأقرهم عليها يؤدون عنها الخراج ، خص النازلين من القبائل العربية بأرض ارتحل عنها أصحابها فأحيوها . وجاءت قبائل العرب وبطونهم يحطون رحالهم فى الريف يعتملون الأرض ، ويتخذون من الزرع معاشا وكسبا . ومنهم من اختار سكنى المدن يخرجون الى مصايف لهم ، وقد تكون لهم تلك المصايف مساكن دائمة . وكان أكثر من نزل مصر من العرب من سكان بوادى الحجاز، تفرقوا فى طول البلاد وعرضها ، واتسعت معايشهم لخصب تربة مصر ، ولما شملهم الفاتح من رعايته . وكان يحظر على الجند لأول الفتح أن يعتملوا الأرض لئلا تخرجهم الزراعة عن القيام بأعمالهم ، فانصرف الى الزراعة أهلها . وما أسرع ما بنى العرب منازلهم ، حتى ان من الصحابة من اختط

(★) استعمر من (ع م ر) أى من العمران ، وليس لها علاقة بالاستعمار بمعناه الامبريالى المعروف .

له دارا فى أرض مصر ، واختط عمرو بن العاص دارا لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب عند المسجد بالفسطاط فكتب اليه عمر : أنى لرجل بالحجاز يكون له دار بمصر ؟ وأمره أن يجعلها سوقا للمسلمين • وكثرت هجرة العرب الى مصر فى عصور مختلفة ، والمورد العذب كثير الزحام • وما فتئت الجزيرة فى القرون التالية تمد مصر بالرجال ، يكثرون سواد سكانها ، حتى أصبح القبط الى قلة فى القرن الثالث (٦٢) • وكان عدد من وجبت عليهم الجزية فى الفتح أربعة ملايين رجل وعد (★) الروم ثلاثمائة ألف •

وانتشرت اللغة العربية بين السكان منذ البدء ، فلم يمض زمن طويل بعد الفتح الا ورأيت رجال الكهنوت القبطى يكتبون بالعربية ليفهموا قومهم • ظاهرة غريبة فى الاسلام • ذلك لأن مصر لم يسبق لها أن غيرت دينها سوى مرة واحدة : غيرته بحد السيف (★★) ، وما غيرت قط فى التاريخ لغتها الا فى الاسلام • وفى الاسلام غيرت دينها ولسانها معا من دون اكراه وشدة ، بل بالحكمة والموعظة الحسنة (٦٣) •

كان الفاتح يستوفى حقه برمته من أهل ذمته ، ويشملهم برأفته وعنايته • ذكروا أنه رفع الى عمرو بن العاص أن غرفة بن الحرث الكندى (٦٤)، وكان من الصحابة الذين سكنوا مصر ، ضرب رجلا نصرانيا فوق أنفه ، فقال عمرو

(★) بضم العين وتشديد الدال وفتحها •

(★★) المؤلف هنا يخلط بين التحول للاسلام ، وانتشار اللغة العربية • انظر المقدمة ، ولم تنتشر المسيحية ولا الاسلام فى مصر بحد السيف • ـ

للصحابى : انا قد أعطيناهم العهد ، كأنه يريد أن يؤاخذ الصحابى بما فعل • فقال غرفة : معاذ الله أن نعطيهم العهد على أن يظهروا شتم النبى ، وانما أعطيناهم العهد على أن نخلى بينهم وبين كنائسهم ، يقولون فيها ما بدا لهم ، وأن لا نحملهم ما لا يطيقون ، وان أرادهم عدو بسوء قاتلنا دونهم ، وعلى أن نخلى بينهم وبين أحكامهم الا أن يأتونا راضين بأحكامنا فنحكم بينهم ، وان غيبوا عنا لم نتعرض لهم • فقال عمرو : صدقت •

انقاد جمهور القبط الى الاسلام ، واختلطت أنسابهم بأنساب المسلمين ، لتزوجهم لما أسلموا من المسلمات • وبالمجاورة فقط يتعلم المغلوب لسان الغالب ، فكيف اذا اختلط دمه بدمه ، وتألفت مصلحته بمصلحته • وللرجل اذا أسلم ولو كان فى سن عالية له من اقامة الشعائر فقط أعظم دافع الى تلقف العربية : يسمع خطب الخطباء فى الجمع والمواسم وأيام الحفل ، فى موضوعات يهمه تفهمها ، ثم يستمع الى قصص القصاص فى المساجد والمعسكرات ، وكان يجتمع الى قصاص العامة النفر من الناس يعظونهم ويذكرونهم • ويكون القصاص(★)كالخطباء من أمثل العلماء على الأكثر ، ويتولى خطبة الجامع الأعظم أمير البلاد ، ومن يتولى الصلاة يرجح على من يتولى الأموال ، فاذا جمع بينهما لواحد كان الأمير كل الأمير •

(★) لم ينتشر القصاص ويحظوا بموافقة الحكومة القائمة الا بعد زمن الراشدين والدولة الأموية — انظر المقدمة •

وكانت الجوامع والمساجد مجامع ومدارس لتعليم البنين والبنات ، يختلف اليها النساء كما يختلف اليها الرجال • والجوامع منتديات القوم ومحال تقاضيهم يخطب فيها فى المهمات وتلقى فيها دروس خاصة وعامة وتتخذ للعبادة فى أوقات الصلوات ، وقلما يخلو جامع من اقامة كتاب على مقربة منه لتعليم الأولاد ، وجاء من النساء المحدثات والواعظات والأديبات والشاعرات ، وعددهن بالطبع أقل من عدد الرجال فى هذا الشأن • وكان لهن من تربية أولادهن ما يشغلهن فى بيوتهن عن أمور يقوم بها الرجال • وتتعلم المرأة مهما كانت منزلتها سورا من القرآن وما يلزمها من أصول الدين وتحفظ الأشعار والأخبار ، وتحضر القصص والوعظ وتأتم بالرجال فى المساجد • والغالب أنه كان الرسم منذ القديم أن لا تخلو دار أحد من أرباب اليسار من فقيه يختلف اليها يعلم الأبناء والبنين ويتفقه به الصغير والكبير ، أو من قارىء يتلو حصصا من الكتاب العزيز فى الليل أو النهار • وكانت العادة أن من بركة كل بيت مهما علت مكانة أصحابه أن يتعلم بعض أبنائه العلم الدينى على الأصول ويتخرج بالشيوخ ويأخذ عن القراء ، وحفظ القرآن من الأمور التى شاعت فى القطر شيوع العقائد الراسخة • ثم ان من واجب المسلم أن يعلم جيرانه ويفقههم ويفطنهم ، ومن مصلحة القبطى والرومى أن يتعلما لغة العرب للتفاهم وللاتجار (٦٥) •

والغريب عن اللغة قد لا يحتاج الا الى أشهر قليلة حتى يتعلمها ، واللسان كان منذ وجد الانسان ، يعلم بالتلقين والتلقى ، ويرسخ بالسماع والانطباع ، أكثر من قراءة الصحف والكتب ، وهذه ما كانت تصل فى الصدر الأول الى

غير أيدى الخاصة من الناس لغلائها وعزتها • وفي حدود ثمان وثمانين من الهجرة فقط ، اتخذ الكاغد أى الورق من القطن فرخص ثمن الطوامير والقراطيس • وكانت الصحف تكتب على لباب البردى وهو غال ثمين • ويطلقون اسم الصحفى على من لم يلق العلماء ويأخذ علمه عن الصحف • فالعلم الاسلامي وان بدأ تدوينه في زمن الصحابة ، الا أن المسلمين كانوا يخزنون علمهم في الصدور ، أكثر مما يرقمونه في السطور ، وربما لم تبلغ أمة من الأمم شأو العرب فى الرواية والدراية •

ولعله كان من الخير للفاتحين ونشر تعاليمهم ولسانهم كونهم ما تصعبوا فى اشراك أبناء الذمة فى المصالح العامة ، فاستعملوهم منذ أول الفتح فى بعض شؤون الدولة ولا سيما فى جباية الأموال وصرفها (٦٦) • ومنذ القرن الأول كان جميع عمال الأرياف من القبط • وكان ناظر مالية الدولة الأموية على عهد معاوية نصرانيا وتولى ذلك بنوه للخليفة من بعده • ولما نقلت الدواوين الى العربية على عهد عبد الملك بن مروان ، ونقل ديوان مصر من الرومية (★) والقبطية الى العربية ، كما نقل ديوان الشام والعراق من الرومية والفارسية ، ضن الفاتحون بأرباب الكفاءات من العمال السابقين فما صرفوهم من التصرف والخدمة ، وما كان يشترط للعمل غير معرفة لسان الدولة والأمانة للسلطان حتى يوليه ثقته ويخلطه بنفسه • وحدثنا التاريخ أن عمرو ابن العاص كان أول من اتصل بالعلماء من القبط والروم ، وأنه كانت له صحبة مع يحيى غرماطيقوس أى النحوى

(★) المقصود اليونانية •

الفيلسوف وأعجب كلاهما بصاحبه ، وأن خالد بن يزيد الأموى عالم قريش (٦٧) وحكيمها لجأ الى علماء من القبط لما أراد نقل بعض العلوم الى العربية ، فنقلوا له شيئا فى الطب والكيمياء وغيرهما ، وكان يفضل عليهم وعلى العلماء الآخرين من الروم والسريان كثيرا ، حتى نقلت له مبادىء الصناعات والعلوم والنجوم والحروب •

وتدين مصر لبنى أمية خاصة بأوضاع من العدل والعمران كثيرة • ذلك لأنهم كانوا يرسلون لامارتها أمثل رجالهم وتطول امارتهم فيها ليتمكنوا من معرفة ما يصلحها • ومن كعمرو بن العاص بادارته الحسنة وسياسته الرشيدة ، ومن كعتبة بن أبى سفيان (٦٨) شقيق معاوية ، وكان من أخطب خطباء العرب يطفىء فى ولايته القصيرة الفتنة وينشر السلام • وكان بعض أهل مصر من العرب اشتركوا كأهل الكوفة والبصرة بمقتل عثمان بن عفان الخليفة الثالث • ومن كعبد الله بن سعد(٦٩) فى حسن سيرته ومعرفته بسياسة الملك ، وفيها طالت أيامه كما طالت امارة مسلمة بن مخلد(٧٠) خمس عشرة سنة ، وطالت أيام عبد العزيز بن مروان (٧١) احدى وعشرين سنة • وفى أيامه عمرت مصر عمرانا ليس مثله ، وبنى فى حلوان الدور والمساجد وغيرها أحسن عمارة وأحكمها وغرس كرمها ونخلها • وهو والد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الخليفة العادل الذى أشبه جده لأمه عمر بن الخطاب بعدله واحسانه ، وهو الذى كتب الى عامله على مصر وقد شكا اليه نقص الجباية لاقبال الناس على الدخول فى الاسلام : ان الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا • وهو الذى جعل الفتيا بمصر الى ثلاثة رجال :

رجلين من الموالى ورجل من العرب فأنكر العرب فعله فقال : ما ذنبى أن كانت الموالى تسمو بأنفسها صعدا وانتم لا تسمون • وهو الذى قال لأسامة بن زيد (٧٢) ، وقد بعثه سليمان بن عبد الملك على ديوان جند مصر وحثه على توفير الخراج : ويحك يا أسامة انك تأتى قوما قد ألح عليهم البلاء منذ دهر طويل فان قدرت أن تنعشهم فأنعشهم ، كأنه كان يشعر وهو من مواليد مصر وابوه أميرها ، أن فى ادارة الدولة شيئا من الظلم تجب ازالته • ومثل هذه الشفقة والرحمة والعطف كانت تحبب الاسلام الى القوم فيسلمون ويمتزجون برجال الدولة ، او يبقون على دينهم لا يفتنون عنه ، ولا تؤخذ كنائسهم ، ولا يهان قساوستهم •

أصبح سكان مصر فى القرن الرابع أخلاطا من الناس مختلفى الأجناس من قبط وروم وعرب وبربر وأكراد وديلم وتتر وأرمن وحبشان وغير ذلك من الأصناف والأجناس ، وجمهورهم القبط ، واختلطت الأنساب واقتصروا من الانتساب على ذكر مساقط رؤوسهم ، وفى هذا القرن كان القبط يتحدثون بالقبطية على رواية المقدسى(٧٣) ولهم ، كما قال ابن حوقل (٧٤) ، البيع الكثيرة وهم أهل يسار وفيهم قلة شر وكثرة خير(★) ويقول الظاهرى فى القرن التاسع أن بالصعيد من الكنائس والديورة قريب ألف وغالب أهله نصارى ، أى أقباط •

(★) هذا يؤكد ما ذكرناه فى المقدمة ، ويعارض ما ذكره المؤلف فى الصفحات السابقة ، فالدخول فى الاسلام فى مصر ، تم بالتدريج وعلى مدار ثلاثة قرون او اربعة • بينما انتشرت العربية كلغة بشكل أسرع •

اذا عرفنا هذا ، فليس ما يمنع من القول ان بوتقة مصر فى الدول الاسلامية كانت تتمثل فيها العناصر الغريبة فتصبغها بصبغتها ، تحيلها مصرية صرفة بعد جيل أو جيلين، وساعد على مزج الدخيل والأصيل فيها ورود النهى عن التفاخر بالجنسية والقومية ، وعدم التفريق بين العربى والأعجمى الا بالتقوى • ومن مصطلح العرب أن كل من أقام ببلدة ولو مدة وجيزة ، ثم مات فيها عد من أهلها ونسب اليها • ولما كان ابن وادى النيل لبدا (★) بطبعه مولعا بمائه وهوائه ، صعب عليه أن يهجره الى أقطار أخرى ليكثر سواد شعب غير شعبه • والمصرى منذ القديم لا يبغى عن مصر حولا ، فهو مغتبط بنيله ، عاشق تربته ، راض بما قسم له • فكأن مصر منذ عهد الفراعنة الأولين بلد استيراد ، أكثر مما هو بلد استصدار (٧٥) • ولولا فريضة الحج فى الاسلام ما خرج المصرى الى الحجاز أيضا يفارق ما فى داره من النعيم المقيم •

وكانت مصر فى الدول العربية بأرباب الرحلات من المحدثين والفقهاء والأدباء والعلماء ، أكثر اتصالا فكريا بالأقطار الأخرى من معظم الأمصار ، لتوسطها بين البلدان العربية ، وترسل الى الأصقاع الأخرى ما لا يكلفها حمله كبير عناء من بضائع علمها وفنها وتفكيرها ، واذا هاجر أحد أبنائها فهجرته مؤقتة • والغريب قد تفتنه فيتخذها مسكنا دائما • وقد كثرت هجرة العلماء اليها من أقطار الأرض بعد القرن الثالث ، لأن الفتن اندلع لسانها ، ولا سيما فى

(★) بفتح اللام وكسر الباء •

العراق والشام ، والعلماء أحوج الناس الى السلام ، وكانت مصر ساكنة هادئة بفضل من استولوا عليها فى ذاك الدور . ولما خرب المغول بغداد فى القرن السابع رحل العلماء منهـا الى مصر ، على نحو ما جرى لما استولى الأتراك على الأستانة فى القرن التاسع فرحل منها الى ايطاليا بعض علماء اليونان، وكانوا من عوامل نهضتها . وفى رحلات المرتحلين من مصر واليهـا ضرب من ضروب تبـادل العلم والأفكار ، وكانت الجوامع تؤوى هذه الطبقات من المشتغلين ، قبـل أن تنشأ المدارس فى القرن السادس . وما خلت بيوت العليـة من الناس فى كل محلة ومنزلة من قبـول النزلاء عـلى الرحب والسعة . والـكرم ما انقطع من مصر فى دور من أدوارها ذلك لأن المصرى كالعربى يعد الشح مثلبة وأى مثلبة . وفى قصة المرأة القبطية المشهورة مثال من هذا الكرم الفطرى : ذلك أن الخليفة المأمون مر بقريتها طاء لنمل (طنامل) لما وافى مصر ، فسـألته أن يقبل قراها ولما اعتذر بكت بكاء كثيرا وقالت : لا تشمت بى الأعداء ولا تحرمنى هذا الشرف الذى تولبنيه وعقبى . فنزل عليها برجاله وجيشه ، فأطعمتهم من فاخر الطعام ولذيذه . وبعثت الى الخليفة فى الصـباح بعشر وصائف مع كل وصيفة طبق ، فى كل طبق كيس من ذهب فاستحسن ذلك وأمرها باعادته ، فقالت : والله لا أفعل . فتأمل المأمون الذهب ، فاذا به ضرب عام واحد كله . فقال : هذا والله أعجب . وربما يعجز بيت مالنا عن مثـل ذلك . فقالت : يا أمير المـؤمنين لا تكسر قلوبنـا ولا تحتقر بنا . فقال : ان فى بعض ما صنعت لكفـاية ، ولا نحب التثقيل عليك ، فردى مالك بارك الله فيك ، فأخذت قطعة من الأرض

وقالت : يا أمير المؤمنين هـذا ــ وأشـارت الى الذهب ــ من هذا ــ وأشارت الى الطين ــ ثم من عدلك يا أمير المؤمنين ، وعندى من هذا شيء كثير فأمر به فأخذ منها ، وأقطعها عدة ضياع وأعفاها من بعض خراج أرضها ٠

رأينا العرب ينقلون من دار أعرابيتهم أساس الثقافة العربية على نحو ما جروا فى كل قطر فتحوه ، فيشخص اليها رجال القرآن والفقـه والرواة من الحجـاز واليمن وفيهم الجهنى والفهرى والتميمى والتنـوخى والمخزومى والمزنى والعيسى واللخمى والقرشى والخزاعى والقضاعى والأزدى والحضرمى ، ثم صـار يغشاها الجرجانى والنيسـابورى والمروزى والشيرازى والدينورى والسمرقندى والخوارزمى والبستى والطبرى والهمدانى والطوسى والجوينى والتبريزى والشهرزورى والقزوينى والغزنوى والهروى والخراسـانى والنسـائى والبلخى والبيهقى والاصـطخرى والأهـوازى والسيرافى والبغدادى والاربلى والكوفى والبصرى والموصلى والحـرانى والواسـطى والمصيصى والأشـعرى والجزرى والمـاردينى والطرسـوسى والتفليسى والدمشـقى والحلبى والحمصى والبعلبـكى والحمـوى والطرابلسى والنـابلسى والصفدى والمقـدسى والعسـقلانى والانطاكى والصـنعانى والخولانى ، ثم الغرناطى والقرطبى والقيروانى والفـاسى والتـونسى والسـوسى والصـفاقسى والصـقلى والميـورقى والصنهاجى والتلمسانى(٧٦) ٠ فكان علماؤها والممتازون من رجالها من أصول عربية أو من المستعربة ، وبعد حين صرت تسـمع باسم الاسكندرانى والدمياطى والرشيدى والتنيسى والمحلى والأسـيوطى والبـويطى والأسـوانى والطحـاوى

والطنطاوى والصدفى والبلقينى والبوصيرى والاخميمى والسخاوى والقلقشندى والاسنوى والاسنائى والصعيدى والقوصى والبحيرى والقليوبى والطوخى والبيجورى والديروطى والشرقاوى والجيزى والجيزاوى والجرجاوى والدشناوى والدمنهورى والفيومى والقفطى والأرمنتى والزنكلونى والمنـاوى والمنياوى والبلبيسى والأبيارى والأدفوى والحوفى والشنطوفى والقنائى والبهنساوى أو البهنسى والأشمونى والسمنودى(٧٧)، الى غيرهم من الرجال الذين نسبوا الى مساقط رؤوسهم فأدركنا لأول وهلة انهم من صميم المصريين .

عرفنا أن الثقافة التى انتشرت فى مصر جمعت بين القرآن والسنة والشعر والأدب ، ولما تعينت المذاهب انتشر الفقه المالكى والشافعى ، ثم فقه أبى حنيفة والفقه الحنبلى على قلة ثم الفقه الاسماعيلى مذهب الفاطميين من آل البيت، وانقرض هذا الفقه الشيعى أوائل عهد دولة بنى أيوب(٧٨)، وانتشر التصوف أكثر من الفلسفة ، وصرف الناس همهم الى الدينيات ، وعدوا من فروعها التصوف ، ونابذ الفقهاء الفلاسفة ، ولكن الأمصار ما خلت فى عصر من الأعصار من مفننين(★) وحكماء ، لو وقع الينا كل ما دون فى هذا الشأن لعرفنا طبقة كبيرة من هذه الأصناف . فعندنا طبقات المفسرين والمحدثين والحفاظ والشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة والأدباء والشعراء والأطباء والحكماء والصوفية ، وما سقطنا فى تركة السلف على طبقات المصورين والنقاشين والمهندسين والموسيقاريين ، بل عرفناهم بالشىء القليل الذى جاء عرضا

(★) المفنن بالمعنى التراثى اى المؤلف ، وغير بعيد عنا كتاب « كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون » لحاجى خليفة .

فى الكتب الباقية التي ما كسرت عليهم، ولو كتبوا هم بأنفسهم عن أبناء فنهم لاطلعنا من مخلفاتهم على أسرار فى هذه المدنية التى نمت عنها مصانعهم وتجلت بها هندستهم الجميلة وتراتيبهم التى ما خلت من ابداع ، وتم بذلك تاريخ التهذيب العربى وما أنتج من بدائع وروائع • ولا يعقل أن لا يترجم المفننون لرجالهم ، والغالب أن مدوناتهم فقدت فى جملة ما فقد من ثروتنا العلمية والأدبية فى الفتن والثورات والعوامل الأرضية والسماوية •

ولو وقع الينا ما دونه أرباب الصنائع والفنون كما انتهى الينا ما دونه علماء الشريعة والأدب والتاريخ ، لعرفنا جمهورا نجهله من الناس • وكم من علم اندفن فى صدر ، ومن فن ما قدره الناس قدره ، فزهد الناس فيه ! وهذه المصانع التى أبقت الأيام على خطوطها ورسومها فى الفسطاط والقطائع وما فى جوارهما من القاهرة المعزية من المدارس والجوامع والرباطات والمستشفيات ، شاهدة على الدهر بما أبدعت تلك العقول والأنامل التى حملت شيئا كثيرا من العلم والعمل ، وقد اشتركت الطوائف الدينية الثلاث على السواء فى اخراجها للناس، وكان سواد الأطباء والمنجمين والمهندسين من غير المسلمين ، وخاصة من اليهود بادىء بدء(٧٩)، فأصبح سوادهم الأعظم من المسلمين فى الأدوار التى كثر فيها من انتحلوا الاسلام •

آخذ القوم فى القرن السادس ينشئون المدارس ، ينزلون فيها كل من يحب طلب العلم ، ويغدقون على الدارسين والمدرسين ما يقوم بهم على حد الكفاية : بدعة حسنة ابتدعها عقل صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب مصر والشام ،

وكثرت المدارس بعد ذلك حتى لا تكاد تخلو منها الحواضر الصغيرة ، وضاع كثير من أخبارها فى جملة ما أتت عليه الأيام ، فقد كان فى قوص فى القرن السابع ستة عشر مكانا للتدريس وبأسوان ثلاثة وبأسنا مدرستان وبالأقصر مدرسة وبأرمنت مدرسة وبقنا مدرستان • لا جرم أنه كان فى المدن الأخرى كالاسكندرية وبلبيس ودمنهور والمنوفية وغيرها مجالس ومدارس لطلب العلم الدينى ، وعلوم العربية تابعة له ومعينة على تفهمه •

وكان الحاكم بأمر الله الفاطمى أنشأ فى سنة ٣٩٥هـ دار العلم أو دار الحكمة فى القاهرة ، فجلس فيها القراء والفقهاء والمنجمون والنحاة وأصحاب اللغة والأخبار ، ورتب فيها قوما يدرسون الناس العلوم ، وسبل(٨٠) عليهم خزانة كتب عظيمة فيها من كل فن خبر ، وكان من جملة ما يعلم فيها الطب والرياضيات والمنطق وبقيت نحو ١٧٥ سنة عامرة ، وعاد الأفضل فى آخر أيام العبيديين (٨١) فأسس دار العلم سنة ٥٧١ واستخدم فيها مقرئين ولم تزل عامرة الى انقراض الدولة الفاطمية • وكان القائد جوهر الصقلى فاتح مصر باسم الفاطميين أنشأ الأزهر فأصبح منذ عهدهم الى اليوم مصدر العلوم الشرعية ومباءة الآداب • أنشأوه لنشر التشيع ، وظل على ذلك طول أيامهم ، وكان غرامهم كثيرا فى الدعوة لمذهبهم تقرأ على رئيسه ، ويسمونه داعى الدعاة كتبهم بدار العلم ، وطبيعى أن يتبع تعليم المذهب تلقين العربية على أصولها ، لأن البراعة فى الشريعة تتوقف على البراعة فى فنون العربية والمنطق والجدل والحكمة القديمة •

وغير(٨٢) الناس فى مصر يستفيدون من كل ما تأتيهم به الدولة الحاكمة . والواقع أن كل دولة حكمت مصر ولو حقبة صغيرة من الدهر أبقت أثرا من آثار غيرتها على العلوم والصنائع وعنيت بنشر الآداب يتراءى ذلك من النظر الى المصانع والآثار ، وما دون المدونون من تاريخ وأخبار ، وكان غرامهم ظاهرا بانشاء المساجد ، وقد ضاقت مرة بيوت الأموال من مال الخمس فى مصر ، فصدر أمر الخليفة ببناء المساجد ، واستغنى الناس أيام كافور الاخشيدى ولم يجد أرباب الأموال من يقبل منهم الزكاة فأمرهم أن يبنوا بها المساجد ويتخذوا لها الأوقاف ، وما كانوا يغفلون مع هذا عن بناء القناطر والجسور والعمائر النافعة لجلب السعة الى المصريين ، ولئلا يقل الارتفاع اذا أهمل أمرها . وبعد ، فمن كان يظن أن دولة الأيوبيين التى خلقت وماتت فى الحروب الصليبية وبها كانت الشام ومصر فى أمر مريج(٨٣) تعنى أيضا بالعلوم والصناعات وأعمال العمران . هذا والدولة فى حالة تقلقل عظيم لدفع صائل أهل أوربا عن هذا القطر والديار الشامية . وقد وصف ابن جبير فى القرن السادس مفاخر الاسكندرية وعد منها المدارس والمحارس، أى الأبراج الموضوعة فيها لأهل الطلب والتعبد ، يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى اليه ، ومدرسا يعلمه الفن الذى يريد تعلمه ، واجراء يقوم به فى جميع أحواله ، قال : واتسع اعتناء السلطان ، أى صلاح الدين بن أيوب ، بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا الى ذلك ، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم ، وقال فى كلامه على مصر والقاهرة : وما منها جامع من الجوامع، ولا مسجد من المساجد، ولا روضة

من الروضات المبنية على القبور ، ولا محرس من المحارس ، ولا مدرسة من المدارس ، الا وفضل السلطان يعم جميع من يأوى اليها ويلزم السكنى فيها ، تهون عليه فى ذلك نفقات بيوت الأموال ، وأنه أمر بعمارة محاضر ألزمها معلمين لكتاب الله عز وجل ، يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة وتجرى عليهم الجراية الكافية لهم • وذكر غيره أن جامع مصر بين العشاءين كان غاصا بحلق الفقهاء وأئمة القراء ، وأهل الأدب والحكمة ، ولا ترى أجل من مجالس القراء به وأن هذه المجالس كثيرة وربما لا يكاد يخلو مسجد كبير من مجلس يسمع فيه الناس علما وحكمة وعظة • ويقول المقدسى فى الفسطاط : انه ليس فى الاسلام أكبر مجالس من جامعه وانه معدن العلماء وان نغمة أهل مصر بالقرآن حسنة •

بل من كان يظن أن دولتى المماليك البرية والبحرية وفى ادارتهما بعض العهدة تعنيان بالآداب والمعارف على مثال الدول العربية السالفة ، حتى كثرت فى أيامهم المدارس والجوامع والترب كثرة عجيبة ، وارتقى فن البناء وظهرت علائم الترف ، وكثر المؤلفون والباحثون ، وزادت علاقات مصر بدول الغرب وعلاقاتها بدول الشرق • نعم ، فى أيامهم تنافس الأمراء فى تشييد الزوايا ، وكانت كل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء ، وفى عهد بعض ملوكهم تنافس الأمراء والكبراء فى بناء المساجد وزادوا وغلوا ، لأن أمير الوقت كان يغلب عليه الصلاح ، وحبيب الى قلبه أن يرى ذلك من رعيته ورجاله ، والناس على دين ملوكهم • وما نراه فى بعض الأحياء القديمة فى القاهرة من قيام الجامع الى جانب أخيه ، هو أثر من آثار هذه العناية ، ولو كان

اجتمع جماعة على بناء الجامع الواحد بدل اختصاص كل فرد بعمله ، لجاء العمران فى مصر وغير مصر صورة عظيمة من صور التضامن الاجتماعى ، ولكتب البقاء للمصانع الكبرى أكثر من غيرها ٠

وأكثر ما نفع مصر فى علمها وجعل لمعظم مظاهر العقل فيها مظهرا خاصا ، أنها تمتعت من العهد الأموى والعباسى بأجمل أيامهما ، وكان لها أبدا شبه ادارة خاصة ، ولطالما نزعت الى الاستقلال الجزئى أو الكلى ٠ وباستقلال ابن طولون بها عمرت عمرانا غريبا ما عهدته منذ قرون ٠ ومن أهم ما حفظ لمصر شخصيتها ، وأبقى عليها آثارها قيام صحراء التيه فى طريقها الى بلاد الشرق ، فتحامى كثير من الفاتحين اقتحامها من البر ، وكان من الصعب اقتحامها من طريق البحر فى عصور سفن الهواء ، ومن سعادة مصر أن بيت المقدس بعيد عن حدودها ، فما غزاها الصليبيون مائتى سنة لاستخلاصه كما وقع فى الشام ٠ ومن حسن الطالع أيضا أن أشرار الفاتحين أمثال جنكيز خان وهولاكو وغازان وتيمورلنك ، ما حدثتهم أنفسهم فى التقدم لاحتلالها ، فنجت من تخريبهم على ما خربوا كل بلد نزلوه من بلاد الاسلام فى القرن السابع والثامن والتاسع ، ومنها ما دمروه عن آخره ، ولم يبقوا من أهله ديارا ٠

وأبت الأقدار الا أن تساهم مصر بأخرة سائر الأقطار العربية فى حظها من الفاتحين ٠ فجاء سليم الأول العثمانى المدعو بالجبار (ياوز) من طريق صحراء التيه يضرب على أيدى المماليك فيها ، وكانت نفوس المصريين قد سئمت

أحكامهم أواخر أيامهم ونمى الى المصريين من أخبار الدولة العثمانية ما يغرى بها ، فعلقوا على انضمام مصر إلى الأتراك آمالا طوالا ، بيد أن الاحتكاك بالترك العثمانيين أظهر أن طبيعة المغول واحدة ، لأنهم والترك من جنس واحد وهؤلاء لا يفضلونهم الا لأنهم دانوا بالاسلام ، بيد أنهم ان تحاموا تخريب البلاد التى يحتلونها على الغالب لا يتحرجون من ادخال الوهن على مقوماتها ، فقد عمل السلطان سليم فى هذا القطر أعمالا نابية عن حد الانصاف ، ومن أهمها أنه أخذ الى القسطنطينية الممتازين من رجالها ، والنابغين من أرباب الصنائع فيها ، فبطلت فيها خمسون صنعة ، هذا الى ما حمله معه من ذهبها وجواهرها وعادياتها وكتبها وأعلاقها(٨٤) ، واتفق قبيل فتحه أن كان البرتغاليون وفقوا الى الطواف حول افريقية . ففتحوا طريق رأس الرجاء الصالح ، وحولوا تجارة الشرق عن مصر ، وكانت سوقها الكبرى دهرا طويلا ، وبحر القلزم أهم منفذ لها (٨٥) ، وكان من هذا الاختلاط والتمازج مع أهل الأقطار الأخرى فائدة لمصر ، فلما ضعفت تجارتها افتقرت كمعظم هذا الشرق القريب . ومتى دب الفقر فى أمة تفتر على الأغلب أعمال العقل فى بنيها . وكان من عوامل التقهقر أيضا انتشار الأوبئة كل مدة لا تبقى من الناس ولا تذر ، ولئن قلت زلازل مصر فما أكثر ما كانت طواعينها الجارفة ! .

كانت الحكومات التى سبقت العثمانيين مهما كان لونها تفكر فى خير مصر ، لأنها تأكل منه وتستمتع به ، فتعطف على رجال الأدب وحملة الشريعة وتنشط الصناعات والتجارة والزراعة . ومنذ فتح الفاتح مدينة القسطنطينية ، حاول أن

ينشىء له مدنية اسلامية تضاهى على الأقل مدنية مصر فى عهد المماليك ، فأخفق لأن استعداد أمته للصناعات العلمية والعملية كان ضعيفا ، وأمته حربية صرفة • وربما عد الأتراك أعمال اليد والفكر مما لا يتناسب مع عظمة الأمة الحاكمة ، فتركوا العناصر الاسلامية وشأنها تنتج وهم يتمتعون • وما كان هم الدولة فى مصر غير جمع المال من رعاياها واغناء طبقة خاصة من رجالها على نحو ما كان من رجال روما على عهد دولة الرومان(★)، فتركت القطر غرض الرماة من الولاة ، وكثيرا ما كانت تنصبهم أشهرا قليلة لئلا يخرجوا بطول الزمن عن طاعتها ، ومن كان منزله منزل قلعة كيف يتسع له الوقت ليفكر فى اصلاح مختل وايجاد مفقود ، هذا ان كان على استعداد لعمل الخير للناس • وظل بقايا المماليك على كثرة من قتل منهم فى الفتح العثمانى حكام مصر بالفعل ، ولا تكاد تقع فى أهل هذه الدولة الأعجمية على شىء اسمه ثقافة أو أدب أو عمران ، واضمحل فى عهدها كثير من مشخصات الأمم وأصبحت المدارس اصطبلات ودورا ، وبطل التدريس فيها ، واستصفيت الوقوف التى كان أهل الاحسان من الملوك والأمراء والأغنياء حبسوها عليها ، وانحط الأزهر فى أيامهم الى التى ليس بعدها ، ورفع منه معظم ما يفتح الذهن من الفنون فجمدت وتعقدت طريقة التعليم فيه ، فصارت قواعد العلوم ألغازا وأحاجى حملت الكتب منها أحمالا ، وضاع الجوهر النافع فى غمار الحواشى والشروح والتعاليق والاختلافات وشيبت (٨٦) العلوم الدينية بما لم يكن فيها ، فضلت الأفهام

(★) راجع المقدمة

لزهد العلماء فى كتب الأقدمين السهلة الواضحة ، وتعلقهم بكتب المتأخرين وما فيها من خبط وخلط أحيانا تضيع فى حل رموزها الأعمار جزافا • وسقط الشعر الى الدرك الأسفل ، وأمسى النثر أبرد من عضرس (٨٧) ، وأضحى الطب والهندسة وسائر الفنون اسما بلا مسمى •

نعم ضعفت الآداب حتى ما تكاد تعد مصر بعد القرن الثامن من الشعراء من يجدر بالناس أن يتناقلوا كلامهم ، وفسدت الكتابة بالسجع السخيف • وفى الكتب نموذجات من كل عصر لا ترضيك منها السلطانيات ولا الاخوانيات ، أى ما صدر عن الملوك والأمراء وما صدر عن الأفراد من الأدباء • وعلى تلك النسبة انحطت الخطابة وكان لها فى عصور الارتقاء مواسم جنية الثمرات ، تنفع فى رفع مستوى العقول فى الأخلاق والسياسة ومعظم المظاهر الاجتماعية ، فأصبحت فى هذا العهد عاملا من عوامل الزهد والتوكل وتسويد الدنيا فى وجوه من يسمعونها ، وتعليمهم الرضا بالدون من العيش • فأماتت الهمم ، ونزعت الشمم ، ولقنت الناس منازع لو سار عليها المسلمون فى قرونهم الأولى لما أنشأوا مدنية جميلة ، ولا أسسوا ملكا ضخما ، بل كانوا بلا مراء أحط من زنوج افريقية •

وتخدرت الأعصاب فوهنت المدنية ، وهل المدنية غير ابنة الأعصاب القوية ، وذلك بما انتشر فى أرجاء القطر من أهواء جديدة علمت الناس الكسل وأبعدتهم عن حياة العمل ، فراجت الخرافات والترهات ، واعتقد من اعتقد بالكرامات ، وكثر الاستمداد من أهل القبور والنذر لها والاجتماع

حولهـا ، بما لم يعهـد له مثيـل فى بضعة القـرون الأولى للاسلام ، كأن المتأخرين عرفوا من روح الدين ما لم يعـرفه جماعات الصحابة والتابعين وتابعوهم • وبطل حكم العلوم المادية وما عادت الآداب تنفع فى انارة الأفهام وتحسين حال المجتمع ، وخلت ممن يستحسنها أو يستهجنها ، وممن يقرها أو ينقدها ، وكان الشـعر فى الدهر الغـابر يقيم القبيلة ويقعدها ، والخطبة الواحدة تعقد الصلح أو تشهر الحرب • وغدا الناس لا يتفاهمون فى مصالحهم الجزئية مع عمالهم الا بواسطة التراجمة ، والقضاء تركى ، والادارة تركية ، والروح تركى ، ومئات الألوف من أهل مصر لا نقض لهـم ولا ابرام فى تراتيب بلادهم وموارد حياتهم •

يقول مؤرخو الترك ان السلطان سليما فاتح مصر وبلاد العرب كان ينوى أن يجلى غيرالمسلمين عن بلاده ، بحيث تصبح اسلامية صرفة فمنعه من ذلك شيخ الاسلام زنبللى على أفندى، وقال ليس لك أن تزحزحهم عن أرضهم ولا حق لك فى غير الجزية منهم ، وانه كان من أمانى هذا السلطان أن يجعـل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية ، ولكن الأجل لم يساعده عـلى انفـاذ أمنيتـه لما شـغل به مدة حـكمه من الحـروب والغارات • ومهما أحسن الظن بما كان من نيته ، فالعبرة باخراج أفكاره من حيز القول الى ميدان العمل • ولو كان بدأ على الأقل بأن يكتب أوامره الى البـلاد العربية بلغتها ، لقلنا انه يمهد السبيل لما يرى فيه سـلامة الدولة والأمة ، والا فالتفكيرات كثيرة ، والمناهج لا حد لها ، وقد يبيت آحاد الناس أفكارا جيدة لا تعـد فى معـرض العمل الا من عالم

الخيال ، وبعض أفكار العامة أيضا اذا طبقت كانت شيئا مذكورا •

ومازالت حال القطر المصرى الى تقهقر خلال القرون الثلاثة التى حكمت الدولة العثمانية فيه مباشرة ، حتى قيض له رجل أعجمى صحت عزيمته على تأسيس مملكة عربية • عنينا محمد على الكبير • فسار فى ملكه بسيرة من ملكوا فى الاسلام من أجناس الترك والشركس والكرد والبربر والفرس والديلم ، أى انه لم يتخذ غير العربية لغة ، وترسم خطا من سبقوه الى حكم مصر من غير العثمانيين • وعنى عناية خاصة بنشر الثقافة الغربية ينقلها عن فرنسا وغيرها فأحيا رمما كادت تفنى ، وأدخل روحا الى جسم علق يبلى « والعلم مذ كان محتاج الى العلم » فالتهم المصريون العلوم المادية التى أتاهم بها المصلح الجديد ، وما قاوم رجال الدين التيار الذى انساب اليهم فأغضوا عما لم يستحسنوه كثيرا فى باطنهم ، خلافا لما كان لمن انتظموا فى مثل سلكهم فى فروق عاصمة الخلافة ، فانهم قاوموا الطباعة ، وأفتى بعضهم بتحريم طبع القرآن ، وقاوموا العلوم المادية وحظروا تعلمها ، وقاوموا اللباس الغربى والطربوش ، كما كانوا من قبل حرموا القهوة والدخان ، فقتل فى هذه السبيل أولا وآخرا ألوف من الخلق • والعربى على ما يظهر أكثر الشعوب الاسلامية تسامحا وحرية ، وان كان العرب مازالوا منذ عصر صاحب الرسالة دعاة الدين وأمناءه ، وتسامحهم مع من يخالفهم موضع العجب •

دخل الاصلاح ديار مصر يتناول أكثر الفروع والمظاهر، فشغل المدنيون ببث ثقافتهم والحكومة من ورائهم تحميهم وتنصرهم ۰ ولم ير الدينيون بعد قليل من التلكؤ الا أن يسايروا الزمن ورضوا أن يدخلوا فى أنظمتهم وتراتيبهم شيئا من الجديد المفيد ، ونبذوا أو كادوا ما وضع من الكتب فى عصور الانحطاط الفكرى ۰ وأنشأوا يطبقون مفاصل الاصلاح على طرائقهم ببطء وتأن ، وفتحوا السبيل الى أن يتذوق طلاب العلم الدينى لماظة من العلوم التى دعوها بالعصرية ، وكان الأولى أن تسمى القديمة كالرياضيات والطبيعيات والفلك والتاريخ وتقويم البلدان ، فخرج من الأزهر وسائر المعاهد الدينية فى القطر علماء تعلموا فى الجملة على غير الطريقة التى كانوا يمارسونها قبل ثلاثة أجيال ، وكانت تضعف العقل ، وتثلم الحواس ۰

وكان الفضل الأعظم فى ايجاد هذه المجموعة الجديدة من الثقافة واحياء الآداب العربية ، لمدارس الحكومة على اختلاف درجاتها ، حتى يصل الطالب الى الجامعة ، وأخرجت دار العلوم تلاميذ كان منهم أقدر العلماء والأدباء ، ويحمد أيضا قصد المدارس الخاصة التى تؤهل طلابها للحياة الحرة ، لا جرم أن وزارة المعارف منذ تأسيسها لم تأل جهدا فى تحقيق رغبتها فى نشر العلم ، ولذلك كانت تساير الزمن فى نشوئها وارتقائها ، ومنذ انتظم أمر البعوث الى مدارس الغرب ، ترسلها الحكومة أو الأفراد ، دخلت ثقافة مصر فى طور جديد ، وأصبح فريق الدينيين وفريق الدنيويين ، لا ينظر كل منهما الى صاحبه النظر الأول ، وربما أضمر الواحد للثاني حرمة وحدثته نفسه لو شاركه فى كل ما وعى

ودرس ، وقام فى مصر أرقى رجال العهد القديم الذين تخرجوا بالتعاليم الدينية ، وأرقى طبقة من رجال العلم الحديث ثقفوا أحدث الأساليب الغربية ، واستساغ كلاهما طريقته ، وقام بقسطه من تربية أبناء مصر ، وتساندا وتعاونا الى أقصى حد ممكن ، وتوشك ألا تبقى ناحية من نواحى العلوم والفنون لم يعالجها المصريون ويبرزوا فيها بقدر ما سمحت قرائحهم وساعدهم انتباههم ، وأصبح الاخصاء(٨٨)، وهو العلة الأولى فى ارتقاء العلم فى الغرب، مما يحرص على الأخذ به المتعلمون ، وكان من يطلق عليه اسم العالم فى القرون الغابرة نتفة يدعى معرفة كل شىء ولا يكاد يتقن مسألة من المسائل .

ومن نظر اليوم فى المدارس على اختلاف درجاتها ، وعارضها بما كان من نوعها منذ جيلين من الناس ، وأمعن النظر فيما تخرج اليوم من الطلاب المجهزين بأجمل جهاز عقلى ، وما كان يصدر عن المؤلفين والكتاب والشعراء من الآثار ، وما يخرجون للناس منها لعهدنا ، وما كانت عليه الصحافة المصرية زمن الخديو اسماعيل وعهد ابنه جلالة الملك فؤاد الأول ، وكيف كادت صحافة مصر فى هذه الأعوام القليلة تضاهي صحافة الأمم التى بدأت بالنهضة منذ أربعة قرون ــ من رأى هذا يسجل فخورا بأن قرنا واحدا ، تخللته فترات وهجمات ، كفى هذا القطر بأن يصطنع له ثقافة فيها كل الخير لحياة مصر فى مادياتها ومعنوياتها .

ــ الجوامع والبيع ، والمدارس والمحاكم والأندية والصحافة، ودور التمثيل والغناء ، غيرت لهجات القوم ، حتى قربت

اللغة العامية من الفصحى قربا غريبا • وليت أديسون اخترع الحاكى فى القرن الماضى فحفظت لنا فى أسطواناته لهجة الناس منذ مائة سنة لنقارنها بلهجتهم اليوم ، ونستمع كيف كانت أحاديثهم فى المجالس والمدارس ومواعظهم فى الجوامع والكنائس ، وخطبهم فى الأندية وقضاؤهم فى المحاكم • وعسى أن لا ينقضى جيل أو بعض جيل حتى تصبح لغة التخاطب كلغة التكاتب ، والكمال فى ذلك مضمون كلما تسلسل الترقى فى أبناء مصر واستوفوا نصيبهم من المعارف، ودأبوا على التحصيل والاتقان حبا بالعلم للعلم ، لا رغبة فى نيل الشهادات والألقاب واعتلاء المناصب والمراتب فقط وعندها يجلون عن أنفسهم ويقنعون من كانوا الى أمس ينكرون ، بعوامل جنسية أو دينية أو سياسية ، فضل المصرى فى تقدمه أشواطا فى طريق الحضارة العالمية •

وبعد ، فلا علينا وقد أجملنا الأدوار التى تقلبت على ثقافة مصر أن نوجز فى تعريف هذه النهضة الحديثة التى تمت فى ظل الدولة العلوية(★) الكريمة وفضل من اختارتهم من خيرة المصريين • وما جماع ما يقال فيها الا أنها اصلاح ثقافة قديمة ، واقتباس ثقافة حديثة ضمت الى جملتها ، فكانت سيرة الدولة المصرية فى هذا الشأن سيرة الدولة العباسية فى أول أمرها ، ارتقت فيها العلوم النقلية والعلوم العقلية معا ، ونظرت فى عامة علوم الدين وما ينبغى لها ، واقتبست علوما مادية كانت راسخة عند من تقدموها فى الأخذ بمذاهب

(★) المقصود أسرة محمد على •

الحضارة ، فصبح أن تدعى الثقافة المصرية الآن ثقافة عربية غربية اسلامية ، تحس فيها روح العرب وروح الغرب وروح الاسلام وفيها أثر حكمة القدماء والمحدثين ، ومن كل معنى طريب •

الهــــوامش

(١) هو الزبير بن العوام بن خويلد بن اسد بن عبد العزى بن قصى ، وكنيتـه ابو عبد الله ، وامه صفية بنت عبد المطلب ابو هاشم ، ومن زوجاته اسماء بنت ابي بكر ، وهو أحد العشرة الذين بشرهم الرسول بالجنة ، وهو إبن عمة الرسول ﷺ وشاركه فى جميع غزواته ، وهو أحد الستة الذين اختارهم عمر بن الخطاب قبل وفاته لاختيار خليفة منهم . حارب ضد على بن ابى طالب فى وقعة الجمل ، ثم ترك الحرب نادما . وفى سـنة ٣٦هـ/٦٥٦م اغتاله عمير بن جرموز السـعدى ظنا منه أن ذلك يرضى عليا بن أبى طالب رضى الله عنه ، لكن عليا قال له « بشر قاتل ابن صفيـة بالنار » .

انظر : الاعلام لخير الدين الزركلى .

(٢) سعد بن أبى وقاص الزهرى القرشى . وكنيته أبو اسحق . وهو أحـد العشرة المبشرين بالجنة ، وواحد من الستة الذين عينهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه لخلافته (أهل الشورى) وشهد غزوة بدر وغيرها من الغزوات . كان قائدا للجيوش التى فتحت اكثر بلاد فارس أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وعينــه عمـر بن الخطاب واليا على الكوفة ثم عزله ــ رغم أنه مبشر بالجنة ــ لما شـكاه أهلها ظلما . لم يشترك فى الفتنة التى جرت بعد مقتل عثمان رضى الله عنه ولم يحضر موقعة الجمل ولا صفين ولم يحضر التحكيم بين على رضى الله عنه ومعاوية بن أبى سـفيان . مات فى قصره فى العقيق على بعد عشرة أميـال من المدينة المنورة .

انظر : الطبقات الكبرى لابن سـعد .

(٣) عمار بن ياسر الكنانى العنسى القحطانى . وكنيته ابو اليقظان ، حليف بنى مخزوم . أسلم هو وأبوه ياسر وأمه سمية فعذبهم بنو مخـزوم ومات أبوه فى العذاب ، وقتل أبو جهل امه . هاجر الى الحبشة وعاد الى المدينة بعـد هجرة الرسول اليها . شهد غزوة بدر والمشاهد كلها . ولاه عمر بن الخطاب الكوفة ثم عزله عنها . حارب فى صف على بن أبى طالب فى معركة صفين وقتل بها سنة ٣٧ هـ/٦٥٧ م وكان عمره ٩٤ سـنة .

انظر الاعلام لخير الدين الزركلى ، وتاريخ الطبرى .

(٤) خالد بن الوليد بن المغيرة القرشى المخزومى · كنيته أبو سليمان · ويلقب بسيف الله المسلول · أمه لبابة بنت الحارث الهلالية أخت ميمونة زوجة الرسول ﷺ · أسلم سنة ٨ هـ مع عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة · شهد فتح مكة · حارب المرتدين فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه · شارك فى فتح العراق والشام فى عهد أبى بكر · عزله عمر من ادارة الجيش أثناء معركة اليرموك وولى بدلا منه أبا عبيدة ابن الجراح فقاتل خزلد تحت قيادته بارتياح · سكن حمص بالشام ومات فيها سنة ٢١هـ/٦٤٢م ·

(٥) عبد الله بن عمرو بن العاص القرشى · أسلم قبل أبيه · كان يحسن اللغة السريانية · شهد مع معاوية وقعة صفين وولاه الكوفة لفترة قصيرة · امتنع عن بيعة يزيد ، وانقطع للعبادة ، ولا يعرف على وجه اليقين أين مات ·

انظر : الاصابة فى تمييز الصحابة ، والأعلام للزركلى ·

(٦) عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوى (من عدى) · كنيته أبو عبد الرحمن · شهد اليرموك وفتح مصر وغزا فى الشمال الأفريقى · توفى بمكة المكرمة سنة ٧٣ هـ/٦٩٢م ·

(٧) عبادة بن الصامت (بضم العين) الانصارى الخزرجى · كنيته أبو الوليد · اختلف مع معاوية وهو وال على الشام فوقف الخليفة عمر الى جانب عبادة · بايع الرسول ﷺ فى العقبة وكان أحد النقباء · انظر : الأعلام للزركلى ·

(٨) خارجة بن حذافة (بضم الحاء) من بنى كعب بن لؤى · أرسله عمر بن الخطاب بجيش مددا لجيش عمرو بن العاص فى مصر · تصادف أن عمرا اشتكى المـا فى بطنه ليلة الائتمار بقتله وقتل على ومعاوية ، فاستخلف - أى عمرو - خارجة للصلاة فقتله التميمى الذى كان موكلا به قتل عمرو ، ظنا منه أنه عمرو ، ولما علم أنه أخطأ عمرا قال : « أردت عمرا وأراد الله خارجة » ·

(٩) مسلمة بن مخلد الأنصارى الخزرجى · وفد على معاوية قبل أن يستتب له الأمر فولاه امارة مصر سنة ٤٧ هـ ثم أضاف اليه المغرب · أقر ولاية يزيد بن معاوية فاستمر فى الولاية الى أن مات فى الاسكندرية سنة ٦٢هـ/ ٦٨٢م ·

انظر : الترمانينى ، أزمنة التاريخ الاسلامى ·

(١٠) معاوية بن حديج الكندى (بكسر الكاف) كنيته أبو نعيم · أبلى بلاء حسنا فى وقعة اليرموك · شهد معركة صفين الى جانب معاوية · جهزه معاوية ليتولى امارة مصر فقتل محمدا بن أبى بكر الذى كان على قد عينه واليا عليها · غزا فى المغرب وفتح صقلية · أعيد الى ولاية مصر ثم عزل عنها ، وتوفى فى مصر سنة ٥٢هـ/٦٧٣م ، انظر : الترمانينى أزمنة التاريخ الاسلامى ·

(١١) قيس بن أبى العاص بن قيس السهمى القرشى · أسلم يوم فتح مكة · ولاه عمرو ابن العاص قضاء مصر · توفى فى مصر فى سنة ٢٣هـ/٦٤٣م ·

(١٢) عبد الله بن سعد بن أبى السرح القرشى العامرى أخو عثمان بن عفـان من الرضاع · كان كاتبا لرسول الله · ارتد عن الاسلام لكنه تاب واناب وعاد الى الاسلام ثانية · كان على ميمنة عمرو بن العاص فى فتح مصر · تولى ولاية مصر من قبـل عثمان بن عفـان ، وعزله على · اعتزل الحرب بين على ومعاوية ولم يبـايع أيا منهما · مات فى عسقلان وهو قائم يصلى وكان ذلك فى سنة ٣٧هـ/ ٦٥٧م ·

(١٣) عقبة بن نافع الفهرى القرشى · ابن خالة عمرو بن العاص · فاتح مشهور واصل الزحف فى أفريقيا حتى وصل الى المحيط الأطلسى ، وقتل أثناء عودته ودفن فى واحة فى الجزائر الحالية تعرف بواحة سيدى عقبـة جنوب قسنطينة ، وكان ذلك فى سنة ٦٤هـ/٦٨٣م ·

(١٤) محمد بن مسلمة الانصارى · كنيته أبو عبد الرحمن كان اسمه فى الجاهلية محمد · شهد فتح مصر · وفى فتوح الشام كان على مقدمة الجيش الذى فتح الجابية · لم يبايع عليا وكان من انصار عثمان ، لكنه اعتزل الفتنة ولم يشهد موقعة الجمل ولا صفين واقام بالربذة · انظر : الأعلام للزركلى ·

(١٥) المقداد بن الأسود بن ثعلبة من قضاعة (بضم القاف) وقيل من كنده (بكسر الكاف) تبنـاه فى الجاهلية الأسود بن عبد يغوث · صحابى · شهد بدرا وغيرها من المشاهد · توفى فى المدينة فى سنة ٣٣هـ/٦٥٣م ·

(١٦) أبو ذر جندب بن جنادة الغفارى ، صحابى · هاجر بعد وفاة النبى ﷺ الى الشام ، وفى عهد عثمان طلب معاوية والى الشـام ازاحته من هناك لأنه كان يحرض الفقراء على المطالبـة بحقوقهم فاستقدمة عثمان الى المدينـة ثم طلب منه اعتزال الناس فاقام فى الربذة الى أن مات ، انظر الطبقات الكبرى لابن سـعد ·

(١٧) أبو الدرداء عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الخزرجى الأنصارى · كنيته أبو الدرداء · كان الرسول يسميه الحكيم · توفى ٣٢ هـ / ٦٥٢ م وفى نص الأستاذ كرد : عويمر بن عامر ·

(١٨) عقبة بن عامر بن مالك الجهنى · كنيته أبو حماد · كان أحد جماع القرآن · توفى بمصر فى سنة ٥٨هـ/٦٧٨م وهو غير عقبة بن عامر بن عيسى الجهنى أبو حماد · ولاه معاوية أمر مصر ثم عزله منها سنة ٤٧هـ ووجهه لغزو قبرص · توفى فى سنة ٦٧٧/٥٨م ·

انظر : الأعلام للزركلى ·

(١٩) المغيرة بن شعبة (بضم الشين) بن أبى عامر بن مسعود الثقفى · أسلم عام الخندق · شهد حرب اليمامة (الردة) وفتح الشام · ولاه عمر البصرة ثم الكوفة · شهد القادسية ونهاوند وغيرهما ، اعتزل النزاع بين على ومعاوية · توفى ٥٠هـ/٦٧٠م

انظر الأعلام للزركلى ·

(٢٠) المقصود الشمال الأفريقى · وكان الرومان عندما احتلوا قرطاجنة ونواحيها فى القرن الثانى قبل الميلاد أطلقوا عليها اسم أفريقا Africa وعن الرومان نقل العرب هذه التسمية فاطلقوا اسم أفريقية على منطقة المغرب الأدنى ·

(٢١) المقصود البحر المتوسط ·

(٢٢) وقعة الصوارى أو ذات الصوارى ٣٤هـ/٦٥٤م بين المسلمين والبيزنطيين ·

« ··· وأما عبد الله بن سعد بن أبى السرح ، فكان أول من قاد حملة بحرية اسلامية اذ أنه خرج بأسطوله من رشيد قاصدا ملاقاة أسطول الروم (البيزنطيين) وفى الوقت نفسه خرج بسر بن أبى أرطاة بأسطوله من صور وتلاقى الاثنان فى البحر قرب فينكس (فونيكه) فى جنوب انطاكية ، وهناك دارت معركة ذات الصوارى التى انهزم فيها البيزنطيون وتم القضاء على قوتهم البحرية » · انظر : حسين مؤنس ، أطلس التاريخ الاسلامى ، ص ٢٨٥ ·

(٢٣) فى المعجم الوجيز : الأدم بضم الهمزة والدال : الطعام ومفرده ادام ، والأديم الجلد ، والمعنى الأخير هو المقصود غالبا ·

(٢٤) فى لسان العرب لابن منظور « الجهد بفتح الجيم المشقة ، وجهد يجهد جهدا واجتهد ، وجهد دابته ، حمل عليها فى السير فوق طاقتها » والمجاهيد جمع مجهد (اسم مفعول) ·

(٢٥) المذهب الملكى أو الملكانى Melkites نسبة الى الملك أو الامبراطور ينادى بأن للمسيح طبيعتين الهية وبشرية ·

(٢٦) المذهب اليعقوبى ينادى بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح · اليعقوبى هو الأرثوذكسى ·

(٢٧) المقوقس أو قيرس Circus هو الذى ولاه الامبراطور هرقل على مصر فى سنة ٦٣٢م وأسند اليه السلطتين الدينية والسياسية معا ·

(٢٨) هى مارية بنت شمعون القبطية · أهداها المقوقس فى السنة السابعة للهجرة هى وأخت لها تدعى سيرين (أو شيرين) للنبى ﷺ ، فولدت له ابراهيم ، وكان الرسول قد أهدى أختها سيرين لحسان بن ثابت فولدت له عبد الرحمن · ماتت فى خلافة عمر · أعفى معاوية أهل قرية حفن وهى قرية مارية بمصر من أجر أراضيهم اكراما لها بناء على طلب الحسن بن على ·

الترمانينى ، أزمنة التاريخ الاسلامى ·

(٢٩) الفرما هى مدينة (بلوزيوم) عند مدخل مصر شرقا ، فتحها عمرو بن العاص فى سنة ١٩هـ/٦٤٠م ـ شرق بورسعيد الحالية ·

(٣٠) بلبيس فى محافظة الشرقية اليوم ·

(٣١) عين شمس مدينة بالقرب من الفسطاط (هى مصر القديمة الآن) وعين شمس حزء من القـاهرة الحالية ٠

(٣٢) الروم لفظ شامل فى هذا السياق أى كنت اؤديها للدولة الرومانية ، وللدولة البيزنطية بعـد انقسام الدولة الرومانية الى شرقية (بيزنطية) وغربيـة ٠

(٣٣) صيرهم على ذمة أى قدم لهم تعهدا بالحماية ، والمصطلح لا يعنى أكثر من هذا ٠

(٣٤) بلهيب مركز المحمودية ، مديرية البحيرة ٠ القاموس الجغرافى لمحمد رمزى ٠

(٣٥) خيس من القرى المندرسة فى محافظة البحيرة ٠ يقول محمد رمزى فى القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ان مكانها قرية أم حكيم احدى قرى مركز شبراخيت بالبحيرة ٠

(٣٦) سلطيس أو سنطيس مركز دمنهور بالبحيرة ٠ القاموس الجغرافى لمحمد رمزى ٠

(٣٧) سخا هى السخاوية فى مديرية (محافظة) كفر الشيخ ٠

(٣٨) ابانه بتشديد الباء وفتحها أى فى الوقت المحدد له ٠

(٣٩) الجزية مبلغ مقابل الاعفاء من الخدمة العسكرية وكانت اقل قيمة مما كان يدفع من ضرائب الفترة السابقة على الاسلام ٠

(٤٠) الديرة بتشديد الدال وكسرها وفتح الياء جمع دير ، والبيع بكسر الباء وفتح الياء جمع بيعة بتسـكين الياء ، أماكن عبادة

(٤١) عبد العزيز بن مروان بن مروان بن أبى العاص بن أميـة أمير مصر ٠ كان عليما بسياسة البلاد ٠ توفى ٨٥هـ/٧٠٤ م ٠

(٤٢) العبارة فيها مبـالغة ٠

(٤٣) على بن سليمـان ، ولى أمر مصر فى عهـد المهـدى العباسى فى شـوال ١٦٩هـ/٧٨٦م وعزله هارون الرشيد فى سنة ١٧١هـ/٧٨٧م ٠

(٤٤) موسى بن عيسى بن موسى العباسى عينه واليا على مصر هارون الرشـيد بعـد عزل على بن سليمان فى سنة ١٧١هـ/٧٨٧م وعزل فى ١٧٢هـ/٧٨٩م ٠

(٤٥) الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهرى بالولاء ٠ امام أهل مصر فى الفقـه والحديث فى عصره ٠ ولد فى قلقشنده وتوفى بالقاهرة فى سـنة ١٧٥هـ/٧٩١م ٠

(٤٦) راجع المقدمة عن ارتباط ذلك بالحركة اللاأيقونية فى الدولة البيزنطية ٠

(٤٧) الاسلام لا يهدم كل ما قبله ، وانما بعضه فقط ، وهو أى الاسـلام يبنى على كثير مما كان قبله ، فقد أقر النبى ﷺ كثيرا مما كان من مكارم الأخـلاق فى الجاهلية ، كالشجاعة والكرم ٠٠ الخ لكنه هدم السـفه والحمق ووأد البنات ٠٠ الخ . ولم يهدم الاسلام رسالة السيد المسيح وانما عدل بعض أمورها اللاهوتية مما اعتبره منتجمرى وات خلافا لغويا نتج عنه اساءة فهم معـانى الكلمات ، كما أن نظام المحارم فى زواج القرابات لا يختلف كثيرا عما هو عند اليهود ٠٠٠ الاسلام عدل بعض العقائد فى الأديان السابقة ولم يهدمها جميعا ٠

(٤٨) يقصد المقطم ٠

(٤٩) رمال صحراء مصر الشرقية وصحراء مصر الغربية ٠

(٥٠) فى المعجم الوجيز : راح رواحا : سار فى العشى ٠

ويستعمل الرواح للمسير فى أى وقت كان من ليل أو نهار ، وكذلك الغـدو ٠ والروحة المرة من الرواح ٠

(٥١) يكثر فى ذبابه ، اشارة الى كثرة المحصول والطعام فالذباب لا يكثر الا حيث الطعـام وليس المقصود ـ طبعـا ـ كثرة القذارة ٠

(٥٢) فى لسان العرب لابن منظور :

« أصلخم أى غضب أو انتصب ٠٠ والجبال الصلاخم أى الصلاب المانعـة ٠٠ والمصلخم الغضبان » والعجاج الغبار ، والمقصود باصلخم عجاجه زاد زيادة كبيرة ، وعلا موجه ٠

(٥٣) المخايل ـ ورد فى لسان العرب لابن منظور / مادة خ ى ل « ٠٠ واختالت الأرض بالنبات : ازدانت ، ورأيت أرضا متخيلة ومتخايلة ومتخلية اذا بلغ نبتهـا المدى وخرج زهرها ، ويقال : وردنا أرضا متخيلة ، وقد تخيلت اذا بلغ نبتها أن يرعى ٠٠ » والكاتب هنا يتخيل مجرى النيل حقلا خصبا والسفن على صفحتـه كأنها أوراق شجر يحركه هواء الأصائل ـ جمع أصيل ٠

(٥٤) نكص على عقبيه أى تراجع ماؤه الزائد وانحسر ٠

(٥٥) طما فى درته ـ فى لسان العرب لابن منظور :

« يطمو الماء طموا ويطمى طميا : ارتفع وعلا وملأ النهر فهو طام ٠

(٥٦) ملة محقورة ـ أى أهل ملة تعرضوا للاضطهاد ـ يشير الى اضطهاد البيزنطيين لهم لخلاف فى المذهب ٠

(٥٧) تعبير حزين يشير الى أن أهل مصر يتعبون ليأكل غيرهم ، أما هم فليس لهم من كدهم نصيب كبير ٠

(٥٨) تعبير دبلوماسى ، يريد به عمرو بن العاص أن يقول للخليفة العادل ألا يسمع كلام الشاكين ٠٠ لكن عمر بن الخطاب لم يأخذ بهذا التلميح ، وطلب من القبطى الشاكى أن يضرب ابن عمرو بن العاص الذى اعتدى عليه ، بل وطلب منه أن يضرب أباه عمرا لكن القبطى اكتفى بضرب من ضربه ٠

(٥٩) لم يكن القصاص موضع رضا الخلفاء الراشدين ـ انظر المقدمة ٠

(٦٠) المقصود معارف عملية ٠

(٦١) لم تكن هناك وظيفة رسمية يقوم شاغلها بقص القصص ـ انظر المقدمة ٠

(٦٢) لأن أكثر العرب الذين قدموا لمصر فى بادىء الأمر كانوا من بوادى الحجاز أى الذين ألفوا الاستقرار وسكنى المدن ٠

قل عدد القبط (المقصود هنا المسيحيون) خاصة أثناء الدولة الفاطمية لكثرة الداخلين للاسلام ، والمؤلف يخلط بين التحول للاسلام وانتشار اللغة العربية ـ راجع المقدمة ٠

(٦٣) غيرت لغتها أولا ثم دينها ٠

(٦٤) غرفة بن الحارث (الحرث) الكندى ٠

(٦٥) وكان لتعريب الدواوين فى عهد عبد الملك بن مروان أثره الكبير فى اقبال القبط على تعلم اللغة العربية للاحتفاظ بوظائفهم ٠٠

(٦٦) ظل هذا الوضع قائما طوال التاريخ الاسلامى والحديث ٠

(٦٧) خالد بن يزيد بن معاوية بن أبى سفيان الأموى القرشى وكنيته أبو هاشم ٠ كان يسمى حكيم آل مروان ٠ تعلم السيمياء والطب وألف فيهما ٠ أمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونان الى مصر ممن يعرف العربية وأمرهم بنقل الكتب من القبطية واليونانية ٠ توفى فى دمشق ٨٥هـ/٧٠٤م ٠

(٦٨) عتبة بن أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس ٠ أمير مصر من قبل أخيه معاوية سنة ٤٣هـ ثم خرج الى الاسكندرية مرابطا ومات بها ٤٤هـ/٦٦٤م ٠

(٦٩) عبد الله بن سعد بن أبى السرح ، والى مصر من قبل عثمان بن عفان توفى ٣٧هـ/٦٥٧م ٠

(٧٠) مسلمة بن مخلد بن صامت الخزرجى الانصارى ولاه معاوية مصر سنة ٤٧هـ ثم أضاف اليه المغرب ٠ أقره يزيد بن معاوية فاستمر بالامارة الى أن مات بالاسكندرية فى ٦٢هـ/٦٨٢م ٠

(٧١) عبد العزيز بن مروان بن الحكم ، تولى امارة مصر ، ومات فى سنة ٨٥هـ/٧٠٤م ٠

(٧٢) اسامة بن زيد ، أعتقه النبى وتبناه ثم نسخ التبنى ٠ بعثه النبى أميرا على جيش عظيم الى الشام ومات النبى ﷺ قبل أن يتوجه فأنفذه أبو بكر ٠ اعتزل الفتنة بعد موت عثمان وتوفى بالمدينة سنة ٥٤هـ/٦٧٤م ٠

(٧٣) المقدسي (٣٣٦ ــ ٣٨٠هـ) رحالة جغرافي · ولد في القدس · له كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) ·

(٧٤) ابن حوقل ، هو محمد بن حوقل · كان عينا للفاطميين وله كتاب المسالك والممالك ·

(٧٥) المقصود : بلد يأتيها المهاجرون ولا يهاجر أهلها منها في الغالب ·

(٧٦) جرجان ونيسابور ومرو الروز وشيراز ودينور وخوارزم وهمدان وطوس وتبريز وقزوين في بلاد فارس ، واربل في العراق وبلخ في افغانستان الحالية ، وهراة (والنسبة هروى) في افغانستان الحالية ، وكذلك بلوشستان (والنسبة بلوشي) والسند في باكستان الحالية وطشقند في أوزيكستان ، وسمرقند أيضا في جمهورية اوزبكستان الحالية ، وكذلك فرغانة وبخارا (بخارى) · ومرو في تركمانيا (تركمانستان الحالية) · وصلخد في الشام والمصيصة في جنوب تركيا الحالية ، وصنهاجة قبيلة بالمغرب ، وصفاقس بتونس ، وسجلماسة بالمغرب الاقصى ، وسوسة بتونس ، وصفد بسوريا الحالية ، والعسقلان بفلسطين ، وماردين بشمال العراق ، وأشعر في اليمن (النسبة أشعرى) ، وبحر قزوين وما حوله (والنسبة قزويني) شمال ايران الحالية ، وبيرق شمال شرق ايران الحالية ، والجزيرة شمال العراق والنسبة جزيرى ، وغزنة جنوب كابل في افغانستان الحالية ، وخراسان شرق وشمال شرق ايران الحالية ، وواسط بالعراق ونسا في قرغيزيا الحالية الى الشرق من بحر قزوين واصطخر جنوب ايران الحالية وسيراف على الخليج العربي في ايران الحالية ايضا · وميورقة هي جزر البليار شرق الساحل الاسباني ·

(٧٧) البوطة مركز أبو المطامير بالبحيرة ، وطحا اسم يطلق على عدة قرى : بمركز شبين القناطر ومركز سمالوط ، ومركز ببا ، ومركز بني سويف ، ومركز السنبلاوين ، ومركز شربين · قلقشنده مركز طوخ محافظة القليوبية ويسميها العامة قرقشندة ، وقفط من البلاد المندرسة بمركز قنا ، وزنكلون بمركز الزقازيق الشرقية وشنطوف أو شطانوف بمركز أشمون منوفية ··· القاموس الجغرافي لمحمد رمزي ·

(٧٨) الظواهر الثقافية ، كالفقه والعقائد لا تندثر فجأة ، فالحقيقة أن كثيرا من ظواهر هذه الثقافة قد تغلغل في نفوس المصريين ولم يتركوه حتى بعد تحولهم للمذهب السني : زيارة القبور ، التشفع بالأولياء خاصة من كان منهم من آل البيت ، حلاوة المولد ··· الخ ·

(٧٩) حدث هذا على نحو خاص في عصر الدولة الفاطمية ·

(٨٠) سبل عليهم ــ بفتح السين وتشديد الباء وفتحها أوقف عليهم أرضا أو ضياعا أو عقارا للانفاق عليهم · وفي لسان العرب لابن منظور : « سبل ضيعته جعلها في سبيل الله · وفي حديث وقف عمر (احبس اصلها وسبل ثمرتها) ، اى اجعلها وقفا وأبح ثمرتها لمن وقفتها عليه ، وسبلت الشيء اذا ابحته كانك جعلت اليه طريقا مطروقة ··· » ·

(٨١) العبيديون هم الفاطميون نسبة لعبيد الله الشيعى ٠

(٨٢) غبر الناس ، أى ظل الناس أو مكث الناس ، وغبر بفتح الغين والباء ٠ وفى لسان العرب لابن منظور : « غبر الشىء يغبر غبورا ، مكث وذهب ٠ وغبر وشىء يغبر أى بقى ،والغابر الباقى والغابر الماضى وهو من الأضداد ٠٠٠ » ٠

(٨٣) أمر مريج أى أمر شديد أو فظيع ، وفى المعجم الوجيز « مرج اللهب يمرج مروجا ارتفع ، ومرج الناس مرجا اختلطوا ، والمارج الشعلة ذات اللهب الشديد ٠٠ » ومريج بفتح الميم ٠

(٨٤) اعلاقها أى ما يتعلق بها ــ راجع ابن منظور مادة (ع ل ق) ٠

(٨٥) بحر القلزم هو البحر الأحمر ٠

(٨٦) شيبت أى خلطت ــ بضم الخاء ٠ شابه شىء أى اختلط به ٠

(٨٧) عضرس ــ بكسر العين الخطمى ــ بكسر الخاء ، وقيل هو نبات فيه زهرة حمراء وقيل لون العضرس بكسر العين الى السواد والعضرس بفتح العين نبات فيه خضرة وقيل العضرس بفتح العين هو الجليد ، ويقال له أيضا العضارس بضم العين والجمع عضارس بالفتح ٠٠ وقيل أبرد من عضرس فاذا كانت بالفتح كان المقصود أبرد من جليد ، وان كانت بالكسر فهو تشبيه بالنبات الآنف ذكره ــ راجع لسان العرب لابن منظور ٠

(٨٨) يقصد التخصص ٠

المبحث الثانى

تمازج الحضارتين العربية والغربية

أثر العرب فى الأندلس وصقلية وما اليهما

لما بدأ العرب بفتوحاتهم فى الاسلام فقضوا على فارس، واقتطعوا من بيزنطة (مملكة الروم الشرقية)، الشام ومصر وسواحل افريقية ، كانت فارس والروم أقوى دول العالم وأكثرها حضارة ، وكان العرب شبه متحضرين يتعلمون ممن غلبوهم ما يصلح الملك والسلطان • وما انقضى ثمانون سنة على خروج العرب من جزيرتهم ، حتى أضافوا ما عرفه المغلوبون الى ما عرفوه هم من أساليب الحرب والادارة ، فرأيناهم وقد مكن لهم فى الغرب يستولون على الأندلس ويتوسعون فى فتوحهم جنوبى فرنسا •

وبينا كان بنو أمية فى الشام يديرون ملكا عظيما ، ويضعون أسس المدنية العربية بنقل العلوم المادية عن السريانية والقبطية والرومية (★) ، ويعنون كل العناية بتدوين العلوم الدينية والأدبية، وقد بدأت طلائع الحضارة فى البلاد التى أظلها سلطانهم ــ كانت بلاد الغرب اللاتينى فى أحط دركات المدنية ، بل كانت الى همجية مرمضة (١)، تعد بداوة العرب فى جزيرتهم قبيل الاسلام مدنية اذا قيست ببداوة الغرب • بل كان الناس يعيشون فى بلاد اللاتين والأنجلوسكسونيين والجرمانيين والصقالبة فى توحش مدلهم، وأوربا غاصة بالغابات الكثيفة ، متأخرة فى زراعتها ، والمستنقعات فى كل ناحية تحصد الأرواح، والوبالة والأوبئة

(★) المقصود اليونانية •

تغادى تلك الشعوب القذرة وتراوحها(٢)، لا يعرفون البيوت الصحية ، ولا الفرش الوثيرة ، تنام الأسرة كلها في غرفة واحدة على فرش من تبن أو نبات مجفف ، وهي الى الفطرة بعاداتها وأكلها وشربها ولباسها ومجالسها • وبيوت لندرا وبارين أكواخ صغيرة بنيت من أحجار مضفورة مصفوفة كيفما اتفق ، وهناك قلاع وأبراج وكنائس لا هندسة لها •

وليس في الغرب شيء اسمه أمن وأمان ، يقضي على كل انسان أن يكون على استعداد في كل حين ليرد الأشقياء عن داره وحقله ، وفي غدوه ورواحه ، فلا ينام الا وسلاحه الى جنبه ولا يستطيع المرء أن يسير فراسخ قليلة ، دون أن يستهدف للقتل أو السلب ، وقد جعل بعض أرباب القوة من نهب عروض الناس في الطرق مهنة لهم يعيشون منها ، يقتلون ويقتلون ، وما من حكومة قوية تناقشهم الحساب على ما تجني أيديهم ، لأن الأمراء كانوا مع رجال الدين أشبه برؤساء عصابات منهم بزعماء بلاد • ولم تكن أوربا كلها قد دانت بالنصرانية ، بل كان من ممالكها من لم يزل على مجوسيته ووثنيته • والنصرانية دخلت المدن أولا وتسربت الى القرى والدساكر بعد أزمان •

وبينا كان شارلمان أعظم ملوك الغرب أميا أو يقرب من الأمية ، كان المنصور والرشيد والمأمون تترجم لهم كتب الطبيعيات والرياضيات والفلك والطب والفلسفة والصناعات • وبينا كان أهل غاليا أميين كلهم ما دونوا كتابا ولا أخبارا ولا عرفوا أدبا ولا شعرا ، كان العرب قد أنشأوا في كل قطر نزلوه كتلا علمية ، ومجالس أدبية ،

وأصبح عامتهم يقرءون ويكتبون ، وخاصتهم ينظمون وينشرون ويخطبون ويؤلفون ويبحثون فى العلم والفلسفة على طريقة أشبه بطرائق أهل المدنيات الحديثة ، على حين كان نبلاء القرون الوسطى فى الغرب لا يمتازون عن الفلاحين بتهذيبهم وعلمهم ، وكلهم أميون جهلاء قساة الطباع ، يستحلون كل منكر لا هم لهم غير الشراب والطعام والصيد والغارات .

وبينا كان الغرب لا يعرف حياة الرفاهية ، ومن أهله كسكان شلشويق (شلزويك هولشتاين) فى الدانمارك كانوا كالوحوش يسترون عوراتهم بقطع من الجلود ، شأن كثير من الشعوب فى شرقى أوربا وشمالها ولا يحسنون لفق الجلود ولا خياطتها أيضا ، كان العرب قد دخلوا فى مباهج الحياة ورفاهة العيش يلبسون ونساؤهم أجمل الأكسية من الحرير والقطن والصوف والكتان ينسجونها فى معاملهم ويحوكونها على أنوالهم وهى وافية بحاجات الحضرى والقروى منهم على اختلاف الفصول .

كان أول احتكاك مدنى وقع بين العربى والغربى فى آسيا الصغرى ، لأنها كانت ميدانا للغارات بين العرب والروم منذ اقتطع العرب الشام من أملاك البيزنطيين ، وحاولوا أن يتقدموا الى فتح القسطنطينية ، وتكون الغزوات بين الفريقين سجالا فيأخذ كل فريق من الفريق الآخر أسارى ، قد يقضون فى بلاد عدوهم أعواما ، فيتعلم العربى الرومية ويتعلم الرومى العربية ، ويزور فى أيام المهادنات والسلام بعض أهل الطبقة العالية والوسطى البلاد المجاورة ، ويرى

كل ما عند الفريقين من أسباب التفوق ، وما خلت بلاده مما عند جاره من عوامل النهوض وأساليب القوة فى الأمم ٠

ولما انبلج فجر القرن الثانى ، زادت ساحة أخرى لتعارف العربى بالغربى وهى ساحة جنوب أوربا الغربية أضيفت الى ساحة جنوب أوربا الشرقية بفتح العرب الأندلس سنة ٩٢هـ عندما قضوا على مملكة الويزغوت أو القوط كما كان يطلق عليهم العرب ٠ وانحاز الاسبانيون الى شمال جزيرة ايبريا يعتصمون فى جبال جليقية ويستأثر العرب بمعظم بلاد اسبانيا والبرتغال ، يستصفونها من البحر الرومى (★) الى بحر الظلمات(★★) ويقرون أهل البلاد على قضائهم وادارتهم ويعدلون فيهم ويقلدونهم بعض الأعمال الصغرى ينتهون منها الى كبرياتها بعد زمن قليل ٠ من عادة العرب اذا فتحوا قطرا أن يبقوا لأهله أوضاعهم ومصطلحاتهم وتراتيبهم وأن يحكموه لأول الأمر حكما أشبه بالحماية ثم يحيلونه ملكا صرفا ، وهذا من بديع سياستهم ، وكانت الجزية التى ضربها العرب على غير المسلمين زهيدة بالقياس الى ما كانوا يستمتعون به من الراحة والهناءة ، وقضت شروط الصلح أن يجعل على كل رجل حر بالغ دينار واحد فى السنة وأربعة أمداد قمح وأربعة أمداد شعير ومقدار من الخل والعسل والزيت وعلى العبد نصف ذلك ، وأن تحفظ على أهل البلاد دماؤهم فلا يسبون ولا يفرق بينهم وبين أولادهم ونسائهم ولا يكرهون على دينهم ولا تحرق كنائسهم ٠

(★) البحر المتوسط ٠

(★★) المحيط الاطلسى ٠

وما عتم الاسبانيون والبرتغاليون أن شاهدوا الفرق المحسوس بين ثقافة العرب الغالبين وثقافة المغلوبين ، وادعى بعضهم أن حضارة الأندلس كانت لا بأس بها بدخول العرب وفاته أن القوم نسوا لغتهم بمجرد استيلاء العرب على اسبانيا ، فما انقضت ثلاثون سنة على الفتح حتى أصبح الناس ينسخون الكتب اللاتينية بحروف عربية ، كما كان يفعل اليهود بمخطوطاتهم العربية ، وما مضى نصف قرن حتى دعت الحال الى ترجمة التوراة والقوانين الكنسية الى اللغة العربية ليتمكن رجال الدين أنفسهم من فهمها ، وما أتت على الفتح خمسون سنة حتى أصبح الناس كلهم يتكلمون بالعربية والعقود والمواثيق تكتب بالعربية حتى بين الاسبان أنفسهم ؛ واتخذ النصارى من اللغة العربية ترجمانا لعواطفهم وقلوبهم ، وأخذوا يحبون تلاوة قصائد العرب وقصصهم ويدرسون كتب علماء الاسلام وفلاسفتهم ، لا ليردوا عليها بل ليحلوا بها منطقهم يقرءون العربية بلذة ويقتنون كتبها بالأثمان الغالية ، يؤلفون منها خزائن نفيسة ، ويذكرون في كل مكان أن آداب العرب مما يعجب به ، واذا حدثتهم عن كتبهم الدينية أجابوك بازدراء ان هذه الكتب غير حرية بالتفاتهم ، وما كنت تجد في ألف رجل من يكتب رقعة مناسبة باللغة اللاتينية ، وأنت اذا كلفت أحدهم أن يكتب بالعربية تجد جمهورا يعبرون عن أفكارهم بهذه اللغة على صورة بديعة ، وقد ينظمون من الشعر العربى ما يفوق بما فيه من الصناعة شعر العرب أنفسهم ٠

لم يمض قرن على فتح الأندلس حتى أخصبت القرى وكثرت المزارع واتصل العمران وتزاحم الناس بالمناكب فى

المدن ، وغدت قرطبة عاصمة البلاد كعواصم أوربا اليوم ، تنار ليلا بالمصابيح يستضيء الساري بسرجها ثلاثة فراسخ ، وكان من رجال الحسبة وهي أشبه بالمجالس البلدية ودواوين الشرطة اليوم ، أن يلطوا الشوارع وأخذوا كل يوم يرفعون القمامات والقاذورات ويزال ضرر المجارى والقنى لئلا يتأذى بها السكان ولا يبنى من يحب البناء الا على طريقة هندسية يعينها له ديوان الحسبة ليترك فراغا يتمتع به الجيران وأبناء السبيل ، لا يمنع عنهم الشمس والهواء ولا تتضايق المارة مهما كثر سوادهم ، فقرطبة اذن أول مدينة فى العالم كان لها مثل هذا النظام ، وما لبثت أن غدت عاصمة علم وصناعة وفن وتجارة ، وكعبة يحج اليها بعض النابهين من أهل الغرب ينظرون الى تراتيب العرب وعدلهم وأحكامهم نظر الدهشة والاستغراب ، ومثلها كانت طليطلة وغيرها من قواعد الأندلس فى الشمال والجنوب .

ونقل بنو أمية الى الأندلس ـ منذ كانت احدى ولاياتهم، وبعد أن فتحها سليلهم عبد الرحمن الداخل الأموى فتحا ثانيا واستقل بملكها بعد تغلب العباسيين على دولة أهله فى الشرق ـ أصولهم فى الادارة والأحكام والأوضاع وطرازهم فى هندسة القلاع والجسور والدور والقصور والجوامع ، وجعل العرب البيوت والمساكن فى أرض الأندلس على الطراز الذى عرفوه فى عاصمتهم القديمة دمشق ، كأن تدخل البيت من دهليز طويل ينتهى بفناء واسع وسطه حوض ماء ، وعلى جوانب صحن الدار غرف وأبهاء ومقاصير يأوى اليها أهل البيت فى الصيف ، وفى الشتاء ينزلون فى الطبقة الثانية من الدار وفيها جميع المرافق ، وفناء الدار غاص بالأزهار

وبعض الأشجار المثمرة أو الملطفة للهواء ، والدار طبقتان فقط ، وتكون غرف الرجال ومثاوى الضيوف منعزلة عن غرف النساء ، ولا يزال هذا الترتيب فى البيوت محببا الى الناس فى الولايات المعروفة بالولايات الأندلسية الى يوم الناس هذا يجددون أدرهم على هذا الطراز ٠

وأصبحت الأندلس على عهد عبد الرحمن الثالث الأموى عالم الملوك وحامى الآداب والعلوم والصنائع والتجارة وعلى عهد أخلافه ، ولا سيما ابنه الحكيم الثانى ، أحسن الممالك حضارة وعلما وحسن ادارة فى القرون الوسطى ، وما وسع المرابطين والموحدين ، وان كانوا من البربر ، الا أن يخدموا الحضارة العربية ، بل ان الملوك من بنى الأحمر لم يسعهم فيما بعد الا أن ينسجوا فى الأندلس على منوال الأمويين ، كما لم يجد ملوك الطوائف والمتغلبون على الأطراف مندوحة من الجرى على هذا المثال فى خدمة العلوم والآداب ، يغالون فى اختيار خيرة العلماء والأدباء لتقليدهم الأعمال ٠ ولقد وهت فى الأندلس بعد بنى أمية أمور كثيرة ولا سيما سياستها ، ولم يضعف فيها العلم والصنائع والتجارة والزراعة ، وكان ولاة الأمر الى الخير فى عامة أحوالهم تقل الرشوة فيهم ، ويبتعدون عن كل ما لا يعبث بأصل من أصول الدين فى الجملة ٠

كان معظم ملوك الغرب على اتصال دائم بملوك الأندلس وأمرائها يوم كانوا لأول سلطانهم فى عاصمة قرطبة، وكذلك لما ضغط عليهم ملوك قشتالة وقبعوا فى عاصمتهم غرناطة ٠ وما بقى من آثار العرب الكثيرة فى جامع قرطبة وقصر

الحمراء فى غرناطة الى اليوم دليل ناطق بما بلغته حضارتهم من مراقى الفلاح الباهر ٠

وأدخل العرب الذين جلوا الى الأندلس وسكنوا المدن والأرياف سكنى دائمة طرائق معيشتهم وأصول زراعتهم وصناعاتهم على النحو الذى ألفوه فى المشرق ، أدخلوا اليها كثيرا من أصناف الحبوب والبقول والأشجار وزرعوا الفلوات وأحيوا الموات وعمروا القرى والمدن ، وأدخلوا الى الأندلس معظم الصنائع وأخذوا يجرون المياه فى بسائط الجزيرة بما أقاموه من الخزانات والنواعير ، وبما عرفوه من أساليب الهندسة فى تقسيم المياه ، وأسداد بلنسية الباقية الى اليوم شاهدة بتفننهم فى أعمال الرى والسقيا ، وهى أثر من آثار نبوغهم فى الهندسة ٠ وغلب هذا العلم على أهل هذه الولاية حتى لتقرأ فى تراجم الرجال أن فلانا امام الجامع الأعظم كان مهندسا وفلانا قاضى الجماعة أو قاضى القضاة كان مهندسا رياضيا ٠

وأمتع العرب أبناء البلاد من النصارى ــ وكانوا يسمونهم المستعربين كما يسمون المسلمين الخاضعين لأسبانيا المدجنين ــ بعامة حرياتهم يبنون ما شاءوا من بيع وكنائس ويعقدون مجامع أساقفتهم ، وقد عقدوا سنة ٧٨٢ م مجمعا فى اشبيلية وفى سنة ٨٥٢م مجمعا فى قرطبة ، وكان رجال الدين من النصارى يدعون الى دينهم فى صميم بلاد الخليفة الأندلسى وربما وقفوا على أبواب المساجد يتسقطون المسلمين ليبشوا دينهم بينهم ، يتعرضون للقتل والاهانة حتى تكتب لهم الشهادة والسعادة بزعمهم ٠ واذا مر بهم المسلمون مروا كراما ٠ وبلغ من سياسة العرب فى الأندلس أنه اذا

شجر خلاف بين مسلم ونصرانى من الجند يعطى الحق غالبا للنصرانى • فنشأت بذلك وحدة وطنية بين الغالب والمغلوب• وكان الغالب يومئذ فى أقصى قمم عظمته وقوته •

ولقد علم العرب الشعوب النصرانية كما قال العلامة جوستاف لوبون أثمن الصفات الانسانية وأعنى بها التسامح، وما تناول التبدل الذى أدخلوه الى الغرب الماديات والعقليات فقط بل تعداها الى تحسين الأخلاق ، وكان العرب ينطوون على صفات فيها الكرم والاحسان، وفيها الشمم وعزة النفس، مما لم يكن له أثر عند غيرهم • وانتحل الاسلام كثير من الأندلسيين ، وما كان لهم غير مصلحة ضئيلة فى ذلك ، لأن النصارى فى الحكم العربى كانوا يعاملون كاليهود أيضا بقواعد المساواة ، ولهم أن يتولوا جميع أعمال المملكة ، وكانت تجرى على سادات الاسبان أحكام الاسلام فيختلطون بأشراف العرب ، ومن ظل محتفظا منهم بدينه نسى عاداته ، فصار يحجب نساءه كالمسلمين ، ويقتدى بأزيائهم وألبستهم وعاداتهم فى مآدبهم ورفاهيتهم ولذائذهم ، ويزهد فى اللغة اللاتينية ويجتهد فى تعلم اللغة العربية ، وتناسى الاسبان أصولهم واستعربوا بحضارتهم وأخلاقهم وأنشأوا يفصحون بالعربية ، وصار الخلفاء يختارونهم عمالا لادارتهم وأمناء لمشورتهم ، يفضون اليهم بأسرارهم • وكان كثير من أذكياء الجلالقة والقشتاليين والليونيين والنافاريين ، دع من كانوا فى البلاد الواقعة فى حكم المسلمين من أرض الأندلس ، يتعلمون العربية ويقصدون الخليفة الأندلسى أو أحد رجاله يستخدمون فى أرضه •

وتزوج العرب من البنات الاسبانيات والبرتغاليات . وشاع هذا الزواج بين العرب ، وأمسى ملوك النصارى على عهد انقسام الأندلس بين ملوك الطوائف يتزوجون من بنات أمراء المسلمين ، فقد تزوج ألفونس السادس بزايدة ابنة أمير اشبيلية ، وعقد مثل هذا الزواج غير مرة وكان عدد المتزوجات من الأسبانيات والبرتغاليات من المسلمين وعدد المسلمات المتزوجات من الأسبانيين البرتغاليين آخر أيام الأندلس كثيرا جدا ، حتى جرى لذلك كلام فى الشروط التى تمت بين الغالب والمغلوب .

ومن العرب من آثر زى الاسبانيين من الملابس والسلاح واللجم والسروج ، وكلف بلسانهم ، وكثير من أهل الطبقة العالية من المسلمين كانوا يعرفون لسان جيرانهم ويتشبهون بهم فى الأكل والحديث وكثير من الأحوال والهيئات . وكان بعض ملوك بنى الأحمر يتزيا بزى الاسبان وكذلك أجنادهم، وذكر العلامة ابن خلدون أن الأندلسيين لعهده أخذوا يتشبهون بأمم الجلالقة فى ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم وأحوالهم ، حتى فى رسم التماثيل فى الجدران والمصانع والبيوت وعد ذلك من علامات الاستيلاء ، ولقد قالوا ان عزيز بن خطاب (٣) ، وكان من أكابر العلماء ، لما ملك على مرسية استمع خطبة الخطيب حاسر الرأس على مثال ملوك الافرنج ، وكذلك كان ابن هود يسير فى بلاده حاسرا ، وعلى هذا درج بنو الأحمر(٤)، وكان يسمح لعلماء المسلمين هناك أن يرخوا ذوائبهم على مثال رجال الفنون والأدب من الاسبان . وأخذ النساء والبنات المسلمات يقلدن الاسبانيات فى العهد الأخير بملابسهن وبالسفور أو الحجاب الخفيف ،

وبلغ من تسامح أمراء المسلمين فى الأندلس أن منذر بن يحيى صاحب سرقسطة وذراتها أجرى اصهار ريموند الجليقى وشانجة انقسطلى من ملوك الاسبان على يديه ، وكتب عقد النكاح بحضرة سرقسطة فى حفل من أهل الملتين • وذكروا أن بعض ملوك الأندلس كانوا يعرضون فى قصورهم التماثيل الجميلة وفيها صور الآدميين وغيرهم •

كانت الأندلس العربية البلد الوحيد فى الغرب الذى كانت فيه حقوق اليهود مصونة (٥) من جور الجورة فانهالوا عليها من كل فج وكثر فيها سوادهم ، ومنهم من انصرف الى خدمة الدولة أو تعلم العلوم كالطب ونحوه ، ومنهم من انتفع بما ربطته حكومة الأندلس مع البلاد المجاورة من الصلات التجارية ، فكانوا من أول التجار الذين تسافر متاجرهم مع متاجر العرب والبربر وغيرهم على الأساطيل التجارية مقلعة من مالقة وألمرية واشبونة وبرشلونة ، تحمل الى الشرق والى شمالى أفريقية وجنوبى أوربا غلات الأندلس ، وتأتى اليها بغلات البلاد القاصية • وبعد انقضاء عقود من السنين كان الفضل لبعض علماء اليهود فى الأندلس بنقل الحضارة من العربية الى العبرانية واللاتينية ، فحملوا علم ساداتهم بالأمس الى من لم يلقوا منهم فى معظم الأدوار الا العنت والارهاق• ورب كتاب ضاع أصله العربى وبقيت ترجمته اللاتينية أو العبرانية ، على نحو ما كان من السبعين كتابا التى نقلها فى مدينة طليطلة من العربية الى اللاتينية جيراردو دى كريمونا فى القرن الثانى عشر وهى فى الهيئة والنجوم والهندسة والطب والطبيعة والكيمياء والفلسفة •

وعدن عرب الأندلس المناجم عـلى اختلاف ضروبها ، فكانوا يبعثون بما يستخرجونه من أرضـهم ويصـنعونه من السلاح فى معاملهم ، وبالحرير والجـوخ والجلد والسـكر والورق الى افريقية وسائر بلاد المشرق والمغرب ، واشتهرت معامل الورق فى شاطبة اشتهار قرطبـة بجلودها وسـلاحها وحليها ، واشـبيلية بحريرها ، ومالقـة بزجاجها ، والمرية بوشيها وديباجها وجوخها ، وباجة بنسج كتانها ، وسرقسطة بسلاحها ، ورية بسجادها ، وطليطلة ومرسـية بأسلحتهما ، وكانت أوربا الغربية تأخذ ورقهـا من الأندلس ، وأوربا الشرقية تستبضعه من معامل دمشق وحلب وطبرية وطرابلس من الديار الشامية • وحمل العرب الى الغرب من جملة الصنائع صناعة السجاد وصناعة السـفن فجعلوا فى كل فرضـة من موانى الأندلس على البحر الرومى وبحر الظلمات، دور صناعة تخرج لهم السفن الوافية بالغرض فى تلك العصور • فكان الانتفاع من البر والبحر على آتم حالاته ، وكانوا يستخرجون من دابة تحتك بحجارة على شط البحر فى شنترين وبرا فى لون الخز لونه لون الذهب وهو عزيز قليل تنسج منه ثياب فيتلون فى اليوم آلوانا ، ويحجز عليهـا ملـوك بنى أمية فلا تنقل الا سرا ، وتزيد قيمة الثوب على آلف دينار لعزته وحسنه • ويلغ من غرام ملـوك غرناطة بالعلم أن فرضـوا جوائز للمخترعين لينشطوهم ويلقوا المنافسة بينهم ، وربما ميزوهم بامتيازات خاصـة ، وجازوا بالمـال الـكثير من يستظهرون كتابا يعينونه لهم فى الفن الفلانى ، وكما كانت للأندلسيين مجامع علميـة تجتمع فى آوقات مخصـوصة من السنة ، كان علماؤهم يؤلفون رسائل يفهمها كل انسان تكون

له عونا على الانتفاع بالأعمال العامة أى دساتير سهلة التناول يتدارسها الصناع والعملة فتفيدهم فيما هم بسبيله ٠

وانتقلت بعض صناعات العرب وأساليبهم الى فرنسا ، ولا سيما فى الزراعة وحفر الترع والخلجان ونظام الرى ، وكانوا أنشأوا الطرق والجسور والفنادق للسياح والمستشفيات والجوامع والرباطات فى كل محلة ومنزل ، ورأى الفرنسيس كيف عمر العرب ناربون وبروفنسيا لما استولوا عليهما وكيف نظموا آساليب السقيا فيهما وأدخلوا أساليب عمرانهم الى قرقشونة ونيم وأتون وسانس وافنيون ومرسيليا وآرل وبوردو ، ومنها ما جعلوه قاعدة لأعمالهم الحربية البحرية ، ووقفوا عند حدود سبتمانيا(٦) أقاموا لهم فيها مراكز دائمة وعقدوا عهودا مع أهل البلاد ٠ وكان رجال الكهنوت فى تلك الأصقاع يؤثرون حكم العرب على حكم الغزاة من الجرمانيين ، لأن هؤلاء ما كانوا يتحرجون من الاستيلاء على أملاك الكنائس ، وأخذت الصلات العديدة تنعقد بين المسلمين والنصارى ، ولما ارتد العرب عن اقليم سبتمانيا سنة ٧٥٩م احتفظوا هناك بأملاكهم وبيوتهم ٠

كان اختلاط العرب بالاسبانيين والبرتغاليين والكتلانيين والفرنسيس والبشكنش (Les Basquen) اختلاط محارب بمحارب ، يعرفونهم لأول الأمر بغاراتهم ، يأخذ بعضهم من بعض أسرى ، فلما طال الزمن رأت تلك الأمم المستضعفة أنه لا مناص لها من أن تتعلم فى مدارس الأمة المرهوبة ٠ وهكذا كان فان كثيرين من نبهاء الافرنج رحلوا الى الأندلس يأخذون عن علمائها العلم ويقتبسون من أنوارهم ، ومنهم

أو من مشهوريهم البابا سلفستر الثانى (جربرت) • وقد درس الرياضيات والفلك عند علماء العرب فى اشبيلية وقرطبة فكان أعظم علماء عصره فى قومه ، ولما صعد الكرسى البابوى سنة ٩٩٩ م ، كان أول البابوات الذين وجهوا وجهتهم الى توحيد قوى الغرب لمقاومة المسلمين فى استعمارهم فى الشرق والغرب ، ومثله كثيرون ممن أخذوا عن العرب وكتبت لهم مكانة بما تلقفوه عنهم بين قومهم •

وذكروا أن شانجه(٧) أمير ليون كان يستشير أطباء العرب • وأطباء العرب من الأندلسيين هم الذين نقلوا الطب الى فرنسا فى زمن أنشأ فيه الأندلسيون فى كل ناحية من بلادهم المدارس وخزائن الكتب والجامعات العلمية فى العواصم وغيرها ، فكانت مواطن العلم فى الغرب زمنا طويلا ومنها اليوم سلمنكة عاصمة العلم فى اسبانيا ، وقلمرية (٨) عاصمة العلم فى البرتغال ، على نحو ما نشهد لعهدنا مدينة ليبسيك فى المانيا وأكسفورد فى انجلترا • وزالت الأمية فى الأندلس بما أنشأ الملوك من المدارس ، وكان فى قرطبة عشرات من الكتاتيب للفقراء فقط ، وأصبح الرجال والنساء على السواء يكتبون ويقرءون ، بل ربما كان من أبناء الفلاحين من ينثرون وينظمون •

وأخذ الاسبان عن العرب فى الأندلس وصقلية معنى الشعر وبعض أوزانه وموضوعاته ، ولم يكن للشعر الغربى الى عهد العرب شاعر افرنجى يرفع الرأس ، ما خلا أغانى هى أشبه بشعر العامة منها بشعر الخاصة • واحتذى الاسبانيون حذو العرب فى القصائد التاريخية والمواليا ،

ونمت رياض الأدب الغنائى فتفشت عدوى الاشتغال بالأدب العربى بين آساقفة النصارى المستعربين ، وراحوا يقرضون الشعر بلغة عربية عالية • وكثير من قصائد الشعراء الذين كانوا يجوبون فى الولايات (تروبادور وتروفير) (★) هى قصائد عربية ، واقتبس دانتى(٩) شاعر الطليان كثيرا من أفكار العرب فى روايته «الكوميديا الالهية» ، وخصوصا عن أبى العلاء المعرى • وتأثر الأدب الروائى والشعر الاسبانى بالأسلوب العربى • وأخذوا عن العرب أوزان التفاعيل الثمانى • والأغانى الاسبانية القديمة منتحلة من دواوين شعراء العرب الى غير ذلك • ثم أن اسبانيا تأثرت أيضا بالموسيقى العربية ، ومازالت الموسيقى الاسبانية فى اسبانيا وجميع البلاد التى استولت عليها فى سالف الدهر، ولا سيما الأرجنتين والبرازيل هى الموسيقى العربية ، بل سرت هذه الموسيقى الى البيع الاسبانية ، وما كانت ألحانها الا عربية فى القرن الثالث عشر للميلاد • وكذلك يقال فى الرقص فان الرقص الاسبانى الى اليوم هو بالرقص العربى أشبه ، وبايقاعه وتلاحينه أعلق • وهكذا يقال فى كثير من أدوات الموسيقى الاسبانية فانها أو أكثرها مما اقتبسوه عن العرب وهؤلاء جاءوا بها من الحجاز وهذه نقلتها عن فارس وعن الروم •

يقول الاسبان اليوم انك اذا أنصت للغناء فى شوارع قرطبة واشبيلية وغرناطة توقن أنه غناء عربى ، واذا طعمت

(★) (Les Troubadours et les Trouvères) التروبادور شعراء ينظمون باللغة الفرنسية القديمة كانوا بعد القرن الحادى عشر الى القرن الخامس عشر والتروفير شعراء بلغة وال كانوا يعانون ذلك من القرن الحادى عشر الى القرن الخامس عشر يختلفون الى الملوك والعظماء ينشدون الأشعار ويضربون على الأوتار وربما أقاموا فى قصورهم مدة •

فى دار أندلسية تجد الطعام طعاما مغربيا ، واذا شهدت من يجلسون الى خوان فى مقهى تحصى لهم عادات أهلية خاصة ، وآن جميع حياة الأندلس تذكر بالأمة العربية القديمة ، وان الحدائق والحقول تسقى من ترع وقنى عربية وان الموسيقى عربية • وهناك صناعات صغيرة وتجار صغار وقوافل من الحمير والأتن (١٠) تجتاز الأزقة على نحو ما هى فى البلاد العربية ، واذا استمعت من بعد الى تلفظ أهل تلك المدن الأندلسية يتكلمون بالاسبانية تحسبهم يتكلمون بالعربية لا بالاسبانية • أما هندستهم وشوارعهم وأحياؤهم وقنى بيوتهم فهى عربية صرفة على مثال ما هو من نوعها فى دمشق وتونس •

ويقول ليبون ان تأثير العرب فى الغرب كان عظيما ، واليهم يرجع الفضل فى حضارة أوربا ولم يكن نفوذهم فى الغرب أقل مما كان فى الشرق ولكنه كان يختلف عنه • أثروا فى بلاد المشرق بالدين واللغة والصنائع ، أما فى الغرب فلم يؤثروا فى الدين ، وكان تأثيرهم فى الفنون واللغة ضعيفا ، وعظم تأثيرهم بتعاليمهم فى العلم والآداب والأخلاق ، ولا يتأتي للمرء معرفة التأثير الذى أثره العرب فى الغرب الا اذا مثل لعينيه حالة أوربا فى الزمن الذى دخلت فيه الحضارة • واذا رجعنا الى القرنين التاسع والعاشر من الميلاد يوم كانت المدنية الاسلامية فى اسبانيا زاهرة باهرة ، نرى المراكز العلمية الوحيدة فى عامة بلاد الغرب عبارة عن مجموعة أبراج يسكنها سادة نصف متوحشين ، يفاخرون بأنهم أميون لا يقرءون ولا يكتبون ، وكانت الطبقة العالية المستنيرة فى النصرانية عبارة عن رهبان فقراء جهلة

يقضون الوقت بالتكسب فى أديارهم بنسخ كتب القدماء ليبتاعوا ورق البردى لاستنساخ كتب العبادة ٠

قال : وطال عهد الجهالة فى أوربا وعم تأثيره بحيث لم تعد تشعر بتوحشها ولم يبد فيها بعض ميل للعلم الا فى القرن الحادى عشر ، وبعبارة أصح فى القرن الثانى عشر ، ولما شعرت بعض العقول المستنيرة قليلا بالحاجة الى نضو كفن الجهل الثقيل الذى كان الناس ينوءون تحته ، طرقوا أبواب العرب يستهدونهم ما يحتاجون اليه ، لأنهم وحدهم كانوا سادة العلم فى ذلك العهد ٠ ولم يدخل العلم أوربا فى الحروب الصليبية كما هو الرأى الشائع ، بل دخل بواسطة الأندلس وصقلية وايطاليا٠ وفى سنة ١١٣٠م،أنشئتمدرسة للترجمة فى طليطلة بعناية رئيس الأساقفة وأخذت تنقل الى اللاتينية أشهر مؤلفات العرب ، وعظم نجاح هذه الترجمات وعرف الغرب عالما جديدا ، ولم تفتر الحركة فى هذه السبيل خلال القرن الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر ٠ ولم تنقل الى اللاتينية كتب الرازى وأبى القاسم وابن سينا وابن رشد وغيرهم ، بل نقلت اليها كتب اليونان، أمثال : جالينوس وأبقراط وأفلاطون وأرسطو واقليدس وأرشميدس وبطلميوس ، وهى الكتب التى كان المسلمون نقلوها الى لسانهم ٠

أصبحت اللغة العربية منذ النصف الثانى من القرن الثامن للميلاد لغة العلم عند الخواص فى العالم المتمدن ، وحافظت على مرتبتها الأولى بين سائر اللغات الى آخر القرن الحادى عشر ، وكان يقضى على كل من يحب الاطلاع من أهل

القرن الحادى عشر على آراء عصره أن يتعلم اللغة العربية ، ولذلك قالوا ان كثيرين من زعماءالنهضة كروجر باكون(١١) وغيره كانوا يعرفون لغتنا • وكان ملوك الأندلس يفاوضون جيرانهم باللغة العربية ، وهؤلاء يجيبونهم بهـا عـلى لسـان تراجم لهم يجيدون العربية ، ويقضى عـلى آكثر سـفراء الافرنج عند ملوك الأندلس آن يلموا ولو الماما خفيفا بلغة العرب •

ويعد آن آخذ الغرب العلم عن كتب العرب وقلدهم فى مخابرهم ومعاملهم وجامعاتهم ومدارسهم ، وقرئت كتبهـم وعلومهم فى جامعات الغرب مدة ستمائة سنة ودام ذلك الى القرن الثامن عشر ، لا نستغرب أن تدخل فى جميع اللغات الغربية الألفاظ العلمية العربية ولا سـيما فى الايطاليـة والفرنسية والاسبانية والبرتغالية ، وفى كل لغة من هـذه اللغات اللاتينية بضعة آلوف من الألفاظ العربية ، آخذوها مضطرين عن العرب لأن هؤلاء احتلوا بلادهم أو أماكن منها، بل لأن العلم العربى كان وحده هو المتفوق فى العالم ، وكان العرب دعاته ورعاته خلال بضعة قرون •

نعم لم يجد العلم ملجأ آمينا له غـير العـرب فى تلك القرون ، وهذه فرنسا لم تنهض من كبوتهـا بعـد غارات البرابرة الا بعد ثمانية قرون وذلك بفضل العرب ، ومن علماء فرنسا من يعز عليهم الاعتراف بهذه الحقيقة • وبينا كانت المدنية الاسلامية زاهرة ، كانت فرنسا فى أحط دركات التأخر ، ولم ينتشر الطب والصيدلة فى ربوعها الا بمساعى أطباء اليهودالذين اعتصموا بأسبانيا ثم باقليم لانجدوك(١٢)

بعد القرن الحادى عشر ، وفى لانجدوك أنشأوا عدة مدارس ومنها مدرسة مونبلييه ، واضطرت بعض الأمم الغربية الى أن تحمل بعض أبنائها على تعلم اللغة العربية ، وأسست جنوة مدرستها لتعليم العربية سنة ١٢٠٧م، ورأى ملوك قشتالة بعد وقعة العقاب(١٣) التى كتب فيها النصر للاسبان على العرب أن لا يقاطعوا الماضى القديم وأنهم فى حاجة الى أن يتعلموا من معلميهم القدماء من العرب ، فحاول ألفونس العاشر أن يعمل لاسبانيا النصرانية ما عمله العرب لاعلاء شأن الاسلام ، وذلك بالأخذ من أحسن ما فى الحضارتين الاسلامية والنصرانية ومزجهما بالحضارة الاسبانية ، فأسست سنة ١٢٥٤م فى اشبيلية مدرسة عامة لاتينية وعربية ، واستدعى الملك الى عاصمته العلماء من جميع الملل والنحل ليؤسس مدرسة طليطلة الثانية ، يجمع فيها بين الأوضاع العربية وغيرها • وقضى مجمع فينا الدينى سنة ١٣١١ م أن تؤسس فى باريز وأكسفورد وبولون وسلمنكة دروس عربية لتنصير المسلمين ، ودروس عبرانية لتنصير اليهود • وعنيت ايطاليا منذ ذلك العهد عناية خاصة بالعربية ترى تعليمها من الضرورات لكل تجار المدن البحرية ، وكان من ذلك أن احتكرت البندقية تجارة أوربا مع الشرق ، واستأثرت بتجارة آسيا الصغرى ، وتمت للبندقية وبيزا وجنوة وطسقانة (★) معرفة الشعوب الاسلامية أكثر من عامة أهل أوربا ، وكان من العادة الجارية فى طبقة التجار من أبناء البندقية أن يتكلموا بالتركية والعربية ، ويأخذوا أنفسهم ببعض العادات والأنسة بالمصطلحات الشرقية • وملك البيزيون والجنويون والبنادقة

(★) المقصود تسكانيا •

أملاكا مهمة فى الشواطىء الشرقية من البحر المتوسط وفى غيرها ، وامتزجوا بأهل البلاد ، وتأخرت الممالك الأخــرى فى تلقف العربية الى القرنين السابع عشر والثامن عشر ٠

أصبح البحر المتوسط بما فتحه العرب من شواطئه بحرا عربيا فى أوائل القرن الثالث ، وذلك لأن شواطىء أفريقية واسبانيا وكثير من الجزر كجزائر منورقة وميورقة ويابسة المعروفة بجزائر الباليار أو الجزائر الشرقيــة وغــيرها قد دخلت فى حكمهم ٠ ولما فتحوا فى سنة ٢١٢ هـ جزيرة صقلية ، وكانوا غزوها غير مرة منذ أخــذوا يســافرون على سفنهم على عهد الخليفة الثالث ، وأتبعوها بجزيرة سردنية وغيرها ، تراجعت سفن الروم الى الموانى القريبة من بلادهم ، وامتدت غزوات العرب الى بلاد انكبردة أو لمبارديا وقلوية أى كالابرا من جنوبى ايطاليا ، واستولوا على أكثر أصقاعها الجنوبية نحو تسع وعشرين سنة ، ومن البلاد التى احتلوها احتــلالا مؤقتا أو غزوها وتخلوا عنها ريووالبندقية وطارانت وسالرن وأمالفى نابولى وروما وجنوة ٠ والغــالب أن العــرب فى الولايات التى نزلوها من جنوبى ايطاليا لم يؤثروا بصناعاتهم وعلمهم ، ولم يخلفــوا أثرا من آثارهم كالنقــود والرنوك والمصانع والجوامع على ما حقق ذلك العلامة نالينو ٠

أما فى جزيرة صقلية ، فان العرب طالت فيها أيامهم الى سنة ٤٨٤ هـ وآثروا فيها أنواع التأثير ٠ فتركوا لأهلها أولا عاداتهم وقوانينهم وحريتهم الدينية المطلقة ، واكتفوا منهم بجباية قليلة كان مقدارها أقل مما كان يستوفيــه اليــونان منهم ، وأعفوا منها النساء والأولاد والرهبان وحافظوا على

جميع الكنائس الموجودة ولم يسمحوا بانشاء غيرها، على خلاف ما جروا عليه في الأندلس ، وعمدوا الى الزراعة والصنائع فأحيوها ، وأدخلوا آصنافا من الزرع لم تعرفها الجزيرة ، ومنها القطن وقصب السكر والزيتون والبردى والكتان ، والمران ، وأقاموا المجارى التى لم تبرح ماثلة للعيان ، وعلموا الناس عمل القنى ذات الأنابيب المعقفة (السيفونات) وكانت قبلهم غير معروفة ٠

وآنشأت العرب فى صقلية مصانع لصنع الورق ومنها انتشرت الوراقة فى ايطاليا ٠ وعدنوا مناجم الجزيرة وعلموا أهلها صنع الحرير ، والغالب أن صناعة صبغ الثياب انتشرت فى أوربا من صقلية ، ومن مصانع الصقليين كانت تصدر الأكسية المحلاة بالجواهر ، والطنافس المصورة والمنقوشة ، والجلد المدبوغ والحلى البديع ، وبالاجمال حمل العرب الى صقلية مظاهر غريبة من فنهم وقناطرهم العالية الجميلة ونقوشهم من المقرنصات وجمال قاشانيهم ذى الميناء وبهيج صناعاتهم ، وما كادت أعلامهم تعلو هذه الجزيرة العظيمة حتى نمت التجارة وكانت قبلهم ضئيلة ، وأنشأوا يقلعون على سفنهم الى الجهات الأربع وكانت لهم حكومة ذات مجد ورقى ، وكثر المسلمون فيها خلال قرنين حتى أصبحوا نصف سكان الجزيرة ٠

وسار النورمان على سياسة رشيدة لما استولوا على صقلية وقضوا على سلطان العرب فيها : فأبقوا المسلمين على عاداتهم ودينهم ولسانهم ، واستعملوا منهم كثيرين فى قصورهم وحروبهم ، فكان منهم القواد والعظماء والعلماء فى خدمة

الدولة الجديدة ، وبقيت لغتهم رسمية فى الجزيرة مدة حكم النورمان ، وتعلم ملوكها العربية ومنهم من برزوا فيهــا ، ونظموا فيها الأشعار وطربوا لأدبها • وهكذا تخلق النورمان بأخلاق رعاياهم وعاملوهم معاملة نادرة فى باب التســامح السياسى وعدم التحزب الدينى فى القرون الوسطى ، حتى اتهم البــابوات أمراء النورمان بأنهــم دانوا بالاســلام ، ومازالوا بهم حتى قضوا عليهم بهذه التهمة وغيرها •

كان روجر أول ملك نورمانى اســتخلص صــقلية من العرب هو واضع أساس هذا التسامح مع المسلمين، وهو الذى استقدم اليه من بر العدوة ــ وبر العدوة ما سامت الأندلس وصقلية من شمالى أفريقية ويعنون بالعدوة المغرب الأقصى والأوسط والأدنى ــ الشريف الادريسى(١٤)وبالغ فى اكرامه، وطلب اليه أن يبقى فى صقلية وأن يحقق له أخبــار البــلاد بالمعاينة لا بما ينقل من الكتب ، وندب لذلك أناسا ألبــاء وجهزهم روجر الى أقاليم الشرق والغرب والجنوب والشمال وسير معهم قوما مصورين ليصوروا ما شاهدوه عيانا ، فكان اذا حضر أحدهم بشكل أثبته الشريف الادريسى حتى تكامل له ما أراد وجعله مصنفا ســماه (نزهة المشــتاق فى اختراق الآفاق) ، وهو من أجل كتب الجغرافيا التى بقيت من تأليف العرب • وعمل الادريسى لروجر كرة أرضية من الفضــــة كانت من أجمل ما ابتدعته قريحة عربية رسم فيها العــالم ببحره وبــره وجبــاله وســهوله وأنهاره وبحيراته ومــدنه وممالكه •

كان تأثير العـرب في صقليـة بعلمهم أكثر من تأثيرهم بمبانيهم ومصانعهم ، وكان الروح فيها عباسـيا ثم فاطميا لأن بني الأغلب أمراء أفريقيـة ، أي تـونس ، للعباسـيين تولوا (١٥) ذلك منهـا أولا ، ثم جاء الفاطميـون فخضعت لسلطانهم • أما في الأندلس فكان الروح أمويا بحتا لا سلطان فيها لغير العرب • يقول العلامة آماري المستشرق الصقلي ان صقلية مدينة للعرب وايطاليا مدينة لصقلية بابتكار الشـعر الوطني ، بمعنى انه منذ قلد البلاط الصقلي البـلاط الملكي الاسلامي ، بدأت العناية بقرض الشـعر تلك العنـاية التي كانت السبب في نهوض الشعر الايطالي • وقال رينـالدي : لم يساعد العرب فقط على انهاض الشعر الصقلي والايطالي ، بل انهم أمدوا القصص الايطالية بشكلها ومادتهـا • وفي بلرم التي اتخذها العرب عاصمة صـقلية وعمـرت عمرانا غريبا ، أنشأت العرب أول مدرسة للطب وما عهـد مثلهـا في جميع أوربا • فقـد أنشئت مدارس الطب في الغـرب بعـد مدرسة صـقلية العربيـة بأعـوام ، ومنهـا انتشر هـذا الفن في بلاد ايطاليـا • وسـاعد أن البـابوات كانـوا رحلـوا الى آفنيـون من أرض فرنسـا فخلا الجـو للعلم العربي • ثم تفرغ العرب بعـد ذهاب سلطانهـم من الجزيرة الى العلم والتجارة • فكانوا نحو قرنين آخرين بعد خروج صقلية من أيديهم رجال المال والأعمال فيهـا ، بل كانوا سادتها بالفعل • ومن كان له العلم والمال لا ينقصـه شيء من القوى •

آخرجت هذه الجزيرة في العهـد العـربي عظماء من الرجال في العلم والأدب ، وكان عـددهم بالقيـاس الى من

أخرجت الأندلس قليلا ، وقل فيهم النوابغ فى علوم العقــل على نحو ما كان فى الأندلس ، ولكن عمل صقلية فى التمدين لم ينقص كثيرا عن الأندلس ، فاذا كانت هذه الجزيرة غذت غربى أوربا بضعة قرون بمدنيتها ، فان صقلية كانت مدة رسالتها ثلاثة قرون ترسل أشعة المدنية العربية الى أواســط أوربا • ولعل ما دعا صقلية الى أن تكون دون الأندلس فى هذا المضمار ، كون العرب فيها قلائل وأكثر من نزلوها من البربر بخلاف الأندلس التى كان فيها العرب كثرة غامرة هاجروا اليها وطابت لهم مستقرا ومقاما •

وقصارى القول ، ان العرب فى الأندلس وصقلية بما كان لعنصرهم من المرونة لتقبل كل نافع بقبول حسن ، كتب لهم الابداع فى صنائعهم ومصانعهم وشعرهم وأدبهم وعلمهــم وعملهم ، كأن هواء الغرب علمهم أن يغيروا ما حملوا معهم من مدنية الشرق بما يلائم تلك البيئة الجديدة ، وحببوا من دون اكراه ما نقلــوه الى أهــل البــلاد فطبعــوهم بطابعهــم وصاغوهم الصياغة التى لا تنافى تعاليمهم ونظمهم، فقربوهم من مناحيهم ومنازعهم ووقفوهم على سر حضارتهم وتفوقهم• وسرى النور من كل أرض احتلوها الى أرض بعيدة عنهم ، ومن شعوب تمثلوا فيهم بعض الشىء الى شــعوب ما وســعها الا أن تجاريهم فيما لا يخرجهم عن الاحتفــاظ بمقوماتهم ، من جنس ولغة •

الهـــوامش

(١) مرمضة ـ بضم الميم ـ المقصود شديدة ساخنة ، وفى المعجم الوجيز « رمض اليوم ـ بفتح الراء ـ رمضا ـ بفتح الراء والميم ـ اشتد حره ، ويقـــال رمضت الأرض أى اشتد عليها وقع الشمس ، ورمض الصائم ، حر جوفه من شـدة العطش ... » .

(٢) تغادى وتراوح ، أى تأتيها غدوا ورواحا أى فى ذهابهم وعودتهم ، اى لا تفارقهم وقد تعنى الالفاظ صباحا ومساء ، وفى المعجم الوجيز : غدا الى كذا أى أصـــبح اليه ، وراح رواحا سار فى العشى ... والغدو والروح من الكلمات التى تستخدم فى معنيين متضادين .

(٣) عزيز بن الخطاب : لم نعثر له على ترجمـة فى المراجـــع المتوفرة بين ايدينا .

(٤) بنو الأحمر أو بنو نصر هم مؤسسو دولة غرناطة أخر معاقل المسلمين فى الأندلس ، والمؤسس هو محمد بن نصر بن الأحمر وأصـله من أرجونة Argona لكنها سقطت فى النهاية فى يد ملك قشتاله وليون فى سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م .

(٥) زادت أعداد اليهود فى الأندلس زيادة كبيرة بعـد الفتح الاسلامى ، وهذا توجه طبيعى تؤكده رحلة بنيامين (الهيئة المصرية العامة للكتاب / الألف كتاب الثانى ـ تحت الطبع) ، وقد زار التطيلى القدس أثناء الحروب الصليبية وفى فترة الحـكم الصليبى فلم يجد فيها يهوديا واحدا ، بينما عاد اليهود اليها فى ظل الحكم الاسلامى ، كما لاحظنا من خلال تتبعنا لأعداد اليهود التى أوردها فى المناطق التى زارها أن اليهود كانوا يرحلون عن أى منطقة أخلاها المسلمون فى الأندلس ، وكان عددهم فى الشـام والعراق يفوق عددهم فى أوربا كلها أثناء فترة الحروب الصليبية ، ويشيد مترجم الكتاب من العبرية ، الأستاذ عزرا حداد بحرية العبادة التى تمتع بها اليهود فى العصور الوسطى الاسلامية ، ... الخ .

(٦) سبتمانيا أو سبتمانية فى جنوب شرق فرنسا الحالية ، الى الشـمال من تطالونية الأندلسية . وسبتمانيا تطل على ساحل البحر المتوسط .

(٧) شانجه الثالث الكبير Sancho III Mayor ملك نبره (١٠٠٤ ـ ١٠٣٥) الذى تصدى لتوحيد اسبانيا ومحاولة اسـقاط ملوك الطوائف ، وشانجـة الثـانى

Sancho II ملك ليون التى انتقلت اليهـــا مهمــة التصــدى للمسلمين فى الأندلس ٠ حؤنس ، اطلس التاريخ الاسلامى ، ص ١٨٨ ٠

(٨) على ساحل البرتغــال شمال لشبونة ٠

(٩) دانتى اليجيرى Dante Alighieri (١٢٦٥ ـ ١٣٢١) شــاعر ايطالى شهير ، وهو صاحب الكوميديا الالهية ٠

(١٠) فى المعجم الوجيز : الأتان ـ الحمارة والجمع اتن بضم الهمزة والتاء وأتن بضم الهمزة وتسكين التاء ٠

(١١) روجر بيــكون ٠ توفى ١٧٩٢ عــالم وفيلسوف انجـــليزى عنى بعـــلم البصريات ٠

(١٢) لانجدوك فى فرنسا الحالية ٠

(١٣) وقعة العقاب أصاب دولة الموحدين بعدها صدع عميق اذ انهزم الخليفة الموحدى الناصر أمام القوى المسيحية الاسبانية ، فى ١٥ صفر ٦٠٩هـ/١٧ يوليو ١٢١٢ وفيها حصد المسيحيون زهرة مقاتلى قبائل مصمودة (من البربر) وأحلافهم من العرب الهلالية وبنى مرين وتطلق المراجــع الأوربيـــة على معــركة العقـــاب هذه اسم Las Navas de Tolosa ٠ ونقرأ فى أطلس التاريخ الاسلامى لحسين مؤنس هذه الكلمات الدالة على خطورة هذه المعركة :

ولـكن الحـــال تغـــيرت بعــد وفــاة أبى يوســـف يعقــوب المنصـــور ، لأن خليفتــه وابنــه محمــد النــاصر (٥٩٥ ـ ٦١٠هـ / ١١٩٩ ـ ١٢١٣ م) لم يكن من طراز أبيــه ٠ ثم أن العبء على خلفــاء الدولة الموحدين كان ثقيلا جدا ، فقــد امتدت من طرابلس فى أقصى شرق المغرب الى ساحل المحيط ، ومن شمال نهر الوادى الكبير فى الأندلس حتى وادى درعة فى افريقيا ، ثم أن الخلافات اشتدت بين المتنافسين على السلطان فى الدولة ٠ وكذلك كان لثورة بنى غانية المسوفيين ـ وهم بقايا المرابطين فى دانية والجزائر الشرقية وبلاد افريقية ـ اثر كبير فى اضعاف جبهة الموحدين فى الأندلس ، وكان الفونسو الثانى ملك قشتالة منذ هزيمته فى موقعــة الأرك قد ملكه الخوف فاســتعان بالبابوية واخذ يتاهب للأخذ بثاره ٠ وتمكن من ذلك فجمع حشودا عظيمة وسار للقاء الموحدين ، وجمع محمد الناصر الموحدى اقصى ما استطاع جمعــه وسار للقاء القوات القشتالية ، ولكن النزاع كان قد دب بين الأندلسيين من ناحية ، والموحدين من ناحية أخرى ، وكان فى جيش الموحدين عدد كبير من العرب الهـــلالية ، وهؤلاء لم يتعودوا على نوع الحرب البالغة العنف والضراوة بين المسلمين والنصارى فى الأندلس ، وكان اللقــاء فى موضع يسمى العقاب Las ùavas de Tolosa شمالى ابذه Ubeda وجيان فى شرق الأندلس فى ١٥ صفر ٦٠٩هـ/١٧ يوليو ١٢١٢م ولقى الموحدون هزيمة كبرى اذ حصدت قوات المطوعة وفر العرب ثم بقية الأندلسيين ٠ وتعتبر هذه المعركة من اكبر المعــارك الفاصلة فى تاريخ الأندلس ، فقد انحسرت حدوده ، وهبطت الى حوض الوادى الكبير ، بل ان القوة العســكرية الموحدية لم تعــد قط الى

سابق عهدها بعـد الهزيمة لكثرة من قتل فيها من جنود الموحدين ومن انضم اليهم من المسلمين » .

(١٤) الشريف الادريسى هو محمد بن محمد . ولد فى سبته بالمغرب ونشأ فى قرطبة . له كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق .

(١٥) يقصد أن الأغالبة كانوا ذوى ولاء اسمى للدولة العباسـية ثم غلب النفوذ الفاطمى بعـد ذلك ، ولشرح هذه العبارة الموجزة نورد قبسا توضيحيا من أحـد الاختصاصيين فى التاريخ الاسلامى (احمد مختار العبادى) كالتالى :

« دولة الأغالبـة (١٨٤ ـ ٢٩٦ م)

وخشيت الخلافة العباسية على نفسها من مبـادىء الخوارج واتسـاع أهداف الادارسة فى المغرب وعداوة الأمويين فى الأندلس ، فاقامت دولة بنى الاغلب بأفريقيـة أو المغرب الادنى لتكون دولة حاجزة Buffer State أو حدا فاصلا بين بلادها وبلاد المغرب والأندلس . كان الاغالبة اذن ، يحكمون باسم الخلافة العباسية ، وكانت عاصمتهم الرسمية مدينة القيروان بينما كانت عاصمتهم الخاصة التى يقيمون فيهـا مدينة رقادة جنوبى القيروان بأربعة أميـال . وكان الأغالبة يمتلكون قوة بحرية كبيرة مكنتهم من غزو صقلية ومالطة والسواحل الايطالية الجنوبية . على أن نفوذهم فى داخل افريقيا كان ضعيفا مما ساعد على نمو حركة داعى الفواطم أبى عبد الله الشيعى فى الجبال الجنوبية من دولتهم ، وتمكنه من الاستيلاء على بلادهم سنة ٢٩٦هـ واعلان قيام الدولة الفاطمية » .

المبحث الثالث

أثر الحضارة العربية فى الحروب الصليبية
وأثر الحضارة الغربية على عهد الاستعمار الحديث

لما صحت عزيمة البابا على اخـراج العـرب من أرض البرتغال ، دعا الفرنسيس والانجليز والنورمانيين والألمانيين والبلجيكيين الى معاونة البرتغاليين لنزع سلطة العرب عن بلاد البرتغال • ولما أراد البابا القضاء على دولة الموحدين فى الأندلس (٦٠٥ هـ) نادى بالحرب المقدسـة فخفت جيـوش النصرانية من ايطاليا وفرنسا وألمانيا ، واتحـدت قواتهـا بقوات اسبانيا • ولما أزمع أن يأخذ القبر المقدس من أيدى المسـلمين فى فلسـطين ، دعا النـورمانيين والايطـاليين والفرنسيس والألمانيين والنرويجيين والسويسريين والانجليز وغـيرهم من شـعوب الغرب الى حمـل الصليب والذهاب الى أورشليم •

فى سـنة (٤٩٠ هـ) (١٠٩٦ م) ، اجتمع مئـات الألوف من غزاة الصـليبيين فى القسـطنطينية ، وبعـد أن خربوها ، وكان صاحبها حليفهم ، ساروا الى آسـيا الصغرى فضلوا طريقهم ، وأخذوا يخربون ويقتـلون الى أن بلغـوا الرها وأنطاكية والمعرة فالقدس ، وقتلوا من أهل هذه المدينة المقدسة فقط سبعين ألفا ، ومن أهل المعرة مئة ألف ، وظهروا بمظهـر من التوحش لا يغبطون عليـه ، وملك المسـلمون اعتدالهم فما خرجوا عن حدود شريعتهم فيما أمرت به من الرفق بالناس فى دار الحرب ودار السلم • أما الصليبيون فارتكبوا كل محرم فى دينهم بأن قتلوا المعـاهد والمخـالف ،

وقضوا علـى اليهود قبـل أن يغادروا بلاد الغـرب طمعـا بأموالهم (١) "

وظلت الحـرب سـجالا عشرات من السـنين حتى قام صلاح الدين وقضى على الصليبيين فى القدس ، ثم قام من أخلافه ثم من المماليك المصريين من استأصلوهم فى أدوار مختلفة • وبلغت الحملات التى وجهها الصليبيون على الديار الشامية ثمانى حملات ، منها ما عد جنده بمئات الألوف ، وهلك من الفريقين خـلائق يصعب احصـاؤهم ، ورجـع الغربيون ولم يربحوا من غزواتهم غير ما نحن ذاكرون من الفوائد المادية والمعنوية • وأخذ العجب المهاجم والمدافع مما رأى من عدوه ، وأثبت الأول انحطاطه ، وسـجل الثـانى ترقيه • رأى الصليبيون من حسن أخلاق نور الدين وصلاح الدين وغيرهما من أمراء المسلمين ما أعجبوا به ، رأوا صلاح الدين يوم استرجاعه القدس يكتفى بأن يضرب على كل رجل منهم عشرة دنانير ، وعلى كل امرأة خمسة ، وعلى كل طفـل دينارين ، وعجز بعضهم عن أدائها فأدى أخوه أبو بكر بن أيوب فدية عن ألفى صليبى ، ثم أعفى صلاح الدين كثيرين من هذه الغرامة ، وأغضى عن جواهر الصليبيين وناضهم من الذهب والفضة ، وعامل نساء الافرنج معاملة لطف وظرف، وسهل سبيل الخروج لملكتين عظيمتين من ملكاتهم ، بما معهما من جواهر وأموال وخدم ، وسمح للبطريرك الأكبر أن يسير آمنا بأموال البيع وذخائر الجوامع التى كان غنمها الصليبيون فى فتوحهم الأولى • فأثرت هذه المحاسنة من صلاح الدين فى جمهور الصليبيين • وظل الملوك والبابـوات عـلى عنـادهم

وعدائهم حتى قال شـاعره عبـد المنعم الجليانى من قصيدة يصف حرمة الصليبيين له :

فخطوا بأرجاء الهياكل صورة   لك اعتقدوا كاعتقاد الأقانم

كان المسلمون مع الصليبيين أيام المهـادنات عـلى غاية اللطف والمياسرة ، يضيفونهم ويكرمونهم ويعاملونهم معاملة حسنة • فامتزج الصليبيون فى الشام امتزاجا دائما متصلا بأهل البلاد نصاراهم ومسلميهم ، واعتمدوا عليهم فى أعمال الزراعة وبناء الكنائس والقلاع ، وجندوا كثيرين منهم فى جيوشهم ، ومنهم بعض نصارى لبنان ، وكان منهم الأدلاء والتراجمة ، وعاش الصليبيون بالقرب من أشراف المسـلمين يتبادلون واياهم فروض المجـاملات ويعقدون معهم عهـود الصيد • وأسر المسلمون كثيرا من الافرنج وظلوا فى أسرهم أمـدا طـويلا ، فكانوا يعاملونهم أحسن معاملة ويمنحونهم قسطا وافرا من الراحة فنشأت علاقات ود بين الفريقين ، وكان اتجار كل فريق فى أرض جاره من عوامل التعارف بين المسلمين والنصارى من أهل الغرب • وتزوج الصليبيون من غير جنسهم من الشاميات والارمنيات أو من العربيات اللائى تنصرن ، ونشـأت صـداقات بين أفراد الفـريقين ، عقبى المعاهدات التى عقـدت بين المسـلمين والصليبيين لاسـتعانة فريق بآخر ليقاوم له منافسا أو منازعا من أبناء دينه •

هذا قول مونرو وزاد أن التسـامح المتبادل دخل فى الأخلاق ، فكان النصارى يؤثرون استشارة أطباء المسلمين لتفوقهم عـلى أطبائهم فى علاج الأمراض ، ولتجـافيهم عن استعمال السـكين والمبضع فى الجراحة ، وقد وصـف سفير

الامبراطور فريديك بربروسا (٢) فى عهــد صــلاح الدين معتقدات الاسلام وصفا حسنا ، وأطرى روح المسامحة عند المسلمين وألمع الى الحرية التى أطلقوها لأتباع كل دين • قال ان أكثر المســلمين يكتفــون بــزوج واحــد ، وان صــلاح الدين كان محبــوبا فى الغرب ، لرأفته وكرمه بعد استيلائه على أورشليم، وكان شديد التسامح مشهورا بتأدبه • وكتب ريكولدوس فى مدح المسلمين قائلا : ومن لا يعجب بمحــاسنتهم وبخشــوعهم فى صلاتهم ، ورحمتهم الفقير ، وبتقديسهم اسم الله والأنبياء والأماكن المقدسة ، وبحسن عشرتهم ولطفهم مع الغريب وباتفاقهم وتحاببهم ؟! •

ويؤخذ مما قاله ميشــو ودروى وســيديليــو ولافيس ورامبــو وسنيوبوس وليبون وبثى وغــيرهم من المــؤرخين والحكماء أن الحروب عادت على الغرب بخيرات لا تستقصى ، ولو لم يكن منها غير تحطيم قيود التعصــب الكنسى ومارآه الصليبيون عيانا من تســامح المسلمين وتســاهل مشــاهير أمرائهم لكفى فى فائدتها • فانتشرت التجارة بعد الحروب الصليبية أكثر من انتشارها أيام المملكة الرومانية ، وأخذت أوروبا عن العرب عادات الفضيلة والمدنية ، وكل ما يهون الحيــاة ويحليهــا للأنفس • بدأت الصــلات بين الغــربيين والشرقيين بحرب بين المؤمنين ، وانتهت بمسائل تكونت بين المتجرين ، وتحضر الغربيون بامتزاجهــم بالشرقيين ، وأثر هذا الاختلاط فى أفكار النصارى الدينية ، فتحمســوا أولا للطعن والنزال ، ولما شاهدوا المسلمين عن أمم(٣)، ورأوا رجالا أشداء كرماء منورين أمثال صلاح الدين الذى أخلى سبيل أسارى النصارى بدون فدية ، وبعث بطبيبه الى أحد زعماء

الصليبيين ليداويه من مرضه ، عندئذ بدءوا فى احترام المسلمين •

كانت الحروب الصليبية من حيث غايتها الأولى عقيمة ، فان الصليبيين على ما بذلوا من الأموال، وأهرقوا من الدماء ، رجعوا من الشرق بعد قرنين كاملين ، بخفى حنين • وأفادت هذه الحروب من طريق آخر فكان الاختلاط بالشرق عشرات من السنين من العوامل القوية فى سرعة انتشار المدنية فى أوربا • وكان الشرق بفضل العرب ينعم اذ ذاك بمدنية زاهرة ، على حين كان الغرب لم يزل غارقا فى التوحش • وقد استدللنا من مجموع أعمال الصليبيين أنهم كانوا فى كل مكان الى الهمجية حقيقة ، ينهبون الأموال ويقتلون الأنفس لا فرق عندهم بين عدوهم وصديقهم : خربوا فى القسطنطينية أثمن كنوز العاديات اليونانية واللاتينية ؛ ولم يربح الشرق باختلاطه بهؤلاء البرابرة من الصليبيين ، بل خسر ونتجت من ذلك كراهته للغربيين كراهية دامت قرونا •

قبل الحروب الصليبية كان لا يعرف الشرق العربى من الغربيين غير أفراد أذكياء رحلوا فى التجارة ، أو جاؤوا فلسطين للزيارة ، أو نزلوا الأندلس وصقلية يعجبون بما لا يعرفونه من حضارة وغضارة ، وفى هذه الحرب عرفوا الشرق الاسلامى وكان الواغلون عليه من مختلف الطبقات ، فرأوا المسلمين فى عقر دارهم ، وحققوا أنهم ممتازون بصفات حربية وأدبية واجتماعية ، رأوا أمة تحررت من قيود الدينيين (٤) الا قليلا ، وأيقنوا أنها من غير الطراز الذى

عرفوه من أجيال الناس ، على حين كانت أوروبا تحت سلطة الكنيسـة الرومانيـة ، يتصرف البابوات فيهـا بالأشـباح والأرواح ، ويقيمون فى كل مكان حكومة وسط حـكومة ، تجبى أموالا من الناس وتعفى أملاكهم من الخراج ، كمـا يعفى خدمتهـا من المحـاكمة مع الناس ، بل كثيرا ما كان يحـاكم الشـعب نفسـه فى الكنيسـة ، ولطالمـا كان الأسـقف فى أبرشيته خصما للحـاكم السياسى ورقيبا عتيدا عليه • فكان البابا منذ القرون الوسطى كمـا قال العـلامة جول سيمون لا يعد نفسه امام الأحبار فقط ، بل خليفة الله فى الأرض ، ليس بينه وبين الرياسة الملكية العامة الا خطوة قصيرة ، استعد لاجتيازها بالقـول ، ولم يدخر وسعا فى تطبيق القول على العمل ، فرأس الملوك وألبسهم التيجان ، ولم يفتأ اللاهوتيون والوعاظ يوطئون له أكنـاف هـذه السلطة المدنية العامة ، كأنهم بذلك يخضعون الملوك قاطبة لله الواحد القهار •

قالوا ان شعوب الغرب فى القرن الثانى عشر كانوا فى حالة بداوة وغباوة ، وهذا ما ساعدهم على اعلان الحـروب الصليبية فى الشرق ، فلما نشأت المدنية الحديثة فى القرن السادس عشر ، وتسربت أولا الى رؤساء الكنيسة والملوك ، أصبحوا لا يرون الاغتراب عن مواطنهم ، ولا أن يفارقوا مساقط رؤوسـهم ، وعمت الصـناعات وحسنت الزراعة ، وانتشر العلم، وغدا ذكرى كل مدينة وكل أسرة ، وتقاليد كل شعب وقطر ، والألقاب والامتيازات والحقـوق المستحصلة والأمل فى تنميتها ، كل ذلك قد غير من أخلاق الافرنج ، وبدل من ميلهم الى حياة التنقل والارتحال ، وجعلها صلات

تربطهم بالوطن ، وكتب التوفيق للملاحة فى القرن التالى باكتشاف أمريكا ، واجتاز الملاحون رأس الرجاء الصالح ، فنشأ من هذه المكتشفات تبدل كثير فى التجارة ، وأخذت الأفكار تتجه وجهة جديدة • وأنشأت المضاربات التى كانت قائمة بالحروب الصليبية تسير نحو أمريكا والهند الشرقية ، ففتحت آمام الغربيين ممالك كبرى وأقطارا غنية تسد مطامعهم ، وتشبع نهمة التائقين منهم الى المجد والثروة والطموحات ، فأنست حوادث العالم الجديد ما فى الشرق من عجائب •

لما قفل الغزاة من الصليبيين راجعين الى بلادهم ، وقد أضاعوا من صيت فرسانهم ، وفقدوا من شممهم وعزة أنفسهم لما حلوا غير أرضهم ، أخذوا يقصون على بنى قومهم أخبارا تناقض ما كان ينشره دعاة الحرب من رؤساء الكنيسة ، من أن المسلمين جماعة من الوثنيين غلبوا على الأرض المقدسة ، وأجلوا عنها دين التوحيد ، ونفوا منها كل فضيلة ، وأنهم وحوش ضارية ، وحيوانات مفترسة ، أخذوا يقولون لقومهم ان أعداءهم كانوا أهل دين وتوحيد ومروءة ، وذوى ود ووفاء وحرمة ، وان ما كانوا اتهموا به غير صحيح، وان دعاة الحرب المقدسة تقولوا عليهم ، ومزجوا أقوالهم فى المسلمين بكثير من الأفاويه (التوابل) لتوافق روح ذلك العصر • والخصم قد يستحل لنفسه أن يقول فى خصمه ما قاله مالك فى الخمر •

وأهم ما استفاده الغرب من حروب الصليبيين واختلاط أهله بأهل الاسلام ، أن القابضين على زمام الأمر فى الغرب

لم يعودوا كما كانوا فى الثمانين سنة الأخيرة التى مضـت قبل سقوط القدس بأيدى المسـلمين يأتمـرون فى الحـال بأوامر الكنيسة ، ويحمسون الناس ليسيروا بهم على العمياء ، يقتلون ويقتلون على غير فائدة محسوسة . ومن أعظم ما عاد على الغرب بالفائدة من هذه الحروب ، أنه لم تعقد خلالهـا دواوين التحقيق الدينى (★) ، ولم يحرق أحد بالنار ، ولم تقطع الأعناق فى سـبيل الأفكار الدينيـة والعلمية ، فكأن الجلادين تعبوا من قطع الرؤوس ، وبسط العقوبات على الناس مدة ثلاثة قرون ، وكأن رجال الدين والسياسة هادنوا العدو الداخلى ، لينالوا من العدو الخارجى ، وكان المتهم فى غضون انعقاد ديوان التحقيق اذا حكم عليـه بالقتـل لا يدافع عن نفسه ، وان كان متقلدا سـيفا وذلك عمـلا بآية الانجيـل الطاهر « اذا ضربك أحد على خدك الأيمن فحول له الأيسر » فكان المتهمون بالالحاد يساقون من قبل كما يساق قطعـان من الغنم الى المجزرة ، ساكنين عزلا من أسلحتهم مستسلمين للأقدار ، وكان الوالى اذا أراد أن يجادل أحـدهم بالبرهان على سبيل الشفقة ، لا يفهم ما يقول لأنه غبى جاهل .

وأدى الضغط على الناس فى الغرب باسم الدين الى قيام لوثيروس(٥) بعد حين ، وكان سبب ثورته كما قال العـلامة جول سيمون فى كتابه حرية الضمير أن البابا أراد انجـاز كنيسة القديس بطرس فى روما ، فنضب المال لديه ، وعقد النية على بيع الغفران(٦)، فوزع عمالات العالم النصرانى على بعض حاشيته، فجبوا جزءا من المال المفروض، وباعوا مجموع الريع من جباة متعهدين ، ووقعت سكسونيا وجزء من ألمانيـا

(★) المعروفة بمحاكم التفتيش .

فى نصيب أخت البابا • فعهد الى رهينة الدومينيكيين(٧)أن يبشروا بالغفران ، لتثمير هذه التجارة ، فاغتاظ لوثيروس من هذا الحيف ، وكان صاحب احساس وشرف ، وطفق يثير الناس على الدومينيكيين لتعلقهم بخدمة صراف فى عمل غير شريف ، وأخذ يبحث عن معنى هذه التجارة ، وعن قيمة هذا الانعام فى العالم الثانى ، يبيعه البابا فى الدنيا مقابل اسناد وسفاتج (جمع سفتجة ، وهى الكمبيالات) تدفع للجباة ووكلائهم • وحاولت الكنيسة الرومانية أن تدعو الى نصرتها جميع الأمراء فلم تفلح • وكان من ذلك الاصلاح الدينى المعروف ، وتلك المذابح الدينية فى معظم البلاد ، على صورة لم يسبق لها نظير فى الغرب ولا فى الشرق • قال : « وكان البابوات مزجوا السلطة الروحية بالسلطة السياسية ، وان لم يخضع لهم جماع الأمراء والقياصرة المجاورين ممن دانوا بدينهم ، وانتهت بهم الحال أن ادعوا العصمة واستهووا رعاياهم • وتصدى كثير من المصلحين قبل قيام لوثيروس وخلعه طاعة البابا لاصلاح الحال ، فأميتت عقولهم ، كما قام كثيرون قبل جاليله (٨) وديكارت (٩) ، وكم من قرائح ضاعت ، ومن أعمال علمية بارت ، ومن بلغاء خابوا يوماً وما أسمعوا أصواتهم ، ومن دهاة عجزوا وتضاءلوا ! » • فالغربيون اذن أفادتهم حروب الصليب تنفيس خناق العلماء ، والأخذ بالمخنق من بعض المتعصبين من الدينيين •

أما المسلمون فاستفادوا من الغربيين طريقة أخذ الأخبار من مصادرها ، وكان الصليبيون فى بدء الحرب الصليبية لا تخفى عليهم خافية من حال أعدائهم ، فأتقن

المسلمون بعد ذلك صناعة الاستخبارات بواسطة أصحاب البرد والأخبار ، على ما كان الرسم فى بعض الدول العربية السالفة • وعرف المسلمون ان الافرنج أمم كثيرة العدد ، أصحاب شدة لا يستهان بهم ، ولو كانوا عرفوهم من قبل حق المعرفة ، لعقدوا معهم معاهدات ومنحوهم امتيازات ، أزالوا بذلك أسباب الشكوى التى اختلقت لاشهار هذه الحرب الزبون (١٠) ، ولما خربت الشام وهلك مئات الألوف من المسلمين عربهم وتركهم وكردهم ، ومثلهم أو أكثر من حملة الصليب •

وعلمت هذه الحرب المسلمين أن حياتهم بالتضامن(١١) والانكماش ، وكانوا قبلها متفاشلين متخاذلين ، يعبث بعض الملوك بكيانهم ، ويصرفونهم على هواهم لأغراضهم ومصالحهم • فما ارتضى الناس فى هذا الدور من أرباب صناعة الملك الا أن يكونوا جد كفاة لتولى رقاب الناس • ولقنت الحرب أهل الاسلام معنى الجامعة الدينية ، وما يتوقع من آثرها فى جهاد العدو ودفع صائله ، وكانت العصبية العربية قد أصيبت بالضعف فحلت العصبية الدينية محلها • وبهذه الحروب المنوعة الأشكال والأجيال ظهر نبوغ المسلمين فى الحرب والادارة وظهر فيهم رجال كانوا فى أخلاقهم ومضائهم ، على مثال أهل الصدر الأول من العرب وان كانوا من أصول أعجمية •

قلنا ان الصليبيين خالطوا المسلمين ، ومنهم تعلموا حياة الرفاهية وزهدوا فى التبدى ، وعرفوا أن البادية لا تقوم لها قائمة أمام الحضارة ، وكان بعض شعوبهم

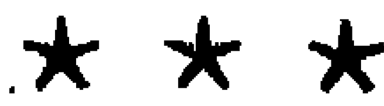
استفادوا بملابستهم العرب فى صقلية والأندلس ، أما اختلاط الافرنج فى الحروب الصليبية فاستفاد منه خاصة الغربيين وعامتهم ، ومن جملة ما استفادوه عادات شرقية كثيرة ، ومنها الاستحمام والألبسة المسترسلة الفضفاضة ، ونظموا فرسانا على الطريقة الاسلامية ومنهم من تعلموا اللغة العربية وأتقنوها واقتبسوا من عادات المسلمين ما استحسنوه • قال لوبون : ان النضال الذى ناضله الصليبيون فى حملاتهم الأولى ، كان نضال عالم لم يزل على توحشه مع مدنية من أرقى المدنيات التى حفظ التاريخ ذكرها ، واشتد ولوع الصليبيين بالزراعة والتجارة ، وعرفوا أن فى بلاد الشرق صنائع أرقى من صناعاتهم ، وزراعة ناجحة ، وتجارات رابحة ، ورقة شعور وعاطفة شريفة وتسامحا غريبا ، فربطوا مع الشرق صلات تجارية نافعة •

ورأى الصليبيون فى الشرق عناية المسلمين بالكتب ، فطرسوا (١٢) على آثارهم فى اقتنائها ووضعها فى بيوت ورفوف وقيل ان سان لوى ملك فرنسا هو أول غربى حدثته نفسه بجمع الكتب ووضعها فى خزائن على مثال ما رأى فى مصر وتونس • ومن الصليبيين من أخذوا كتبا من الشام ومصر على أنها غريبة من الغرائب ، ولما لم يكونوا على شىء من العلم أحرقوا خزانة بنى عمار فى طرابلس على أنها مصاحف قرآن، ولما نادى منادى النهضة فى ايطاليا صحت همة البابوات فى القرن السادس عشر على اقتناء كتب العرب ، فندبوا لذلك جماعة من رهبان الموارنة ، فحملوا اليهم من أديار لبنان وغيرها ما كان فيها من كتب العلم والدين ، وأخذت حكومات ألمانيا وهولندا وانجلترا وفرنسا

وروسيا تجمع منذ القرن الســابع عشر ، كتبا تبتاعهــا من البلاد الاسلامية بواســطة وكلائهــا وسفرائهــا وقناصلهــا والأساقفة والمبشرين من رجال الدين ، وأخذ الافراد من أبناء الغــرب يحلون بعض رموزها أولا ، ثم رتبــوها فى خزائن فى دور كتبهم العامة للاستفادة ، وكانت اســبانيا والبرتغال من أزهد الأمم فى هــذه الكتب العربيــة • أما اسبانيا فقد بقيت خمسين سنة بعد جلاء العرب عنها تحرق الكتب العربية حيث وجدتها من شبه جزيرة ايبريا ، وقد أحرق الكردينــال كسيمينس فى يــوم واحــد فى ســاحات غرناطة ثمانين ألف مجلد من كتب العرب ، وكان فى الأندلس سبعون خزانة عامة للكتب ما عدا خزائن الأفراد ، ولم تقم فى البرتغال للمشرقيات العربيــة سوق حتى الآن ، وليس عندها من الكتب العربية ما يذكر ، هذا مع ارتباط جزء من تاريخها بتاريخ العرب • ولما نقلت بعض الكتب العربية الى بعض اللغات الأوربية استفاد الغربيون منها فوائد جلى، واستفاد المسلمون تصحيح الأحكام القاسية التى كان يحكمها رجال الكنيسة عليهم وعلى دينهم •

ومن الفوائد التى عادت على أوربا بالخير من الحروب الصليبية تحرير أصحاب الأرضين من رق الزعماء والأمراء ، وانتقال الثروة من أيدى هؤلاء الى أرباب الطبقات الوسطى والدنيا ، فباع من باع من الكبراء ملكه ، وابتاع من عمــل بأرضه ومتجره وصناعته ، فاغتنى واقتنى الرباع والضياع• واضطر سادة القرون الوسطى الى أن ينفسوا من خناق عبيدهم فى أرضهم ، وأن يبطلوا قانونهم البشع الذى يخول الســيد فى مقاطعته أن يقضى مع امرأة خادمه وعبده الليلة الأولى

من عرسها، ويسمون ذلك حق التفخيذ Droit de cuissage (١٣) ثم اكتفى السادة أصحاب الاقطاعات بأن يضعوا سوقهم فى فراش عروس مقطعيهم ورقيقهم Droit de Jambage ، اشارة لما كان لهم من حق التفخيذ وأعفوا منه ، ثم استعيض عن ذلك بضريبة وضعت على الزواج • ومنها تقوية السلطة المدنية ووهن السلطة البابوية وضعف تأثيرات التعصب الأعمى ، واضطرت الكنيسة الرومانية نفسها الى اصلاح حالها ، وكان بعض البابوات يأتون الفترة بعد الفترة بما يخدمون به المدنية والعلم كالبابا ليون العاشر فى القرن الثالث عشر وهو من أسرة ميديسيس المشهورة بأفضالها على العلم والأدب فانه وسع نطاق الآداب ، وبث العلم حتى عد عصره العصر الذهبى ، وشابه عصر أغسطس من أكثر الوجوه • ودخل أيضا تعديل كبير على نظام الاقطاعات ، واغتنت ايطاليا من متاجرها ، فكان ذلك من بعض العوامل فى ظهور شعلة النهضة الغربية منها بعد حين • وكانت ايطاليا فى القرون الوسطى أكثر مدنية من جيرانها وكذلك كانت بلاد القاع فى الشمال ، وشعر الناس بلزوم السير على فكرة أوربية ، وكانوا من قبل ممزقين مشتتين ، وشهدوا فى الشرق أنه كان من عدم الوحدة فى قيادة جيوشهم اخفاق أمرهم ، وكانوا من قبل لا يتضامنون ولا يتراحمون •



مضت على البشر عشرة قرون وتاريخ اليونان هو تاريخ العالم ، والمفكرون والعقلاء والأدباء والعلماء من أبنائهم ، ثم نامت العقول عقبى قيام العرب ، وأتم هؤلاء ما بدأ به اليونان من علم وصناعة واستعمار ، فخلفوهم فى

ذلك وبذوهم فى بعض المظاهر • ولما ضعف حكم العرب فى الأندلس وشمالى افريقية ، بل فى مصر والشــام والعــراق وما اليها ، وأخذ سلطان العثمــانيين يقــوى فى الجنــوب الشرقى من أوربا ، قام البرتغاليون النازلون على شواطىء المحيط الأطلنطى يلوبون على المال والمجد، وصادف أن قام منهم جماعة من الملاحين الأذكياء وفى مقدمتهم فاسكو دى جاما ، فاصطنعوا لهم أساطيل لم تلبث أن تفوقت على ما كان من نوعها عند الأمم الغربية الأخرى ، وكشفوا على عهد الأمير هنرى(١٤) ابن الملك جوان الأول البرتغالى فى النصف الأول من القرن الخامس عشر طريق الهند ، بالطواف حول أفريقية الغربية والشرقية •

وكان هذا الأمير البرتغالى عالما باحثا انقطع اليــه بعض علماء اليهود وعلماء من المسلمين من أهــل فارس ومراكش المغاربة ، كانوا يعدون لذاك العهد من أرقى علماء العالم ، وأخذوا ينقبون فى كتب العرب وغيرهم فى علم الجغرافيا ، حتى عرفوا أن فى الامكان الدوران حول افريقية • وألفت البرتغال حملاتها البحرية بمعاونة ملاحين من العرب (١٥)، ومنهم ابن ماجد البصرى ، والقــواد من النصــارى أمثــال فاسكو دى جاما والبــوكرك وماجللان ، فنجحت أســفارهم البحرية وكانوا من قبل استولوا على معظم شواطىء الغــرب الأقصى ، وما زالوا يفتحون فى طريقهــم الى رأس الرجاء الصالح الموانى البحرية، وفتحوا ممبسة وزنجبار وموزامبيق وملندة(١٦)وغيرها حتى وصلوا الى مليبار، واتصلوا بجزائر الابازير فى الهند ، وصار بحر الهند والصين تحت سلطانهم لا شىء غير تجارتهم تنقل على سفنهم ، ولا يستطيع انســان

أن يتجر بدون أمنهم وجوازهم وذلك فى الأصناف التى لا يريدون هم أن يتجروا بها لقلة الانتفاع بأرباحها الضئيلة ، وهذا كان مبدأ اختلاط الغربيين بالشرقيين ولا سيما بالعرب فى مطلع القرون الحديثة • والحاصلات التى اهتم لها البرتغاليون بادىء بدء لاستبضاعها من الشرق : الفلفل والقرنفل والزنجبيل والقرفة والبسباس • وأكثر ما كان البرتغاليون يهمهم أن يضربوا فى تلك الأصقاع على أيدى تجار العرب ، لأنهم كانوا مستأثرين بالتجارة اكثر من غيرهم من العناصر ، على ما روى ذلك الشيخ زين الدين فى كتابه تحفة المجاهدين فى بعض أحوال البرتغاليين •

وأدرك البنادقة وكانوا سادة التجارة فى البحر المتوسط عظم الخطر على تجارتهم ، فحثوا السلطان الغورى من سلاطين المماليك فى مصر والشام على حرب البرتغاليين فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، لينقذوا تجارتهم وتجارة مصر معا ، وأرسل البنادقة الأخشاب تنقل من بلاد البنادقة فى المراكب الى الاسكندرية ، ومنها على متون الجمال الى السويس ، ويتولى صنعها أناس من البنادقة حتى تستوى سفنا صالحة • وحارب المصريون جماعات البرتغاليين ومعهم أناس من البنادقة والجنويين والبيزيين من الطليان ، ممن كان استعمارهم فى شواطىء البحر الرومى استعمار استثمار كالاستعمار الفينيقى والقرطاجنى • أما استعمار البرتغاليين والاسبانيين ثم الهولنديين والبريطانيين والروسيين والفرنسيين والبلجيكيين ، فكان كالاستعمار الرومانى واليونانى عبارة عن فتح واستيلاء واستيطان وامتلاك

المتاجر والزراعات ، ونشر لغة وعادات ، وبث مذاهب وتعاليم .

كانت التجارة فى كل دور من أدوار حضارة البشر تشغل بال الأمم ، وتعنى برواجها الحكومات تسلك اليها كل سبيل ، فقد كانت تجارة الشرق والغرب منحصرة بادىء بدء بآسيا الصغرى فى الأصقاع الممتدة بين البحر المتوسط من الغرب . وسهول ارمينية من الشمال ، وسفوح جبال ايران من الشرق ، والخليج الفارسى وشبه جزيرة العرب من الجنوب . وكانت آشور مخزن محاصيل تلك البقاع لموقعها الجغرافى . وكانت المدينتان العظيمتان : نينوى على دجلة وبابل على الفرات ، تتوليان أكبر التجارات الصادرة والواردة .

ولما هب العرب للاستعمار أظهروا لينا وسماحة مع الأمم كلها . واستعمارهم أشبه بالاستعمار الرومانى واليونانى . وما لبثوا أن منحوا ملاحين من الطليان امتيازا بالاتجار أحرارا فى شواطىء بلاد المغرب ، فكانت تباع فى أفريقية منسوجات نابولى . ثم تحولت تجارة الهند عن طريق بغداد ، وأنشأت تسير توا الى البحر الأحمر ، وأصبحت موانئ المغرب مراكز للملاحة بين مصر واسبانيا . ولم يحدث من الحروب الصليبية غير اضطراب خفيف فى العلائق التجارية ، فأورثت التجارة الأوربية نهضة جديدة أطلعت الغربيين فى الشرق على طرق لم يكونوا يعرفونها . وعقد شارل السادس محالفة تجارية مع تيمورلنك التترى ، وعقد شارل السابع

محالفة تجارية مع سلطان مصر وملوك قرمان وتونس وبجاية وفاس ووهران (١٧) ٠

وكانت مراكب بارة (بارى)(١٨) تسافر الى موانى الشام قبل الحرب الصليبية ، وقد عقد أمراء سالرن ونابولى وجايت وأمالفى فى سنة ٨٧٥م معاهدة مع العرب ، كما عقد صلاح الدين وجمهورية بيزا معاهدة سنة ٥٦٩ ــ ١١٧٢ منح بها البيزانيين عدة امتيازات خاصة بالتقاضى وحصل الفلورنتيون أهل فلورنسة من قايتباى سلطان مصر والشام على عدة امتيازات ، وكانت هاتان المعاهدتان من أوائل ما منحه الأوربيون من الامتيازات الأجنبية فى الشرق ، وعقدت عدة معاهدات مع الملك الأشرف والصليبيين (٦٨٤هـ) والريدراجون صاحب برشلونة ٦٩٢ ٠ وفى كتاب الشروط والعقود السياسية بين ملوك بيسه (بيزا) وفلورنته (فلورنسة) وبين ملوك المسلمين فى تونس والغرب الأقصى أن هذه المعاهدات بدأت من منتصف القرن السادس من الهجرة وكان آخرها فى سنة عشر وتسعمائة ، وملك آزمة التجارة مع الطليان والكتالانيين والبروفانسيين والقبرصيين والرودسيين، وكثر قناصل الدول التجارية من أهل الغرب فى مدن الشرق ، وكثر الاتجار بالرقيق وكان جميع أمم الأرض تتجر بهذه التجارة الممقوتة ، يستخدمون من يسترقونهم آلات للعمل ويمنعون عنهم فى دولة الرومان تعلم القراءة والكتابة ، ولم يكن هذا الصنف المغموط الحق يعامل معاملة حسنة فى الدول الأوربية الحديثة ٠ يقول هيد : وقد حدا حب الربح تجارا من النصارى أن يبيعوا أبناء دينهم بيع الرقيق لتجار من عرب اسبانيا وأفريقية والشام ، فاتخذ شارلمان

والبابا زكريا وأدريانوس الأول الأسباب لمنع هذه التجارة غير المحللة ٠

قام الاسبان ثم الهولنديون يستعمرون بعد البرتغاليين، الا أنهم لم يستعمروا بلاد العرب ، بل وجهوا وجوههم الى أمريكا الجنوبية وسواحل الهند وجزائر جاوة وسومطرة ، ثم قام الفـرنسيس والانجليز بعـد ذلك فوجهـوا وجهتهم الى الشرق ، وكان أول من وصل من الغربيين الى الشرق العربى جيش نابوليون يفتتح مصر فى سنة ١٧٩٨ فاختلط الفرنسيس بالمصريين والمصريون بالفرنسيس ، وكان هؤلاء لم يهبطوا مصر منذ أسر ملكهم سان لوى فى الحملة الصليبية السابعة فى وقعة دمياط والمنصورة ، وقيد وحبس فى دار كاتب الانشاء فخر الدين بن لقمـان ووكل به الطواشى صـبيح المعظمى (٦٤٨هـ) ، ثم افتدى نفسه بثمانمائة ألف دينار وعاد الى بلاده ، فبلغ أمراء مصر أنه أخذ فى الاستعداد ليعود فيملك دمياط ، فكتب اليه الوزير جمال الدين بن مطروح أبيـاتا تنم عن روح العصر وهى قوله :

قل للفرنسيس اذا جئتـه مقال صدق من قؤول فصيح
آجرك الله عـلى ما جرى أفنيت عباد يسـوع المسـيح
أتيت مصرا تبتغى ملكهـا حسب أن الزمر يا طبل ريح
فسـاقك الحـين الى أدهم ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكـل أصـحابك أودعتهم بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسـون ألفا لا ترى منهم غـير قتيـل أو أسـير جريح

وفقـــك الله لأمثالهـــا ... لعـــل عيسى منكم يستريح
ان كان باباكم بذا راضيا ... فرب غش قد أتى من نصيح
فقل لهم ان اضمروا عودة ... لأخذ ثأر أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالهـــا ... والقيد باق والطواشى صبيح



من رجال العرب الذين كان لهم الأثر المحمود فى الأخذ من الحضارة الغربية الأمير فخر الدين المعنى الثانى أمير لبنان، الذى لم تنجب الشام مثله منذ قتل مسلم بن قريش آخر ملوك العرب فى الشام سنة ٤٧٨ هـ ، وكان بعيد النظر واسـع الحيلة يطمح الى اقامة ملك له ، فامتد سلطانه أوائل القرن الحادى عشر من الهجرة الى أنحاء فلسطين ، وملك السـاحل الشامى حتى أنطاكية ، واستولى على عدة حصـون وقلاع ، وخافته الدولة العثمانية فأرسلت عليه حملتين كسر الأولى منهما ، ثم أرسلت عليه الثانية فهـرب الى ايطاليا ، وعهد بالامارة الى ابنه • وكـان منه مدة امارته أن هيأ السـبيل للافرنج بغشيان الديار الشامية ، والاستزادة من متاجرهم مع أهل الساحل ، وتكثير سوادهم فى المدن والموانى ، وأذن لهم بانشاء قنصليات ، وأنشأ خانا كبيرا لتجارهم فى صيدا • وعمر مدينة بيروت وأقام حديقة حيوانات فيها • وفى أيامه دخلت جماعات المرسلين والمبشرين الى لبنان حرة طليقة •

أقام الأمير المعنى فى ايطـاليا أزيد من خمس سـنين تعرف خلالها الى ملوك طسقانه (توسكانيا) من آل ميديسيس فى فلورنسه ، وحالف كوسموس الثانى كبير دوجات طسقانه، وكان استقبله فى لفورنا باحتفال عظيم ، وعقد مع فردينانذ

الأول كبير دوجات طسقانه أيضا محالفة فى سنة ١٠١٧هـ/ ١٦٠٨م ، كان استظهر بأسطول فرديناند الطسقانى لاتقاء الأسطول العثمانى فى ساحل الشام • وقد قلد الأمير اللبنانى أمراء آل ميديسيس فى مدنيتهم ونقل منها الى بلاده ما أمكنه نقله • وصف مؤرخه الصفدى عمران ايطاليا وعادات الطليان وتراتيب حكوماتهم معجبا بها ، وكان الأمير معجبا بها أيضا وعرف الأمير بأنه كان متدينا غير متعصب ، أخذ معه امامه وبنى فى البلدة التى أقام فيها جامعا يصلى فيه وبنى مئذنة • وماتت له ابنة هناك فأبقاها حتى عاد الى لبنان ودفنها فى ربوعه ، وعرض عليه ملك اسبانيا أن يدين بالنصرانية ويتولى مملكة عظيمة أعظم من مملكته فاعتذر بلطف •

وهذا الأمير هو أول أمير عربى انتبه لتفوق الحضارة الغربية الحديثة على الحضارة العربية الأخيرة ، وكانت هذه انحطت وايطاليا أخذت تنهض لتلقف المعارف واحياء الفنون الجميلة من تصوير ونقش وبناء وشعر وفلسفة ، والممالك المجاورة لها تهب الى العلا ، وتخلع ثياب الخمول الماضى ، ولو وفق الأمير فخر الدين المعنى لغير التاريخ العربى ، لما كان عليه من الاستعداد العظيم لادارة الملك والذكاء النادر فى الأخذ من الأمم الأخرى ما ينقص بلاده من أسباب المدنية • فقتلته الدولة العثمانية بأخرة فى الآستانة ١٦٣٥ م وقبره لا يزال فيها ، كما قتلت معظم أولاده الا واحدا وقتلت أخاه وأولاده الا واحدا منهم •

وبدأ تمازج الحضارتين العربية والغربية تمازجا فعليا بكل ما فى التمازج من معنى منذ استولت فرنسا على الجزائر

ثم باحتلال انجلترا مصر ثم باستيلاء فرنسا على تونس واستيلاء ايطاليا على ليبيا واقتسام مراكش بين فرنسا واسبانيا ، فان هذا الاستعمار عرف الشعوب بعضها الى بعض، وأصبح السلطان للمدنية الراقية على شمالى افريقية ومصر، وكانت من قبل تشكو سوء ادارتها فانتظمت أحوالها بالنظم الجديدة على طرائق الغربيين فى بلادهم ، وكانت المنافسة بين الدول المستعمرة الحديثة على التجارة بالرقيق وعلى الأبازير والجواهر أولا ثم أصبحت المنافسة بينهم على اليابسة والبحر وعلى الجو وعلى ما فى بطن الأرض من المعادن •

واشتدت الدول المستعمرة فى تلقين مناحيها ولغتها وأصولها للأمم التى غلبتها على أمرها على اختلاف طرائق استعمارها ، وتمازج الغربى بالشرقى فى الأرض العربية ، وصارت كل دولة غربية تصدر عن رأى نظارة مستعمراتها ونظارة خارجيتها فى معاملة البلاد المستعمرة أو المحتلة ، بطريقة من طرائق التدخل ، وانتشرت الفرنسية والايطالية والاسبانية والانجليزية فى الأقطار العربية ، وحذقها أفراد من العرب حذق أهلها لها ، وانتشرت أساليب تفكير الأمم وأنظمتهم المدنية والتجارية والزراعية ، وبها عرف العرب العالم ، وكانوا غفلوا عن التعرف اليه قرونا ، وأدركوا أن من ذرائع نجاحهم فى العلم والتجارة والسياسة اتقان احدى اللغات الحية الكبرى ، وكثر اختلاط أهل البلاد بجماعات من تجار المستعمرين من الغربيين ومعلميهم ومبشريهم ودعاتهم وأرباب الصحافة منهم ، وكانوا قبل ذلك لا يعرف فريق عن فريق الا ما لا بال له •

واقترب الناس بعضهم من بعض فى البلاد التى اختلطت بالأجانب ، وزالت تلك الجفوة القديمة بين العرب والافرنج، وتقاربت العقليتان الشرقية والغربية ، وسرت عادات الغالبين وأخلاقهم وتراتيبهم الى المغلـوبين ،وقلـدوهم فى كثير من أوضاعهم وأزيائهم ، وزالت الفروق التى كانت ظاهرة كل الظهور منذ قـرن بين المتحضر الحديث والمتحضر القديم ، وتمثلت الطبقة الأولى ما يقربها من الطبقة التى على شاكلتها عنـد الأمم الغربيـــة ، وكان حظ التونسـيين والمصريين والشاميين أجزل من حظ غيرهم فى هذا الشأن ، والسبب فيه أن بلادهم عـامرة ، وقد تأصـلت فيها الحضــارة العربية وتسـلسلت دهرا طـويلا • ولأن فى أرض الشـام مهـد النصرانية واليهودية ، ومنها نشأ المسيح وموسى وكثير من الأنبياء ولأن آثار الفراعنـة والروماـن واليـونان فى مصر والشام تغرى السائحين والعلماء بنزولها للزيارة والبحث • وسنعرض لذلك بتوسع أكثر فى بعض المحاضرات المقبلة •

ورجاء كل عاقل أن ينتج من هذا التعارف بين الشرق والغرب تعاطف جميل ، يكون فيه حظ الأثرة والعدوان أقل من القليـل ، يحترم فيه الضـعيف القـوى ويرحم القوى الضعيف ، فتكون حضارة كل أمة شرقية مشابهة من بعض الوجوه لحضارة الأمة التى تأخذ عنها من أمم الغرب • على أن يحتفظ المتأخر أمام المتقدم بعاداته وأخـلاقه • فمبتدعات المدنية وقف على أى أمة تريدها، وليس فى حسناتها ما يضر، بل الضرر كل الضرر ما يأتى من الوقوف والجمود ، وما وقفت أمة الا تراجعت ، ولا جمدت الا هلكت ، سنة الله فى خلقه •

الهــوامش

(١) خرب الصليبيون القسطنطينية لأن مسيحييها لم يكونوا على مذهب بابا روما أما قتلهم في طريقهم فذاك بالاضافة للطمع في أموالهم اقتناعهم بتحالفهم مع المسلمين ٠

(٢) شارك هذا الامبراطور في الحملة الصليبية الثالثة مع رتشارد قلب الأسد الملك الانجليزي وفيليب الثاني الملك الفرنسي ، لكن بربروسا غرق في نهـر جنـوب آسيا الصغرى (تركيا الحالية) ولم يواصل للشـام ٠

(٣) رأيته عن أمم ــ بفتح الهمزة والميم أي عن قرب ، والأمم القريب اليسير تناوله ــ انظر المعجم الوجيز ٠

(٤) يقصد أن البابوات كانوا هم الذين يوجهون ســياسات أوربا كلها فقادوها للخراب ، ولم يبدأ عصر النهضة الأوربية الا بعـد التخلص من سلطان البابوات على ملوك أوربا ومع هذا شنت القـارة الأوربية حروبا دينية بشـعة أثناء عهد نهضتها الحديثة وبعدها ، أما في الدول الاسلامية فلم يكن هناك (بابا) أو عصبة دينية تفرض آراءها ــ فيما لا تفهم فيه ــ على الحكومات وتحملها ما لا تطيق ٠

(٥) مارتن لوثر (١٤٨٣ ــ ١٥٤٦) راهب ألماني ٠ تزعم حركة الاصلاح الديني في أوربا وحارب أتباعه بابوات روما ٠

(٦) المقصود صكوك الغفران وتعني أن يدفع الفرد للكنيسة مبلغـا من المال مقابل ضمان غفران ذنبه أو ذنوبه ، وبالتالي ضمان مكان له في الفردوس ٠

(٧) الدومنيكان هم احدى الطوائف المسيحية الكاثوليكية ٠

(٨) جاليليو Galileo (١٥٦٤ ــ ١٦٤٢) عالم فلك ايطالي أيد نظرية كوبرنيكس بأن الأرض تدور حول الشمس ٠

(٩) ديكارت ، رينيه (١٥٩٦ ــ ١٦٥٠) مؤسس الفلسفة الحديثة ٠ كان مهتما أيضا بالرياضيات والفيزياء ٠

(١٠) الحرب الزبون أي العتيقة ٠ وفي المعجم الوجيز زبنة زبنا ــ بفتح الزاي وتسكين الباء ــ أي دفعه ورمى به ٠

(١١) المقصود الاهتمام بأمورهم الداخلية ·

(١٢) طرســـــوا على آثارهم أى ألفوا الكتب بينهم · وفى المعجم الوجيز ، طرس الكتاب ـ بتشديد الراء وفتحها ـ جود كتابته · والطرس الصحيفة والجمع طروس ·

(١٣) طبعا هذا تعبير مهذب لكن من الناحية العملية قد تكون المرأة جذابة فتدفع لما هو أكثر من هذا · وقد عرفت بعض شعوب الشرق شيئا كهذا (راجع رحلة فارتيما ـ الحاج يونس المصرى ما يتعلق منها بالهند وشرق آســيا ـ نشر الهيئـة المصرية العامة للكتاب ـ (الألف كتاب الثانى) ولم يكن فى هذا اهانة أو تعـد فى مثل هذه الحضارات ، وانما قد يطلبـه الزوج بنفسـه من طائفـة البراهمـة المقدسين ، أو من الغرباء العابرين ، وأشـار الرحالة بوركهارت لشىء كهذا فى بعض المناطق الدينية النائية ، ومنع هذا الفعل وتحريمه هنا وهناك كان بلا شك من بين التأثيرات الاسلامية ، لكن الشرق عرف نوعا من العقاب الجنسى أو الاذلال بممارسـة الجنس يمارسه المنتصرون على نساء المهزومين ـ وهذا بدوره بدأ يتلاشى مع شيوع القيم الانسانية ، وتأصل الديمقراطية ، والعقاب الجنسى كان أكثر ما يكون وضوحا فى مجتمعات المماليك (العبيد البيض) ·

(١٤) المعروف بهنرى الملاح (١٣٩٤ ـ ١٤٦٠) ·

(١٥) راجع رحلة فاسكو داجاما بقلم ملاح مرافق · سلسلة الألف كتاب الثانى ـ الهيئة المصرية العـامة للكتاب ·

(١٦) فى مواجهة سواحل افريقيا الشرقية ·

(١٧) فى جنوب ايطاليا ·

(١٨) باريس ·

المبحث الرابع

أثر علوم العرب وفنونهم

وما كشفوه واخترعوه

يدين العرب لكثير من خلفـائهم وأمرائهم بالأخـذ من المدنية الفارسية والهندية واليونانية ، وممن كان لهم الفضل الأول فى ذلك : عمر بن عبـد العزيز (١) والمنصـور (٢) والرشـيد (٣) والمأمـون (٤) وخالد بن يزيد (٥) وأولاد موسى بن شاكر (٦) وضرباؤهم ، وما عتم العرب بعـد أن كانوا تلاميذ الأقدمين أن أصبحوا أسـاتيذ فى كل الفنـون التى وجهوا اليها قواهم العقلية ، وزادوا فيهـا أو هذبوا ورتبوا فى أصولها وذيولها . ومن أول ما فكروا فيه علوم الفلك وتقويم البلدان (٧) والرياضيات والطب ، وجاءت الفلسفة بعد ذلك وما أفلحوا فيها كثيرا (٨) .

وفى التاريخ العام : ولا يسع المنصف أن ينكر أن قسط العرب من العلوم كان أعظم من قسط غيرهم ، فلم يكونوا واسطة نقلت الى الشعوب الجاهلة فى أفريقية وآسيا وأوربا اللاتينية معارف الشرق الأدنى والأقصى وصنائعه واختراعاته فحسب ، بل أحسنوا اسـتخدام المـواد المبعثرة التى كانوا يلتقطونها من كل مكان . ومن مجموع هذه المواد المختلفـة التى صبت وتمازجت تمازجا متجانسا ، ابدعوا مدنية حية مطبوعة بطابع قرائحهم وعقولهم ، وهى ذات وحدة خاصـة وصفات فائقة . وقال العلامة درابر : « من موجب الأسف أن الأدب الأوربى حاول أن ينسينا واجباتنـا العلميـة نحـو المسلمين ، فقد حان الوقت الذى ينبغى لنا أن نعرفهم ، فان

قلة الانصاف المبنية على الأحقاد الدينية ، وعــلى العنجهيــة القومية ، لا تدوم أبد الدهر » •

يقول لوبون : « ان تحمس المسلمين فى دراسة الحضارة اليونانية واللاتينية مدهشة حقيقة ، وقد ضاهت العرب(★) شعوب كثيرة ، وربما لم يقم من الشعوب من تقدمهم فى هذه السبيل » وقال توفنر : « ان أوربا قضت قرونا حتى بلغت الغاية التى وصل اليها عرب اسبانيا فى قرن واحد» • وذكر بريس دافن انه بعد سقوط الدولة الرومانيــة لم يكن فى الأرض شعب يستحق أن يعرف غير الشــعب العــربى وذلك لكثرة فحول الرجال الذين نشأوا منه ، ولما أحدثتــه فنــون هذا الشعب وعلومه من التقــدم العجيب فى العــالم قرونا عديدة • لا جرم أن العرب عرفوا صنائع السلم كما عرفوا صناعة الحرب، وخاضوا عباب كل علم وفن بحسب ما ساعدهم محيطهم وبيئتهم •

قلنــا ان من أول العلــوم التى عانــوها علم الأفلاك لعلاقتها بالصلوات ، وذلك لأنه كان من المألوف عندهم وعند غيرهم فى تلك العصور أخذ الطالع من الكواكب • ونشــأ علم الفلك عند العرب من توسع الرياضيين فى الحساب ، لأنهم اخترعوا أساس حساب المثلثات • وحقق العرب طول محيط الأرض بما كان لهم من الأدوات ، وأخذوا ارتفاع القطب ودور كرة الأرض المحيطة بالبر والبحر ، وحققــوا طــول البحر المتوسط الذى قدره بطلميوس بـ(٦٢) درجة فأرجعوه الى (٥٤) أولا ثم الى (٤٢) ، أى الى الصــحيح من مقــداره

(★) بفتح الباء ـ مفعول به •

تقريبا(٩)، فقالوا بكروية الأرض منذ أول سلطانهم. وجمع المأمون بعض حكماء عصره على صنعة الصورة التى نسبت اليه ، ودعيت الصورة المأمونية ، صوروا فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ومساكن الأمم والمدن الى غير ذلك ، وهى أحسن مما تقدمها من جغرافية بطلميوس وجغرافية مارينوس . ووضع له علماء رسم الأرض ـ وكانوا سبعين رجلا من فلاسفة العراق ـ كتابا فى الجغرافية أعان عمال الدولة على معرفة البلاد والأمم التى أظلتها الراية العباسية . والفزارى أول من استعمل الأسطرلاب من العرب ، وهو فلكى المأمون . وأقاموا المراصد الفلكية فى بغداد والرقة ودمشق والقاهرة وسمرقند وقرطبة وفاس ، ونظروا فى المجسطى لبطلميوس فى الفلك .

ويقول العلامة جوتيه : «ان الشريف الادريسى الجغرافى كان أستاذ الجغرافيا الذى علم أوربا هذا العلم، لا بطلميوس. ودام معلما لها مدة ثلاثة قرون ، ولم يكن لأوربا مصور للعالم الا ما رسمه الادريسى ، وهو خلاصة علوم العرب فى هذا الفن . ولم يقع الادريسى فى الاغلاط التى وقع فيها بطلميوس فى هذا الباب . ووصل علماء الجغرافيا منهم الى بلاد لم تطأها من قبل غير أقدامهم وحوافر قوافلهم فى آسيا وأفريقية . ولا تزال بقايا تلك الكتب ، وأكثرها مما طبعه الغربيون وتنافسوا فى الأخذ منه ، شاهدة على تلك الهمة الشماء والعلم الغزير المنقح وانهم كانوا فى فن الجغرافيا مبتدعين لا متبعين، وان كثيرين من علماء الجغرافيا فيهم طافوا العالم قبل أن يدونوا كتبهم فوضعوا ما وضعوا عن عيان ومشاهدة » .

ولقد كشف العرب منابع النيل(١٠) قبل أن يتصدى الافرنج لها ، وقام فى أذهانهم أن فى الأرض أقطارا لم تعرف حتى قال أحد عارفيهم قبــل كولمبس بقرن ونصف : « لا أمنع أن يكون ما انكشف عنه الماء من الأرض من جهتنا منكشفا من الجهة الأخرى ، واذا لم أمنع أن يكون منكشفا من تلك الجهة لا أمنع أن يكون به من الحيوان والنبــات والمعــادن مثــل ما عندنا أو من أنواع وأجناس أخرى » •

وضرب العــرب فى مجــاهل الأرض ومعالمها يتجرون ويبحثون على ما لم يســبق لغيرهم من الأمم ، وكثيرا ما كان ينتهى بعض المــولعين بالطمــوحات من أرباب الرحــلات من الافرنج الى أماكن منزوية عن العالم فى أفريقية وآسيا ، ثم لا يلبثون أن يروا العرب قد سبقوهم اليهــا منـــذ قرون ونشروا بين أهلها دينهم ولسانهم وأنشــأوا فيهــا امارات صغيرة ساروا فيها على آيينهم (أعرافهم) وأوضاعهم •

وكانوا كلما نزلوا أرضا أنشأوا فيها المساكن بل أقاموا المدن وهندسوها ، ومن المدن التى أنشأوها فى الشرق والغرب ما أصبح فى قليل من الزمن أشبه بالعواصم الكبرى ، وكانوا اذا اضطروا الى الغارة على مقاطعة وآكرهتهم الحرب على أن يخربوا بعض عمرانها لدواع حربية ، لا تمضى أعوام قليلة حتى يعيدوها جنات غناء بما فطروا عليه من بعــد الهمــة وسعة الفضل ، ويتعمدون أن يكون ما يعمرون من الأبنيــة الخالدة لا المؤقتة •

وسبقت العرب الى اختراع طريقــة الكتــابة بالحروف البارزة الخاصة بالعميان ، اخترعهــا زين الدين الآمــدى

(٧١٢ هـ ـ ١٣١٢ م) وكان قد فقد بصره فى أول عمره ، فكان كلما اشترى كتابا لخزانته لف ورقة على شكل حرف من الحروف ولصقها فى الكتاب ، وكانت هذه الحروف هى التى يستعين بها على معرفة ثمن الكتاب .

هذا قول بعض العلماء والصحيح أن الحروف البارزة كانت معروفة عند العرب قبل هذا العصر بدليل قول أبى العلاء المعرى :

كأن منجم الأقوام أعمى   لديه الصحف يقرأوها بلمس

وسبقت العرب الأوربيين الى الطيران ، وقد حاوله عباس بن فرناس حكيم الأندلس وهو أول من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة ، وأول من فك الموسيقى ، ووضع الآلة المعروفة بالمثقال ليعرف بها الأوقات ، ومثل فى بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها تمثيلا يخيل للناظر انه حقيقة .

ويأخذ الانسان العجب اذا قرأ فى اللزوميات للمعرى قوله :

ان لم يكن فى سماء فوقنا بشر

فليس فى الأرض أو ما تحتها ملك

وقوله :

ولقد علم المنجم ما يو

جب للدين أن يكون صحيحا

من نجـوم نارية ونجـــوم
ناسبت تربة وماء وريحـا

فيتجلى له أن العرب فى ذلك العصر ارتقوا بعقولهم الى البحث عن وجـود بشر فى الأفلاك ، والى البحث عن عنـاصر الأفلاك وتربتها ٠

وكادوا يعرفون فى الأندلس الجراثيم، وكانت وقايتهم من الأمراض تكاد تشبه وقاية أهل العصور الحديثة عـــلى ما ذكر ذلك ابن خاتمة فى رسالته فى الوباء ٠ وسبقوا الى معرفة مرض النوم وسموه النوام (١١) ، وشرحوا أعراضه ٠ وعرفوا الطباعة فألف أحد الأندلسيين كتابا فى الخواص وصنعة الأمدة وآلة الطبع ، وكان أحد وزراء الناصر الأندلسى من أهل المائة الرابعة « ينفرد بالولايات فتكتب السجلات فى داره ثم يبعثها للطبع فتطبع وتخرج اليه ، فتبعث فى العمال وينفذون على يديه » أى ان الأندلسيين عرفوا الطبع قبـــل مخترعه المشهور جوتنبرج الألمانى بأربعمائة سنة ، ولكن بغير الحروف المنضدة ، وعلموا الغرب صنع الكتاب وعمل ابرة السفينة ، وآلة الظل والمـرايا المحـرقة بالدوائر والمـرايا المحرقة بالمقطوع ، وقطعوا شوطا كبيرا فى الميكانيكيات ٠ ولما بعث الرشيد العباسى الى شارلمان الساعة الدقاقة الكبيرة تعجب منها أهل ديوانه ، ولم يستطيعوا أن يعرفوا صـورة تركيب آلتها على ما حقق ذلك سيديليو ، ومع ذلك لم يكن فى عصر العباسيين أجل من مهنة الفلاحة ٠

أظهر العرب بمهارتهم مزايا فواكه الفرس وأزهار اقليم مازندران (١٢) ، واستقطروا معظم ما فى بلادهم من الزهور والورود ، وكان لهم من صناعة الطيوب والعطور تجارة رابحة • وقد أغنوا العلم ولا سيما علم النبات بمسائل جديدة كثيرة ، ومعظم المستحضرات والأدوية المستعملة كالأشربة والدهون والمراهم والغول (الألكحول) واللعوق والسنامكى والراوند والخيار شنبر (١٣) • وجوز القيء هم الذين كشفوها ، واستلزمت أصول تداويهم أن يعمدوا الى استعمال الفتائل والى الحجامة فى أمراض الصرع واستعمال الماء البارد فى الحمى الدائمة • واتخذ جراحوهم تفتيت حصاة المثانة وقدح العين ، واستخرجوا منها الجريم العدسى الشفاف ، ويظهر أنهم عرفوا البنج • وفى التاريخ العام : وكل هذا المجد فى الطب العربى ان لم يبد لنا بأنهم كانوا فيه أرباب نظريات دقيقة ، فهم على الأقل أرباب ملاحظة عاقلة ، وأرباب تجارب حاذقة ، وأطباء عمل على غاية من المهارة • وكان الرازى وابن جابر أول من وضع أساس الكيمياء الحديثة ، وحاولا كشف الاكسير الذى يهب الحياة ويعيد الشباب ، وكانا يذهبان الى معرفة حجر الفلاسفة الذى يحول المعادن الى ذهب • ولم تذهب هذه الأبحاث الوهمية سدى ، لأنهم عرفوا بها التقطير والتصعيد والتجميد والحل وكشفوا الكحول من المواد السكرية والنشوية الخائرة •

قال جوتيه : « وللعرب فى باب الاختراعات شيء لا بأس به بالنسبة لعصورهم ، وقد وجد فى كتاب عربى قديم لم ينقل الى اللغات الأوربية ان العرب عرفوا طريقة عمل

الجليد الصناعي • ولم تعرف أوربا سر هذه الصناعة الا في النصف الأول من القرن السادس عشر » •

ومضى دهر طويل كان فيه شعوب المملكة العربيــة أول العارفين بالزراعة وأحسن العمال ، وأجرأ التجار في العالم القديم ، وأصبحت الزراعة التي أخذوها عن أساليب بابل والشام ومصر علما حقيقيا للعرب • أخذوا نظرياتهم من الكتب ثم وسعوها بتدقيقاتهم وتجاربهم ، وكانوا يطبقونها بمهارة ليس بعدها مهارة ، وكان رجال الطبقة الأولى منهم لا يستنكفون عن العمل بأيديهم في زراعة الأرض ، بينما كان غيرهم يحتقرها ويعدها عملا مهينا • وجرى في حــكم العادة على عهد استبحار العمران العربي أن يتعلم كل انسان مهما علت منزلته صناعة من الصــنائع المعــروفة أو الصــنائع النفيسة ، يروح بها عن نفسه ساعات الفراغ ويعتاش منها اذا أعوزته الأيام •

ونهض العرب في فارس والأندلس وصقلية وافريقية لاستثمار المعادن ، يستخرجونها من مناجمها ، ويحســنون تطريقها والانتفاع بها ، واستخرج الأندلسيون من مناجمهم الزئبق والتوتيا والحديد والرصاص والفضــة والذهب ، وأخرج الصقليون جميع ما حوت جزيرتهم من معادن ومنها الفضة والذهب ، واستثمر العرب المناجم التي صارت ملكا لهم في بلادهم في الشرق والغرب ، واستخرجوا الحــديد في خراسان والرصاص في كرمان (١٤) والقار والنفط وطينة الأواني الصينية ورخام طوريس والملح الأندراني والكبريت • واستخرج العرب ما في الشام من الحمر والحديد والنحاس

والصفر والزاج والقلى والفوسفات والمغرة والنيكل والكبريت والطفال والبارود القصبى (الصوديوم)، وعنوا كل العناية باستثمار مقالع الأحجار والرخام والمرمر وما كانت عنايتهم قليلة بالحمات والمياه المعدنية ، وعلى هذا جروا فى كل أرض فتحوها فخضعت زمنا لدولتهم الكبيرة ·

قال درابر : « ومن عادة العرب أن يراقبوا ويمتحنوا ، وقد حسبوا الهندسة والعلوم الرياضية وسائط للقياس ، ومما تجدر ملاحظته أنهم لم يستندوا فيما كتبوه فى علم الحيل (الميكانيكيات) والسائلات والبصريات على مجرد النظر ، بل اعتمدوا على المراقبة والامتحان بما كان لديهم من الآلات ، وذلك ما هيأ لهم سبيل ابتداع الكيمياء وقادهم لاختراع أدوات التصفية والتبخير ورفع الأثقال ، ودعاهم الى استعمال الربع والأسطرلاب فى علم الهيئة واستخدام الموازنة فى الكيمياء مما خصوا به دون سواهم ، وهيأ لهم صنع جداول للجاذبية النوعية وعلم الهيئة كالتى اصطنعت فى بغداد والأندلس وسمرقند ، مما فتح لهم باب تحسين عظيم فى قضايا الهندسة وحساب المثلثات واختراع الجبر واستعمال الأرقام العددية فى الحساب · وكان هذا كله من نتائج استعمالهم طريقة الاستدلال والامتحان ، ولم يقرروا فى علم الهيئة لوائح فقط ، بل رسموا خرائط النجوم المنظورة فى فلكهم أيضا ، مطلقين على ذوات القدر الأعظم أسماء عربية لا تزال تتردد على كراتنا الفلكية · وقد عرفوا حجم الأرض بقياس درجة سطحها ، وعينوا الكسوف والخسوف ، ووضعوا للشمس والقمر جداول صحيحة ، وقرروا طول السنة ، وأدركوا الاعتدالين ، ولاحظوا أمورا

بعثت نورا باهرا على نظام العالم ، واختص علمــاء الفلك منهــم باختراع الآلات الفلكية لقيــاس الــوقت بالســاعات المتنوعة • وكانوا السابقين الى استعمال الساعة الرقاصـــة لذلك • وهم الذين أنشأوا في العلوم العملية علم الكيمياء وكشفوا بعض أجزائها المهمــة كحمض الكبريتيك وحمض النتريك (الفضة) «(١٥) والغول ، وهم الذين استخدموا ذلك العلم في المعالجات الطبيــة ، اذ كانوا أول من نشر تركيب الأدوية والمستحضرات المعدنية ، وهم قرروا في الميكانيكيات نواميس سقوط الأجسام ، وكان لهم رأى جلى من جهة طبيعة الجاذبية ، ورأى سديد في القوات الميكانيكية ، واصطنعوا في ثقل الموائع وموازنتها الجداول الأولى للجاذبية النوعية ، وكتبوا مقالات في عوم الأجسام وغرقها في الماء ، وأصلحوا في علم البصريات خطأ اليونان بكون الشــعاع يصــدر من العين ويمس المرئي فيظهره ، وقالوا ان الشــعاع يمس من المرئي للعين • وفهموا مساس انعكاس النور أو انكســاره ، وكشفوا طريق الشعاع المنحني في الهواء ، وبرهنوا عــلى أنا نرى الشمس والقمر قبل الشروق وبعد الغروب • قال : والذى يدهش كثيرا أن نتصور أشياء نفاخر بأنها من مواليد وقتنا ثم لا نلبث أن نراهم سبقونا اليها ، فتعليمنا الحاضر في النشوء والارتقاء كان يدرس في مدارسهم ، وحقا انهم وصلوا به الى الأشياء الآلية وغير الآلية ، فكان المبدأ الرئيسي في الكيمياء عندهم ، والمظهر الطبيعي للأجسام المعدنية» •

ويقول العلامة سنيوبوس : « جرى أمراء العرب عــلى قاعدة رى الأرضــين بفتح الترع ، فحفروا الآبار وجازوا بالمال الكثير من عثروا عــلى ينــابيع جــديدة ، ووضــعوا

المصطلحات لتوزيع المياه بين الجيران ، ونقلوا الى اسبانيا أسلوب النواعير تمتح الماء ، والسواقى التى توزعها ، وان سهل بلنسيه الذى جاء كأنه حديقة واحدة هو من بقايا عمل العرب وعنايتهم بالسقيا • ونظم العرب ديوان المياه الذى كان يرجع اليه فى مسائل الرى ، وكانت طريقتهم فى رى العراق تشبه أعمال الرى فى مصر واستراليا والولايات المتحدة فى عهدنا هذا • واستعملوا جميع أنواع الزراعة التى وجدوها فى مملكتهم وحملوا كثيرا من النباتات الى صقلية واسبانيا وربوها فى أوربا فأحسنوا تربيتها حتى لتظنها متوطنة متبلدة ، وذلك مثل الأرز والزعفران والقنب والمشمش والبرتقال والكباد والنخل والهليون(١٦)والبطيخ الأصفر والعنب والعطر والورد الأزرق والأصفر والياسمين بل القطن والقصب » •

وظفر العرب فى الشام وفارس بصناعات قديمة نقلت الى جميع البلاد الاسلامية فتكملت ومنها نشأت صناعة أوربا الحديثة • وذكر سنيوبوس أنواع هذه البضائع التى نقلوها من الشرق الى الغرب ولا سيما الى الأندلس وقال : عاشت الشعوب فى بلاد العرب الواسعة كما كانت الحال على عهد الرومان من أقصى المملكة الى أقصاها بسلام وراحة ، يتقايضون غلات أرضهم ومصنوعات معاملهم ، ويرحلون الى الهند والصين يبتاعون مصنوعات الأمم الصناعية ليحملوها الى الشعوب البربرية فى أوربا ينقلونها فى البر والبحر • وذكروا أن العرب أحرزوا خصل السبق دون غيرهم فى مضمار التجارة ، ورقوا الصناعة البحرية ، ووضعوا قوانين لحقوق الملاحة ، واقتبسوا استعمال ابرة السفينة من

الصينيين، وضبطوا التجارة بفن مسك الدفاتر أى(★)ضبط، وشرحوا الكفالة ، وأنشأوا المصارف للفقراء ، ووضعوا السفاتج (الكمبيالات) المألوفة وردود التمسك (البروتستو)، وبعثوا الحركة في مصارف الغرب الحديثة • وكانوا حيث نزلوا يمهدون السبل ، ويعمرون المرافىء والفرض ، ويصلحون الفنادق والرباطات ، ويرتبون سير القوافل • وكانت المدن الاسلامية أوساطا تجارية كبرى •

واستخرج علماء العرب من كتب الطب اليونانى الطب التجربى ، وهو طب العقاقير والحبوب ، وأعظم ما غلب على العرب من العلوم علم الكيمياء برعوا به وطبقوه على الزراعة والصناعة ، ولهم المنة على جميع الأمم بأرقامهم العربية(١٧)، وباستنباطهم فن الجبر والمقابلة ، وتهذيبهم الهندسة وأعمالهم الجميلة الفلكية فى أبحاث سمت الشمس ومعادلة الليل والنهار والبقع الشمسية ، وكشف كيماويوهم وأطباؤهم خواص الكحول والنشادر وحمض الأزوت والمياه المعدنية ، وأدخلوا فى كثير من أدويتهم مواد من نبات بلادهم كالكافور والراوند والسنامكى • وهم أسرع الناس لتدوين أنسابهم وملاحمهم وأبطالهم ورواية أشعارهم والكتابة فى فلسفة التاريخ وعلوم الاجتماع • وتوصل العرب الى اثبات تناسب جيوب الأضلاع لجيوب الزوايا المقابلة لها فى أى مثلث كروى ، ووضعوا هذه القاعدة أساسا للطريقة التى سموها الشكل المعين فى حل المثلثات الكروية • وعرفوا حمض الكبريت استخرجوه من الزاج(١٨) بواسطة التقطير،

(★) أى ضبط ـ بتشديد الباء وفتحها ، يعنى أحسن ضبط •

وعرفوا ماء الفضة والقلى ، وطرائق اذابة الذهب وملح النشادر وحجر الكي والسليماني ، وكانوا يطبقون ما كشفوه على الطب والصناعة والحرب ، ويعرفون صنع الصواريخ أخذوا سرها من الروم وعملوا البارود للمدافع وربما كان ذلك قبل الصينيين ، ولكن كان قبل الأوربيين على التحقيق ، فكانت جيوشهم تستعملها منذ القرن الثالث عشر • وعنى العرب بصنع القاشاني ، وغيروا طرائق صنعه وأشكاله ، واشتهرت فى القرون الوسطى الأوانى الزجاجية والمصابيح العربية الملونة التى انتقلت من الشام الى معامل البندقية ونسجت على منوالها ، وكذلك تعلم البنادقة صنع المرايا وكانت تصنع فى صور ، ومن البندقية انتقلت الى أوربا ، ونقل من الشام والعراق الى الأندلس صنع السيوف الدمشقية والثياب على أنواعها ومنها « الدمسكو » نسبة الى دمشق و « الموسلين » نسبة الى الموصل وهو الشفوف ، ثم عرفت هذه الأصناف فى بلاد الغرب •

كان الفلك والرياضيات والعلوم الطبيعية تقرأ فى أوربا فى كتب العرب ، ومن كتبهم فى العلم الطبيعى والرياضى والفلك والكيمياء ما فقد أصله العربى وبقيت ترجمته اللاتينية ، وجميع المادة الطبية التى أخذها الغربيون من العرب بقيت الى القرن السابع عشر هى المعول عليها وحدها • قال سنيوبوس : « ويتعذر الحكم فى تحديد الطرائق التى دخل منها الى أوربا اختراع من اختراعات الشرق ، وفيما اذا كان انتهى الينا من طريق الصليبيين فى فلسطين أو من طريق التجار الايطاليين ، أو جاءنا من عرب صقلية أو من المغاربة فى اسبانيا ،

بيد أن الحساب يمكن تقديره بما نحن مدينون به للعرب ، وان كان هذا الحساب مما يطول شرحه • فقد أتتنا من العرب (أولا) الحنطة والهليون والقنب والكتان والتوت والزعفران والأرز والنخيل والليمون والبرتقال والبن والقطن وقصب السكر • (ثانيا) معظم صناعاتنا فى التزيين كالثياب الدمشقية القطنية والجلد المدبوغ وثياب الحرير المزركشة بالفضة والذهب والشاش الموصلى والشفوف والحبر والمخمل (القطيفة) والورق والسكر وأنواع الحلواء والأشربة ، (ثالثا) مبادىء كثير من علومنا كالجبر وحساب المثلثات والكيمياء والأرقام العربية التى اقتبسها العرب من الهنود (١٩) فسهل بها الحساب مهما كان صعبا • ولقد جمعت العرب وقربت جميع الاختراعات والمعارف المأثورة عن العالم القديم فى الشرق (كيونان وفارس والهند والصين) وهم الذين نقلوها الينا ، ودخل كثير من الألفاظ فى لغتنا ، وهى شاهدة بما نقلناه عنهم ، وبواسطة العرب دخل العالم الغربى الذى كان بربريا فى غمار المدنية ، فاذا كان لأفكارنا وصناعاتنا ارتباط بالقديم ، فان جماع الاختراعات التى تجعل الحياة سهلة لطيفة قد جاءتنا من العرب ، وقد أخذ الأوربيون من العرب صنع الجوخ فى جملة ما أخذوا من الصنائع • وكان أهل بيزا الايطاليون ينزلون مدينة بجاية فى الجزائر ، فتعلموا منها صنع الشمع ومنها نقلوه الى بلادهم والى أوربا » •

وقال سنيوبوس أيضا : «وكان عبدالرحمن الثالث الأموى على اتصال دائم بأمراء اسبانيا وفرنسا وألمانيا وممالك الصقالبة • وكان القصر الملوكى فى طلوزة (تولوز) من

بلاد فرنسا صورة من صور قصور الخلافة فى قرطبة ، يتبارى فيه الشعراء وتقوم فيه للآداب سوق • ولما انتقل أحد أمرائهم لتولى عرش فرنسا سنة (٩٩٩) أدخل ما أخذ عن العـرب تبدلا حقيقيا فى باريس من حيث الأخلاق واللغة • وكان ملوك فرنسا من أهل السلالة الثالثة يقلدون العرب فى كل شىء • وتعلم الفرنسيس أشياء كثيرة فى حملة سان لوى الصليبية التى بقيت عدة سنين فى الشرق ، وفى الحروب الصـليبية تعلم الفرنسيس صنع الورق من دمشق بواسطة أسيرين منهم قضيا زمنا فيها ، فلما عادا الى بلادهما نشرا فيها هذه الصناعة المفيدة • وكان لكثير من ملوك أوربا حرس من العـرب الى عهد قريب ولا سيما ايطاليا وفرنسا » • وذكر سيديليو أن بعض الافرنج زعموا أن العرب لم يعملوا فى تقدم الصنائع شيئا ، مع أنهم على ما قال العارفون برعوا فى جميع الفنون الصناعية ، واشتهروا عند سائر الأمم بأنهم دباغون سباكون جلاءون للأسلحة نساجون أصناف الثياب ماهرون فى الأشغال التى تصنع بالمنقاش والمقراض ، ويؤيد علو كعبهم فى هذه الفنون سيوفهم الباترة ودروعهم الخفيفة الصلبة ، وبسطهم ذات الوبر ، ومنسوجاتهم من الصوف والحـرير والكتان ، وما كشمير هذه الأيام الا نموذجات دالة على تلك الصناعة •

ولئن كانت خزائن الكتب والمخابر (٢٠) والآلات هى مواد التعليم والبحث اللازم ، ولكنهـا على ما قال لوبون ليست الا أدوات ، وقيمتها مناط بالطريقة التى تستعمل لها ، فقد يتلقف المرء علم غيره وهو عاجز عن أن يفكر بنفسه ويوجد شيئا ، وأن يكون تلميذا دون أن يوفق الى أن يصبح أستاذا • أما العرب فبعد أن كانوا تلاميذ سـذجا لأساتذتهم تآليف

اليونان ، أدركوا للحال أن التجربة والملاحظة تساويان أكثر من أحسن الكتب • هذه الحقيقة اليوم معروفة لا يعد العمل بها بدعا ، ولم تكن كذلك فى الدهر السالف • فقد ظل علماء القرون الوسطى يشتغلون ألف سنة قبل أن يدركوها • ينسب الناس الى باكون(٢١) قاعدة التجربة والملاحظة وهما الأصل فى أساس البحث العلمى الحديث، بيد أن الواجب أن يعترف اليوم أن هذه الطريقة كلها هى من مبتدعات العرب • وقال بهذا الرأى جميع العلماء الذين درسوا كتبهم ، ولا سيما هوسبولد • قال : « ان العرب بلغوا فى العلم العملى درجة لم يكن يعرفها أحد من القدماء » •

وقال سيديليو : « وقد اشتهرت مدرسة بغداد فى أول أمرها بفكرتها العلمية حقيقة ، وكان لها التأثير الأكبر فى أعمال العرب ، فساروا من المعلوم الى المجهول ، واستنبطوا أسرار المحسوسات ليرجعوا الأسباب الى مسبباتها ، لا يقبلون الا ما أثبتته التجربة • هذه من الأصول التى لقنها العلماء ، ولقد كان العرب فى القرن التاسع متمكنين من هذه الطريقة الخصيبة التى صارت بعد عند المحدثين أداة استعملوها للوصول الى أجمل ما كشفوه • فكانت التجربة والملاحظة من أسلوب العرب ، ودرس الكتب والاكتفاء بترديد رأى المعلم كانت طريقة أوربا فى القرون الوسطى ، والفرق ظاهر بين الطريقتين ، ولا تقدر طريقة العرب فى العلم حق قدرها الا بالبحث فيها •

ولقد اعتمد العرب على التجارب ، وسبقوا العالم وظلوا على سبقهم زمنا طويلا وعرفوا مكانة هذه الطريقة ، وليس لليونان فى الكيمياء ولا مجرب واحد ، ويعد المجربون

بالمئات عند العـــرب ، وقد أورثت عادة التجربة أعمـــالهم العلمية هذا الوضوح والابداع الذى لا ينتظر أبدا أن يسقط عليهما عند من لم يدرس الظاهرات الا فى الكتب ، ولم يفتهم الابداع الا فى علم استحال عليهم فيه الرجوع الى التجارب وهو علم الفلسفة ، وقادتهم الأساليب التجريبية التى كتب لهم فضل السبق فيهـــا الى كشـــف أمور مهمة وفقـــوا اليها بالضرورة فى ثلاثة أو أربعة قرون ، لم يكتب مثله لليونان فى زمن أطـــــول من زمنهم بكثير ، وهذه الذخيرة فى العلم الماضى التى انتقلت الى اليونان قبلهم ، ولم يستخرجوا منها كبير أمر منذ أحقاب ، نقلها العرب برمتها مبدلة الى أخلافهم ، ولم يقف عمل العـــرب عند تثمير العلم بمـــا أوجدوه ، بل نشروه بواسطة جامعاتهم وكتبهم ، فالتأثير الذىأثروه من هذا النظر فى أوربا كان عظيما فى الحقيقة ، وكانوا خلال عدة قرون أساتيذ متفردين عرفتهم الأمم النصرانيـــة ، واليهم يرجع الفضل فى معرفتنا المدنيتين اليونانيـــة واللاتينية ، وفى العهد الحديث فقط تجرد تعليم جامعاتنا من الاعتماد على تراجم كتب العرب وكف العرب عن الأخذ بواسطتهم» .

وللعرب فى باب الهندسة الابداع الذى أقرهم عليه كل عارف ، ولم ينازعهم فيه منازع ، ولم يخترع العرب أبنيـــة خاصة بهم ، بل تجلى فى هندستهم حبهم للزخرف واللطف ، واخترعوا القوس المقنطر ، ورسم البيكارين وجعل تفننهم فى هندسة القباب والسقوف والمعرشات من الأشجار لجوامعهم وقصورهم بهجة لا يبلى على الدهر جديدها ، ودلت كل الدلالة عـــلى ايغـــالهم فى حب النقـــوش والزينـــة ، كأن أبنيتهـــم ومصـــانعهم هى برود من أكسية الشرق تفنن حائكهـــا فى

رقشها ونقشها كما قال أحد العارفين من الافرنج • وعقد لوبون فصلا في تأثير العرب في الصنائع ولا سيما في الهندسة في الغرب فقال : « ربما ادعى بعضهم أن الهندسة القوطية مأخوذة عن العرب وهذا وهم ، فاننا اذا قابلنا بين كاتدرائية قوطية من القرنين الثالث عشر والرابع عشر وبين مسجد من ذينك القرنين نجد اختلافا بينا بين الهندستين • ولما كانت الفنـــون تعبر عن حاجات عصر وعواطف أهله ، اختلفت هندسة الغرب عن الهندسة العربية في الشرق • وقد أخذت أوربا من العرب أشياء في الزينة ووجدت على بعض البيع في فرنسا صور حروف عربية منحوتة في الحجر ، وأكاليل على بعض الحصون تشبه الطراز العربي ، وكثير من كنائس فرنسا تأثرت بالهندسة العربية ولا سيما في المدن التي كان لها علائق كثيرة مع الشرق • وقد جلب الصليبيون من الشرق أصول هندسة بيت المؤذن في المنارات والمشربيات والمعرقات والمراصد في الأبراج والزغاليل والمحارس الناتئة والأفاريز ذات الدرابزين ، واستخدمت فرنســـا كثيرا من مهندسي الأجانب وكان فيهم العرب ، حتى ان كنيسة نوتردام دي باري المشهورة في عاصمة فرنسا عمل فيها مهندسون من العرب •

أما تأثير العرب في هندســة اسبانيا ، فظاهر ظهـــور الشمس والقمر » ، الى أن قال : « قد ينقرض شعب وتحرق كتبه وتهدم مصانعه ، ولكن التأثير الذي أثره يقاوم أكثر مما يقاوم الصلب ، وليس للطاقة البشرية أن تأتي عليه ، والقرون قد تفغل في القضاء عليه أكثر من ذلك » •

وقال أيضا : ان من ألقى نظرة على المساجد والقصور ، وعلى غيرها من الآثار العربية من منقولها وغيـر منقولهـا ،

يشهد أنها نسجت على غير مثال ، وأن الابداع فيهــا ظاهر محسوس ، واذا رجعنا الى أوائل عهد المدنية العربيــة وهى فى أوجها ، نجد التقليد للصنائع الفارسية والرومية ظاهرا فيها ، وكل شعب يقتبس عمن سبقه صنائعه ، وهذا يصــدق على كل الأمم ، وكان الناس الى عهــد قريب يعتقــدون أن الفنون اليونانية قامت على غير مثال • فالعــرب واليــونان والرومان والفينيقيون والاسرائيليون وغيرهم أو جميع الأمم قد انتفعت من الماضى ، وكل شعب آخذ عن غــيره وزاد من عنده ما وسعته الزيادة ، ولذا لا ينبغى أن يبعد الناس فى مزاعمهم أن العرب لم يكن لهم فن فيه ابداع ، لأنهم اقتبسوا الأصول الأولى من أعمالهم عن الأمم التى تقدمتهم ، ويعرف الابداع الحقيقى فى آمة من السرعة التى بها تحول المــواد التى بين أيديها فتجعلها وفق حاجتها وتنشىء فنا جديدا • وما من شعب فاق العرب فى هذا الباب ، فان فكر الايجاد عندهم قد تجلى فى مصانعهم الأولى مثل مسجد قرطبة ، ولــم يلبثوا أن ألقوا فى روع المفننين الأجانب أنهم كانوا يعمدون الى طرائق جديدة فيها كل الحذق والمهارة • فقد كانت سوارى المعــابد القــديمة التى بين أيدى العــرب من القصر بحيث لا تتناسب مع عظمة الأبنية واتساعها ، فقاموا هم ينشئون فى أسفلها قواعد وغطوها بقنــاطر وضعت عــلى غاية من الدقة • ولو كان الترك مكان العرب ما كان خطر لعقولهم الغليظة مثل هذا الفكر (٢٢) • وكان من أمر الشعوب التى خلفت العرب فى البلاد التى خضعت لسلطانهم أن رأوا مصانع قديمــة ســبقت العرب فما اســتطاعوا أن يدبروها تدبيرا جديدا ، فظل التقليد باديا فى أصولها وفروعها • أما فى

المصانع العربية كقصور اسبانيا وجوامع القاهرة ، فان المواد الأصلية قد استحالت الى ترتيبات بلغ من جدتها أن يتعذر القول من أين جاءت ٠

وقال ، ان من ألقى نظرة على الأعمال الأدبية والفنية التى تمت على أيدى العرب ، يتجلى له أنهم حاولوا أبدا أن يزينوا الطبيعة ، وطابعهم الذى يبدو فى الفن العربى هو التخيل والبهاء والضياء والتزيد فى الزينة والأناقة ٠ فالعرب عنصر شعر ،وأى شاعر لا ينطوى على متفنن ، اغتنوا بحيث تم لهم تحقيق جميع هذه الأحلام ، فأولدوا هذه القصور البديعة التى تبدو للعيان كأنها تضاريس من الرخام المرصع بالذهب والأحجار الثمينة ٠ وما من شعب حاز مثل هذه العجائب ، وما من شعب سيدانيهم فى الأخذ بطرائقها ، ومن العبث أن نتطلب مضاهاتها من الدور الذى دخلت فيه الإنسانية اليوم ، فأصبحت لا تعرف من الصنائع الا المبتذلة والمقصود منها النفع فقط وهى شاحبة باردة ٠

وقال ميجون : « لا ننكر على العرب أن لهم الحظ الأوفر من هذه المدنية وهم واضعو أسسها ، وقد أفرغوا هذه العناصر المختلفة فى قالب متجانس فأوجدوا منها مدنية مطبوعة بطابع عظمتهم مشعرة بسلامة ذوقهم ، ولم يمض قرن على فتوح العرب وبسط سلطانهم على الشرق وأفريقية الشمالية واسبانيا حتى تبدل النظام الاجتماعى فى البلاد المغلوبة ، وحل محله دين وادارة وعادات وأخلاق جديدة ٠ وهكذا يقال فى صناعاتهم وفنونهم وكثير من احتياجاتهم ٠ وان توحيد تلك البلاد من بحر الظلمات (المحيط الأطلنطى)

الى المحيط الهندى ، واخضاعها لسلطان واحد ونظام شامل ، والعناية بالجندية واقبال المسلمين على أداء فريضة الحج ، كل ذلك سهل سبل التعارف بين المؤمنين ، وجعل كل واحد منهم يحمل الى بلاده ما استحسنه فى البلدان الأخرى. ولذلك رأينا التأثيرات الشرقية فى أقدم بناء اسلامى فى الغرب كالجامع الكبير فى قرطبة وجامع سيدى عقبة فى القيروان مغربية بطرز بنائها شرقية بزخارفها » .

وذكر مركيه فى كتابه الفن والتاريخ : «ان العرب ورثوا فيما ورثوا عن الأمم التى دخلت فى سلطانهم الفنون والصنائع ، وأخذوا يحذقونها ويبرعون فيها فى مدارس المورثين ، اذ لم يكن فى استطاعتهم أن يرتجلوا فنا كما ارتجلوا لهم ملكا . ومع ذلك لم يمض زمن طويل حتى نبغ فيهم البناءون والحفارون والمصورون والنقاشون ، دون أن يروا فى شىء من ذلك مخالفة لنصوص كتابهم ، أو معارضة لشريعة نبيهم . ولم يقفوا عند حد الحذق والبراعة ، بل تعدوه الى التفنن والابداع ، فنقحوا وصححوا وحذفوا وأضافوا ثم اخترعوا وابتكروا حتى طبعوا تلك الفنون بالطابع العربى ، وصبغوها بالصبغة الاسلامية ، حرصا على شخصيتهم أن تفنى ، وعلى نبوغهم وعبقريتهم أن يذهبا ، فأصبح الروح العربى بارزا واضحا يندمج فيه غيره ، ولا يندمج فى شىء ، ولهذا خلقت العرب لها فنا يوافق ذوقها ويسير مع طبعها ، وسرعان ما انتشر فى أرجاء تلك المملكة الواسعة انتشار الكهرباء » . قالوا وقد خضعت الفنون الاسلامية لنواميس الطبيعة الاقليمية فاصطبغت فى كل قطر بصبغته الخاصة وكانت فى عامة أحوالها من أندلسى

ومغربى وصقلى ومصرى وشامى وعراقى وفارسى وهندى ومغولى ، اسلامية أصلية كريمة نبيلة تنطق بما للاسلام من اباء ونجدة وشهامة ونخوة ... الخ .

هذا يا سادتى ما لقنه العرب ولقفوه ، بل هذا مجمل ما اخترعوه وكشفوه ، استفادوا منه وآفادوا أهل المدنية الحديثة . عملوا فيه وحدهم بعقولهم وتجاريبهم ، وتواضعوا على ما لم تشاركهم فيه آمة . (انتهى ملخصا من كتابنا الاسلام والحضارة العربية) . وبعد ، فاذا كانت للعرب عناية فائقة بعلوم الطب والتشريح والاقرباذين وعلوم النبات والحيوان والبيطرة والبيزرة وآحكام النجوم والطلسمات والسيمياء والكيمياء والفلاحة والملاحة والهندسة وعقود الأبنية والمناظر والمرايا المحرقة ومراكز الأثقال وانباط المياه والبنكامات والآلات الحربية والزيجات والتقاويم والمواقيت والأرصاد وتسطيح الكرة والآلات الظلية والحساب المفتوح وحساب التخت والميل والجبر والمقابلة وحساب الخطأين ، الى آخر العلوم التى أفردوها بالتأليف وتوفروا على خدمتها، فان لهم فى فروع أخرى من علوم الحضارة ما لا يخطر بالخاطر انهم سبقوا ووضعوا فيه نتائج تجاربهم ، فلهم فى فن الطبخ والأطعمة والمزورات وتدبير المنزل والمدينة تآليف جميلة ، وفى علم العرافة والقيافة والريانة والفراسة واستحضار الأرواح والقرانات وقلع الآثار الى غير ذلك مما عالجوه من الموضوعات وجعلوه علوما قائمة برأسها ، ما دلوا

به على أن هواهم بعلوم الدنيا وازى هواهم بعلوم الآخرة ·
ولولا أن ضاعت كتبهم فلم ينته الينا منهـا غير نحو عشرها ،
لوقفنا من علومهم وفنونهم عـلى أكثر مما وقفنـا · وكان
الفضل فى الانتفاع ببقايا فضلهم لوارثى مجدهم العلمى أهل
المدنيات الحديثة ·

الهـــوامش

(١) عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى المعروف بخامس الراشـدين • توفى ١٠١هـ/٧٢٠م •

(٢) أبو جعفر المنصور ، الخليفة العباسى ١٣٦ ـ ١٥٨هـ / ٧٥٤ ـ ٧٧٥ م •

(٣) هارون الرشيد بن محمد المهدى بن المنصور العباسى ١٤٩ ـ ١٩٣ هـ /٧٦٦ ـ ٨٠٩ م •

(٤) المأمون هو عبد الله بن هارون الرشيد • لقبـه أبوه المأمون ١٧٠ ـ ٢١٨ هـ / ٧٨٦ ـ ٨٣٢ م •

(٥) خالد بن يزيد بن معـاوية الأموى • توفى ٨٥هـ / ٧٠٤م تعـلم الكيمياء والطب • أمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونان لنقل الكتب الى العربية •

(٦) موسى بن شاكر (توفى ٢٠٠هـ/٨١٥م) هو والد المهندسين الثلاثة المعروفين ببنى موسى • تعـلم موسى التنجيم وهيئة الافلاك وعلم أولاده فأحسن تعليمهم ، فعملوا جميعـا فى بيت الحكمة فى بغداد •

(٧) تقويم البلدان تحديد موقعها بالذات وذكر شيء عن سكانها وصناعاتها •• الخ •

(٨) يقصد المؤلف الفرع المعروف بالميتافيزيقا أو مـا وراء الطبيعـة وبالتحـديد الالهيات ، وهذه خاض فيها علماء الكلام فترة طويلة ، لكن أهل السنة أثبتوا أن هذا تضييع وقت ، وأن الأفضل فيما يتعلق بذات الله وصفاته الرجوع لنص القرآن الكريم والحديث النبوى ، لأن هذه المسائل يستحيل اثباتها أو انكارها بالمشاهدة والملاحظة والتجربة ، أما ان كان المقصود هو التفكير المنطقى وأصول التفكير عموما ، فقد كان ذلك كامنا فى العلوم الأخرى التى نبغ المسلمون فيها •

(٩) يقصد درجة من درجات خطوط الطول •

(١٠) هذا غير مؤكد ، وان كانوا بالتأكيد قد عرفوا البحيرات الأفريقية العظمى من خلال توغلهم فى شرق افريقيا ؛ لكنهم لم يربطوا بينها وبين مجرى النيل •

(١١) المرض الذى تسببه الذبابة المعروفة باسم تسى تسى tse tse .

(١٢) مازندران جنوب بحر الخزر (قزوين) فى ايران الحالية • خريطة ١٠٩ / معجم التاريخ الاسلامى لمؤنس •

(١٣) خيـار شـنبر Cassia Fistula أو خرنوب هندى • يستعمل لب ثماره لاحداث الاسهال • معجم الشهابى لمصطلحات العلوم الزراعية •

(١٤) كرمان ـ بكسر الكاف ـ الى الغرب والشمال الغربى من مكران شمال خليج عمان ، فى ايران الحالية • انظر خريطة ١٢٠ من أطلس تاريخ الاسلام لحسين مؤنس •

(١٥) رمزه الكيميائى $H\ NO_3$ وهو ليس الفضة •

(١٦) الهليون Asporagus, Sparrow grass نبات من الفصيلة الزنبقية للتزيين ومنه نوع يؤكل •

(١٧) هى الأرقام... 1, 2, 3, 4, 5 المعروفة فى أوربا حتى اليـوم بالأرقام العربيـة Arabic numbers • أما الأرقام التى نكتبها نحن : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ••• فهى الأرقام الهندية •

(١٨) الزاج هو كبريتات الحديدوز $Fe\ SO_4 \cdot 7\ H_2O$ وهو نفسه التوتيا الخضراء •

(١٩) يخلط المؤلف هنا ، فالأرقام العربية 1, 2, 3, 4 هى أرقام عربية أصيلة وهى قائمة على عدد الزوايا هكذا : **1** واحد أى زاوية واحدة ، **2** اثنان أى زاويتان و **3** أى ثلاث زوايا و **4** أى أربع زوايا و **5** أى خمس زوايا و **6** أى ست زوايا و **7** أى سبع زوايا و **8** أى ثمانى زوايا و **9** أى تسع زوايا •

(٢٠) المخابر أى المختبرات أو المعـامل •

(٢١) باكون أو بيكون ، فرنسيس (١٥٦١ ـ ١٦٢٦) أحد رواد العـلم التجريبى الحديث القائم على المشاهدة والملاحظة والتجربة •

(٢٢) راجع المقدمة ، وقد أنشأ العثمانيون انشاءات عظيمة خاصة فى الأناضول ، وكان لهم اسـهام كبير فى الحضارة باجماع المؤرخين الغربيين ، وكانت أوربا لفترة من الزمن تكن كراهية شديدة للعثمانيين فاتحى القسطنطينيـة ، وغـزاة شرق أوربا ، والمهيمنين على البحر المتوسط •

المبحث الخامس

أثر المدنية الغربية فى البلاد العربية

طلع القرن(★) الماضى(★★) وليس فى البلاد العربية من يفكر فى شىء اسمه حضارة (١) ، وغاية ما فيها آثار بالية من مدنية قديمة ، يظنها أهل البلاد كل شىء وما هى به • انقطع سند العلوم ، وبطل اعمال الفكر ، وهجعت القرائح، حتى لتظنها ميتة ، وأصبح ما يقال له علم صبابة من فروع علم الدين واللسان ، والناس فى غفلة عن الغرب لا يعرفون ما أتاه فى نهضته • ضعف فى البلاد العربية كل مظهر من مظاهر القوة فى الأمم ، وأصبح العرب من الجهل بمقومات الحياة فى حالة مبكية • وكأن نسبة الترقى عند أهل الغرب فى تلك الأحقاب ، كانت على مقدار التدلى فى كل شأن فى البلاد العربية •

وبحسبكم أنه لم يبق فى القرنين السابقين على قرن النهضة العربية ، وهو القرن الماضى (★★★) ، رجل يذكر فى باب الهندسة والتصوير والنقش والشعر والانشاء والخطابة والفلك والكيمياء والطب ، ومعظم من يذكرهم المؤرخون ضعاف فى فنهم • أصبح كل علم وفن وعمل الى التدجيل والتفاهة ، واستحكمت حلقات الجمود فى العقول ،

(★) مقتبس باختصار من كتاب للمؤلف طبع مؤخرا اسماه « الاسلام والحضارة العربية » •

(★★) القرن التاسع عشر •

(★★★) تناقض مع ما ورد آنفا •

وشغل الناس عن الجد بالهزل والفضول ، ولا شأن المؤلفين الا أن ينسخوا ويمسخوا ويسلخوا ويعدون ذلك علما وفنا . وسقط اعتبار المتفننين والمتشاعرين الى الدرك الأسفل من المهانة .

وبينما كانت البلاد متدهورة فى أعماق هذا الانحطاط ، جاء نابليون بونابرت في أواخر القرن الثامن عشر ، يفتح مصر ويحمل في جملة ما يحمله من العدد (بضم العين) والعدد (بفتح العين) ، طائفة من علماء فرنسا ونوابغها في الرياضيات والهندسة والطب والجغرافيا والفلك والأدب والكيمياء والاقتصاد السياسي والآثار والمعادن ، وطبقات الأرض والحيوان والنبات وفن المعمار وهندسة الرى والقناطر والجسور والميكانيكا ، وزمرة من رجال الفنون من المصورين والرسامين والموسيقاريين والنقاشين والمثالين عددهم (١٤٦) عالما متفننا . وألف فى مدينة القاهرة مجمعا للعلوم والفنون يرمى الى تقدم العلوم والمعارف في مصر ، ودراسة المسائل والأبحاث الطبيعية والصناعية والتاريخية . وأنشأ فى المجمع مكتبة تحوى أنفس الكتب التى أحضرت من فرنسا ، أو جمعت من خزائن الكتب فى مصر ، وأنشأوا به معملا للطبيعة والكيمياء وجهزوه بالآلات والأدوات الخاصة بدراسة العلوم الطبيعية والرياضية ، وأخذوا يجوبون البلاد فاكتشفوا الآثار وأزاحوا الستار عن عظمة مصر القديمة ، ورسموا خرائط مفصلة للبلاد ونيلها وترعها وسواحلها ، وبحثوا فى طبائع الحيوانات والنباتات والمعادن ، ودرسوا مياه النيل وطميه وطبقات الأرض ، وجابوا الواحات والبحيرات ، وأنشأوا فى

القاهرة مطبعة اخذت تطبع منشورات نابليون العربية وجريدة الكوريبه ديجيبت والديكاد ، وبعض المطبوعات العربية والفرنسية • فأبقى هذا العمل العلمي الذى قام به رجال البعثة العلمية من بحث وفحص وتأليف وتصوير الى اليوم أثرا علميا باهرا ، تطأطىء أمامه الرؤوس اكبارا واجلالا •

كان احتكاك المصريين بالفرنسيس أول احتكاك فعلى مع الافرنج فى الأرض العربية ، وممن كانوا فى طليعة المستفيدين مؤرخ مصر فى تلك الحقبة الشيخ عبد الرحمن الجبرتى ، وعالم آخر اسمه الشيخ حسن العطار ، وهو الذى تولى مشيخة الأزهر بعد حين ، وألف فى الفلك والطبيعيات والرياضيات • فان هذين الشيخين وأمثالهما علما بعض علماء حملة نابليون اللغة العربية وغيرها وتعلما منهم ما لم يكن لهما به عهد من العلوم المادية • واختلط رجال الادارة والسياسة من أهل مصر برجال الحملة ، ونشأ بين الفريقين تعارف • وهكذا عرفت المدنية الفرنسية فى هذا الشرق القريب ، وظلت وارفة الظلال فى بلاد الفراعنة •

وتولى مصر محمد على الكبير واليها منذ سنة ١٨٠٥ م فأوحى اليه ذكاؤه النادر أن يقتبس النظم الادارية الحديثة ، وكان مولعا بتمدين مصر فأحضر من مختلف بلاد أوربا أساتذة وأطباء وصيادلة ومعلمين ، شيدوا فى أماكن اختيرت أحسن اختيار تلك المدارس والمستشفيات فى القطر المصرى و « شعر على أميته بأن الملك لا يشيد الا على أمتن أساس من العلم ، وأن العلم الذى تدعم به الممالك ليس هو الذى يسمونه

علما فى الشرق ، انما هو الذى قامت به المدنيـة الغربيـة وشيدت عليه صرح عليائها وقوتها ، فأقرت لها الأمم بالغلبة ووقفت أمامها صاغرة ذليلة » •

بدأ والى مصر منذ سنة ١٨١٣ م يرسل الطلبة المصريين الى أوربا ، وصرف عليهم من سـنة ١٨٢٦ م الى ١٨٤٧ (٣٠٣٣٦٠) جنيها • وغدا معظم الطلبة الذين تخرجوا بأساتذة الغرب من دعائم النهضة التى تم على يدها انشاء مصر الحديثة • وأسس أول مدرسة للهندسة فى سنة (١٢٣١هـ/١٨١٦م) ، ثم أسس مدرسة الطب (١٢٤٢هـ/ ١٨٢٧م) وكان الكولونيل سيف الفرنسى ، الذى دان بعد بالاسلام وسمى سليمان باشا (١٨١٩) هو الذى نظم الجيش المصرى وبعد مدة أنشأ ماريت باشا متحف بولاق • ودام علم الفرنسيس يفيض على مصر مدة حكم محمد على وأسرته • ولو أحصى ما كتبه علماؤهم فى مصر من الأسفار، وما رسموا لها من الآثار والمصورات والخطط لبلغ خزانة كبرى ، ولا تزال هذه التحفة العظيمة الى اليوم مرجع الدارسين والباحثين •

قال الدكتور عثمان غالب باشا من علماء مصر الذين شاهدوا تلك الحركة العلمية فى ابانها ، ثم شاهدوها فى انحطاطها وحضروها فى تجددها : « ان أكثر أساتذة المدارس التى أنشئت فى مصر على عهد نهضتها الأولى كانوا من الفرنسيس المستعمرين • يكتب الأستاذ درسه بالفرنسية والمترجم معه ينقله الى العربية فيتلى على الطلبة بلغتهم ، دام ذلك من سنة ١٨٣٠ الى سنة ١٨٧٤ » وقد كتب فيها

الأســتاذ بروجر الفــرنسى رئيس مدرســة الطب والولادة والصيدلة والمستشفيات المصرية الى خــديو مصر فى عهــده يقول له فى تقريره السنوى : « ان الوقت قد حان لأن تكون وظائف التدريس كلها بيد المصريين، اذ قد أصبح منهم الكفاة الآن وأن مهمة فرنسا فى تربية أبناء مصر فى هذه الفروع العلمية قد انتهت أو كادت » ٠

لولا عمل محمد على فى تمدينه مصر لأشرفت حتى اللغة العربية على التلف ، على الرغم من وجود جامع الأزهر فيهــا منذ قرون ، لأن الأزهر ما كان يعنى بغير المسائل الدينية ، واللغة تنقرض اذا لم تكن لغة علم ، وهذا ما حاول محمــد على أن يعمله فوفق اليه ، وظهرت تباشير اصلاحه بعد عشر سنين من البداءة به ٠ وكان من محمد على وطريقته المبتكرة فى التمدين الذى اقبسه نبهاء أولاد مصر كل ما قرب الأمة المصرية من المدنية الغربية ، وكان وادى النيل بجميل صنعه المثال الحى الذى دل به العربى بصورة محســوسة عــلى أن ليس فى دينه ما يحول بينه وبين المدنية ، وأنه حفيد أولئك الفاتحين العالمين ان نامت فيه زمنا جراثيم النهوض ، تدب فيها الحياة عند أقل محرك لهــا ٠ وفى مصر أنشــئت أول مدرسة لتعليم البنات سنة ١٨٧٣ م على عهد اسماعيل الذى آخذ من مدنية الغرب بالكبير والصغير ، وفاخــر بأن بلاده أصــبحت قطعــة من أوربا أى بتمدنهــا ٠ وكان الخــديو اسماعيل يشــبه محمــد عــلى كثيرا ويعنى بالتعليم عنــاية خاصـــة ٠

كان من احتلال نابليون ، ومعه ذلك الرعيل الجميل من علماء آمته فى مصر ، ثم من استيلاء محمد على عليها وسعيه

الحثيث في ادخال الحضارة الغربية مبدأ كل نور في الشرق العربي ، استفادت منه البلاد المجاورة بحكم الطبيعة ، ولا سيما أبناء الشام فان منهم من درسوا في مدارس مصر وتمصروا فخدموا البلاد التي هذبتهم ، ومنهم من نقلوا قليلا من النور الى بلادهم ، واستفاضت أخبار النهضة المصرية في البلاد المجاورة ، فأنشأت تأخذ عنها ما وسعها أخذه :

فمصر اذن هي التي بدأت تقتبس بفضل صاحبها محمد على من نور العلم الصحيح ، ومصر أدخلها الغربيون في دور ارتقاء لم يسبق له مثيل فما عصت على قبول مدنيتهم ، ومصر هي التي جسرت في عهد الانحطاط على الجمع بين علوم الدين والدنيا . فتخت لكل منها طريقا أمينا لا يدخل الوهن منه على صاحبه ، ومصر هي التي ظهرت فيها آثار المعارف قبل أمها الدولة العثمانية ، حتى لقد حسدتها هذه في تلك الأيام وودت لو يكون لها مثل ما لولايتها بالأمس شيء من مظاهر العلم والتمدين . هذا مع أن المصريين كانوا في نظرها فلاحين أفريقيين ، وهي في قارة أوربا ووارثة مملكة بيزنطية . مصر أثبتت استعداد الأمة للأخذ بأساليب الارتقاء من دون جلبة ، وانها كانت كل ساعة مستعدة لقبول الخير لا تسأل عن مصدره ومصدره (بضم الميم وتشديد مع كسر الدال) :

وكان للغرب في هذا الشرق منذ زمن بعيد رهبان ومبشرون ، ولا سيما في الأرض المقدسة من فلسطين ، وفي جبل لبنان من الساحل الشامي ، يعلمون بعض أبناء طوائفهم مبادىء العلوم باللغة القومية مع احدى اللغات الغربية ،

وفيهم الايطالى والفرنسى والأمريكى واليـونانى والروسى والاسبانى والنمساوى والأسكتلندى وغيرهم ، وزادت صلات الطوائف البابوية فى الشام مع روما ، ولا سيما فى القرن السادس عشر يوم أسست للموارنة فى عاصـمة النصرانية مدرسة يتخرج فيها خـدمة الدين فى العلوم ، وكثر توافد الانجيليين منذ سنة ١٨٣٨ للدعوة الى البروتستانتية ، وأسسوا مطبعة عربية كانت لهم فى مالطة أولا يطبعون عليها الأناجيل بلغات مختلفة لنشرها فى المشرق ، ثم تبعهم اليسوعيون من الطوائف الكاثوليكية ينشـئون مطبعة لهـم ، وجعـل دعاة البروتستانتية والكثلكة من ثغر بيروت وما فى ضواحيه مثل عبيه وعين طورا رأس حركاتهم الدينية والعلمية فى الشرق القريب ، يتنافسون ويقيمون المـدارس العاليـة والثانوية والابتدائية للذكور والاناث ، وبعد أن كانت بيروت أشـبه بقرية سكانها بضعة آلاف فقط ، أصبحت مدينة علم كبيرة يقصدها المتعلمون من القاصية ، على نحو ما كانت اشتهرت أواخر عهد الرومان بمدرسة الفقه ، تخرج قضاة للمملكة الرومانية • وزاد امتزاج العرب بالغربيين ، وعرف العرب أن أهل أوربا يفوقونهم فى مقومات العمران ، وأخذ الناس يدركون نقصهم ، ويسعون جهدهم نحـو الكمال ، ليقلدوا فى منـازعهم من تقدموهم قرونا فى مضمار الحضارة •

انا لا نقول بدعا ، ولا ندل على مجهول ، اذا سجلنا أن أكثر ما فى معظم بلاد العرب من أمارات النهـوض هـو من حسنات الغرب عليها • فقد كانت فرنسـا أواخـر القرن الثامن عشر مهد الاصلاح الاجتماعى ، نشأت منها مساواة عامة الناس أمام القانون ، واشتراكهم فى الحقوق والواجبات

المدنية والسياسية ، وتمتع الانسان بحرية العمل والصناعة وحرية الدين والفكر • أى أن فرنسا نشرت حقوق الانسان والحقوق الأساسية فى سياسة البلدان ، فأخذت عنها معظم بلاد الغرب • وعن الفرنسيس أخذ العرب هذه الأصول ، وان لم يستطيعوا لمكان السياسة فى بلادهم أن يطبقوها بحذافيرها • ومن الغرب تعلمنا معنى الوطن والوطنية ، وحب الجنس والقومية • وهذا شىء جديد لم يعهد للعرب مثله ، بعد أن ذاق الناس الأمرين من ظلم الملوك ومن داناهم ووالاهم قرونا طويلة ، ولم يقدروا أن يغيروا أوضاعهم، بل ما وسعهم التفكير فى مثل هذا التغيير ، أو فى شىء يماثله لقيام أمر الجماعة ، واسترجاع الحقوق المضاعة •

كان الناس فى ديارنا قبل أن نتقبل خطى الغرب فى حضارته ، يعيش الفرد منهم لنفسه ، فأصبحوا يوقنون اليوم أن بقاءهم مناط بتضامنهم وتكاتفهم، وأن الشعب يقوى على املاء ارادته ، اذا كانت مادياته سليمة موفورة ، وبقدر حظ الأمم من الماديات تصح لها معنوياتها • يقول العلامة جوتيه : « كثيرا ما كان الشرقيون ينضمون قبائل وشعوبا فيؤلفون ممالك ، كانت المملكة الاسلامية من أحدثها عهدا • وما ألفوا قط أمة على أساس الاقليم ، ولم يعهد لهم أن عرفوا رابطة التضامن ، فالشرقى أو المسلم هو شخص لا يمكن ضبطه ، يعيش منعزلا بنفسه متوحدا ، ووجهه يعنو الى الله الذى هو همه الوحيد ، وكان من هذه الفردية الغضبى ضعفه أمام الأمم الغربية » •

تعلمنا من الغرب أصول الصحافة وأنشأنا ننشىء صحفا محررة تعنى بالأمور المالية والسياسية وأخبار الدول

والممالك ، واقتبسنا أسلوب المجلات الدورية ننقل أكثرها عن مجلات الغرب الفرنسية والانجليزية وننسج على منوالها ، ونجود فيها النقل من العلوم النظرية ، ونلخص آراء الغرب ومذاهبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية ، ونترجم من الكتب العلمية والأدبية ما لم نكد نعرف اسم فنه من قبل ، وكانت مصر مجلية فى المضمار ، نشرت منها مئات بمعاونة حكومتها ، وعناية أبنائها الذين اغترفوا من الينابيع الصافية فى العلم الحديث • وكل بلد سبق فى هذه السبيل ، وعلم أبناءه كمصر ، كتب له التقدم على غيره من الأقطار • ولا عجب أن أصبحت مصر بعد هذا الجهاد تشبه بعمرانها احدى الممالك الغربية الحديثة •

وأثرت الصحافة فى عقول من أدمنوا تلاوتها ، ودخلت الأفكار الجديدة أوساطا ما كان يظن أنها تهتم بها وتستفيد منها ، وبدلت من طرائق التفكير وأصول المعايش ونظام المجتمعات ، وعلمت الناس ما لم يكونوا يعلمون ، علمتهم أن وراء حياتهم المادية حياة معنوية لا تبقى لهم مادياتهم بدون الأخذ بحظ وافر منها ، علمتهم بسائط فى التاريخ والجغرافيا والاقتصاد والزراعة وحال الأمم وسياسة السياسيين ، ومجادلات المشرعين ، واستعمار المستعمرين ، وتدليس المدلسين ، وعلمتهم أيضا أنهم كانوا شيئا مذكورا فيما مضى ، ولا حياة للأحفاد بدون الأخذ من سيرة الأجداد ، والاقتباس من المدنية الراهنة كل ما لا ينزع منهم مشخصاتهم ومقدساتهم ، حتى غدا بعض من أطالوا تلاوة الصحف وتفهمها ، أرقى عقلا من كثير ممن كانوا يسمونهم بالخاصة منذ مائة أو مائتين من السنين • علمتهم أن لا قيام لأمرهم

الا بالقومية العربية ، وأن الدين وحــده لا ينجيهم مما هم فيه ، وأن التساهل بأمور الدنيا يذهب بالدين والدنيا معا ، علمتهم أن داءهم الجهل المركب وأنه لا سبيل الى نزع لباسه القذر الا بالتطهر بالعلم ، والأخذ بقسط من الأدب ، فأقبلوا أى اقبال على المدارس والكتاتيب شاعرين بما هم عليه من النقص ، والشعور بالعيب أول مراتب الكمال ٠

كان الناس قبل سبعين أو ثمانين سنة يساق أولادهم الى الكتاتيب فى الديار الشامية بقوة الجند والدرك ٠ وكان التعليم على عهد محمد على فى الديار المصرية مكروها عنــد المصريين كرها شديدا ، حتى ان الأمهات كن يفقأن عيــون أولادهن حتى لا يدخلوا المــدارس ، بل اضطرت الحــكومة المصرية في بعض أدوارها الأولى الى أن تتخطف تلامذة المدارس من الطرق وأفناء القــرى كما يتخطفون عســاكر الجيش ٠ فزاد اقبال المتعلمين على المــدارس زيادة مســتغربة ، وكل قرية بل أهل كل قبيل من البوادى يتطلعون الى تعليم أبنائهم بكل حيلة ، دع سكان المدن فانهم من ذلك على حصة موفورة ٠ ويا ويل فتى أو فتاة توصد فى وجهه أبواب المدارس يــوم افتتاحها من خريف كل سنة اما لقلة الأماكن أو لتعذر قبول الطالب لصغر سنه ، أو لسبب آخر ٠ ويا ويح تلميذ يخفق في فحوصه ، ولا ينال ما تريد نفسه من الشهادة والاجازة ، واستنتجنا من ذلك أن الاقبال على التعليم أصبح من الأمور المتعارفة ، لا يختلف اثنان بفائدته في الحواضر والبوادى٠

لــما اخترعت أوربا البخار حوالى ســنة ١٨٤٠ وســهل السفر على الناس فى قطارات البر وسفن البحر ، زاد اختلاط

الفرنج بالغرب ، وزاد هؤلاء ثقافة ، يحملها الیهم طلاب العلم وأرباب الرحلات والتجار ، وسياح الغربيين وحجاجهم القاصدون الى بلادهم ، يزورون آثارها المدنية والدينية ، ومنها ما تقدسه أمم الغرب النصرانية لأنها موطن المسيح ومظهر عجائبه ، ومنها ما يدهش له الغربيون كآثار الفراعنة أم المدنيات القديمة المعروفة فى مصر ، أو مصانع تدمر وبعلبك وجرش والبتراء فى الشام ، وزاد هذا الاختلاط شدة لما صحت عزائم سكان جبال الشام على نزول أمريكا طلبا للرزق ، وكان أهل أوربا سبقوهم الى نزولها منذ نحو ثلاثة قرون ، أى استعمروا الأمريكتين منذ فتحهما كريستوف كولمبس وفاسكو دى جاما(★) . وكان منذ أكثر من نصف قرن من لا يعود الى بلاده بمال ، يرجع الى أهله باقتباس شيء من أصول المدنية ، لأنه رأى فى ذهابه وايابه بلادا أرقى بعمرانها من بلاده ، واختلط بجماعات أعلى كعبا فى المدنية من جماعته ، ومعظم ما تراه من الدور والفنادق والمخازن بل البيع والمدارس الطائفية فى الديار الشامية عمر بأموال المهاجرين من الشاميين ، وجماع ما يبدو فى مجتمعنا العربى منقول من المدنيتين اللاتينية والأنجلوسكسونية . والشاميون منذ عهد الفينيقيين تجار مشهود لهم ، وقد ينسيهم حب الربح سائر مظاهر الحياة فى الأمم ، فيهون عليهم التخلى عن لغتهم وكثير من أخلاقهم ، اذا كان من وراء ذلك اغتناؤهم .

اذا عرفنا هذا فلا نكون الى الغلو اذا ادعينا أن الفرق اليوم بين مصر والشام وتونس مثلا ، وفيها تمازجت

(★) لا علاقة لداجاما بفتح أمريكا أو اكتشافها .

الحضارة الحديثة ببقايا الحضارة القديمة ، وتوفر أهلها على الأخـذ عن الغرب علمه وصـناعاته ، وبين الحجـاز ونجـد واليمن ، وهذه لم يتيسر لأهلها هذا الامتزاج ، كالفرق بين مدنية العرب فى القرن الثانى للاسلام ، والقرن الذى سبق أواخر عهد الجاهلية • فأهل الجزيرة ينقصهم الى اليـوم ، ولا نكران للحق (٢) ، كثير من مقومات المدنية ، وهم مع هذا يرون أن ما هم فيه غاية الغايات • ذلك لكونهم انقطعوا عن العالم المدنى طوعا أو كرها ، وقل اختلاطهم بالغربى ، الا فى بعض سـواحل البحـر الأحمر والمحيط الهنـدى وخليج فارس ، وهذا على قلة محسوسة •

كان الـوباء اذا انتشر فى بلدة لا يبقى من سـكانها ولا يذر ، وفى الغالب أن يعقب الأوبئة قحط ، لقلة العاملين فى الحقول ، فيهلك الناس بمئات الألوف ، وما كانت هذه الأمراض الوافدة تنتشر فى القرن مرة أو مرتين ، بل تحصد الأرواح فى كل عقدين أو ثلاثة • فقد انتشر وباء فى الشام فى القرن الخامس ، وأعقبه قحط واضاقة فى العيش ، مع ما هنالك من مظالم ومغارم لا يكاد يتصورها ابن هذا العصر ، فأكل الناس الكلاب والسنانير والفئران ثم أكل بعضـهم بعضا • ونزل سكان دمشق الى ثلاثة آلاف انسان ، وكانوا من قبل خمسمائة ألف • ومثل ذلك كان فى مصر سنة ٤٦٣ هـ : أفنى القحط العظيم الناس ، وأكل الانسان الانسـان ، وبلغ أردب القمح مائة دينار ، وخرجت امرأة فى القاهرة وبيدها مد جوهر فقالت : من يأخذ هذا بمد قمح ، فلم يلتفت اليها أحد ، فألقته فى الطريق وقالت : ما نفعتنى وقت الحاجة فلا أحملك • قالوا ، والعجب أنه ما كان له من ملتقط • ووجه

الى مصر أحد ملوك الأندلس عام سبعة وأربعين وأربعمائة وهو عام الجوع الأعظم بمصر بمركب كبير مملوء طعاما فرجع اليه المركب مملوءا ياقوتا وجوهرا وذهبا وذخائر • هكذا كانت حال الناس قبل أن يكشف الغرب الجراثيم ، ويفيد بنى الانسان والعرب منهم ، بهذا المكتشف العظيم •

وكم كانت الأوبئة والطواعين والحميات والوبالة وجميع الأمراض الوافدة والأمراض العضالة كالكلب ونحوه تهلك عشرات الألوف من الخلائق ، ولا يعرف دواء لها ، ولا من يفكر في تخفيف ويلاتها ، ومنهم من يعزو ذلك الى أسباب سماوية ، يغضب الديان على الانسان ، فيرسل عليه هذه المهلكات ، أو يقوى سلطان الجن على الانس فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، أو يحل بهم نكد الطالع فتتساورهم النقم وتتخطاهم النعم • ولكم فضل الغرب علينا بكشف طعم الجدرى ، وكان يهلك به كل سنة جزء عظيم من الأطفال ، وكم من عيون دعجاء به قلعت ، ومن خدود جميلة بتأثيره تشوهت ! •

عرف الغربيون حقيقة البول السكرى والصرع والتشنج وغيرها من الأمراض فوصفوا لها الأدوية وأقاموا لها حواجز تحول دون آلامها وأخطارها فخففت وطأتها ، وخففوا بما اخترعوا ويلات الأمراض الزهرية والكزاز (تيتانوس) والخناق والنقرس الحاد ، ووفقوا الى اتقان فن الجراحة اتقانا لم يكتب مثله للبشر ، فأفادوا الانسانية وقللوا من أوجاعها ، ورقوا الطب على اختلاف ضروبه ، وبلغوا بالاقرباذين ما ارتقت به الصيدلة آى رقى ، ولو لم يكن لهم

غير الكينا وصبغة اليود والراديوم لكفى فى خدمتهم الانسانية • وانتفعوا ونفعوا بالكيمياء حتى تحقق لهم من التفنن فيها ما هو غريبة الأيام والليالى • واذا نقلت أوربا الى آسيا وأمريكا وجزء من أفريقية الحمى التيفوئيدية وبعض الأمراض الزهرية ، فقد نقلت آسيا الى أوربا الكوليرا أو الهواء الأصفر ، ومع هذا قاتلته بعلمها وبحثها حتى قتلته وآخاه الطاعون •

علمنا الغرب طب الحيوان والدواجن ، ومكافحة الحشرات وكانت تعبث بالأشجار والنبات والزروع ، واستفدنا منه أصنافا من البقول والأزهار والثمار لم يكن لنا بها عهد ، وعرفنا طيورا ودجاجا وأسماكا جديدة ، واستطعنا بالأخذ بوسائطهم القضاء على الجراد ، ولطالما أفقر أقطارا وأمصارا ، وتعلمنا استعمال الأسمدة الكيماوية ، والتفنن فى تطعيم الغرسات والاستكثار من المعرشات ، ومعالجة الآلات الحراثة (★) والبذارة والحصادة والرجادة والدراسة والذراية بل والخياطة والطرازة وكل ما يقلل من عمل الأيدى ويوفر على الخلائق راحتهم ويقتصر لهم طرائق الانتفاع بما تنبت الأرض وتجود السماء •

تعلمنا من الغرب تمديد الخطوط الحديدية ، وفتح الأنفاق وبناء الجسور والطرق والمرافىء والخزانات والمنائر وحفر الآبار الارتوازية واقامة الدور ذات الطبقات الكثيرة ، وما عرفت فى التاريخ فى غير مدينة القاهرة والاسكندرية وبعض سواحل الشام ، وعلمنا توليد الكهرباء ومد أسلاكها

(★) بتشديد الراء ، وكذلك الكلمات التى بعدها بالتشديد والفتح •

والهاتف واللاسلكى والسلك البحرى ثم الراديو • وتعلمنا تنظيم المدن والبلديات وفتح الشوارع والساحات ، ورصف الطرق وتذليل العقبات ، وجر المياه النقية فى أنابيب ومناهل ، وتجفيف الأصقاع المستنقعة ، وتخفيف ويلات أمراض العين ، وكان يعمى بها طوائف من الناس •

الألمان أنشأوا سكة حديد بغداد وسكة حديد الحجاز لتقريب المسافات بين الشمال والجنوب ، والفرنسيس فتحوا ترعة قناة السويس فربطوا الشرق بالغرب، والانجليز أقاموا خزانات أسوان لتستفيد مصر من نيلها ، وغدا ينظمون رى العراق ليستفيد من مياه الرافدين : دجلة والفرات على ماكان على عهد ملوك بنى العباس ، الى غير ذلك من أعمالهم فى معظم الأقطار التى دخلوها فى آسيا وأفريقية ، وهم اليوم يستخرجون نفط الموصل ، وقد مضت القرون وهو لا يعرف ولا يستثمر ، وغدا يستفيدون من المعادن الغريبة المخبوءة في صدر البحر الميت •

اقتبسنا عن الغرب أصول الجندية ، وتنظيم المراكب البخارية ، وتدوين الدواوين وأسلوب الجباية والخراج وادارة المصارف والجمارك، وأبدلنا بأساليب التجارة أساليبهم القريبة المأخذ ، المضمونة النتيجة ، ولم نعرف قبلهم المصارف ولا المصافق، ولا الشركات المساهمة والمضاربة والمغفلة(؟)، ولا كل ما يسهل على التاجر عمله ، وعلى الصانع صناعته ، ويوفر للناس أموالهم وكأن الأدوات والآلات هى خاصة من خاصات المدنية الحديثة ، لتفرد الغرب بالفحم الحجرى

وضروب المعادن ومن أهمها الحديد • ولأن الاخصاء (٣) فى العلوم جرى تطبيقه على الصناعات عندهم •

ومن الغربيين أخذنا أصول الدعوة ، والاعلان عن كل بضاعة ، وطرائق المفكرات والجزازات(٤) والاحصائيات ، بله تأليف المؤتمرات والمؤامرات • ومنهم اقتبسنا استخدام المعاصر والمحالج والمغازل والمناسج والمطافىء والمضخات ، ونسجنا على أساليبهم فى انشاء الجمعيات الخيرية ، والأحزاب السياسية ، والشركات الصناعية ، واقامة حدائق لتربية الحيوانات ، ومغارس لتربية النباتات والأزهار والأشجار ، واستفدنا مسائل أخرى كثيرة نجهد لوضع أسماء تقابلها بالعربية ، ولم نعرف قبل الغربيين اقامة المستشفيات والمصاح والملاجىء الميتامى والزمنى (٥) والصم والبكم والمسلولين والمعتوهين ، على هذا الطراز من العناية والطهارة •

هم حرروا الرقيق فكان ذلك من موجبات فخرهم ، وأزالوا بذلك وصمة عار عن الانسانية • وأبطلوا النخاسة (٦) وكانت أفظع تجارة ، وأحط عمل شائن فى استعباد البشر • هم علموا السود حتى ألحقوهم بالبيض ، ودربوا الحيوان حتى قام بكثير من أعمال الانسان ، استفادوا من كل قوة ادخرتها الطبيعة وانتفعوا من كفاءة كل كفء ، وفضل كل قريحة فى هذا المجتمع العظيم •

بتعليم الغربيين أصبح للمرء قيمة ، وللعالم العامل مقام ، وبمدنيتهم الحديثة أصبح العلماء على اختلاف أجناسهم ومعتقداتهم يؤلفون أسرة واحدة ،

لا يبحثون على الأغلب الا لجلاء الحقائق ، بمعزل عن المصالح التافهة فى المجتمع الانسانى ، ولقد أثر علماء الغرب فى أرواح الشرقيين وعقولهم من حيث يدرون ولا يدرون ، وذلك بفضل ما يبثونه كل يوم من معارف جامعاتهم ومدارسهم وأنديتهم ومعاملهم ومخابرهم ، وبفضل ما كشفوه واخترعوه وحققوه وصححوه من العلوم، وبثوه من الأفكار الجديدة ، فقلبوا بأوضاعهم أوضاعنا ، وبدلوا بتصوراتهم أشكال تصوراتنا ، وبدلوا من أساليب الفكر فى رجالنا الدارسين وغير الدارسين ، فتغيرت مادة أحاديثنا ودوافع أهوائنا ، ولطفت أذواقنا وبعض المستهجن من عاداتنا ، ولم يكن لذلك كبير أثر قبل اختلاطنا بهم ، وتسهيل المواصلات بيننا وبينهم • ومنذ رفعنا من أذهاننا أننا أرقى منهم فى كل شىء أصبحنا ، ولا يصعب على عزة نفوسنا ، أن نقر بضعفنا فنعالجه ، باتخاذهم أساتيذ لنا فى معظم مطالب الحياة ، وسنظل كذلك زمنا آخر حتى نستوى أمة ناهضة من كل وجه ، على ما استوت اليابان الشرقية فى القرن الماضى •

★★★

تحدثوا الى شيخ طاعن فى السن ، عرف هذه الدنيا منذ ستين سنة وعرفها اليوم وقولوا له أن يحدثكم كيف كان أجدادنا يعالجون المسائل الصحية التى أدركها اليوم صغار أطفالنا • وكيف كانوا يطبخون طعامهم ويجلسون الى موائدهم ، ويفرشون بيوتهم ومخازنهم ، ويلبسون ثيابهم ويرتبون هندامهم ، وماذا كانت كسوة الأوانس والعقائل وأزياؤهن الغليظة ، ليقولوا لكم كيف كانوا يسمرون

ويتنادرون ويمرحــون ، وما ملاهيهم ومقــاهيهم وحاناتهم وخاناتهم وفنادقهم ومراكبهم ، وأى الحريات المدنية والدينية والسياسية كانوا بها ينعمون ، وماذا كان لهم من الأمان على الأموال والأنفس والأعراض ، وأى المعلومات كانت لهم عن العالم وأحواله ، وعن الشعوب والأمم ، وعن العامر والغامر، وعن الحقائق والخيالات ، وكيف كانــوا يقطعــون أوقاتهم ويتمززون حياتهم ، ويستلذون عيشــهم • وكيف كان من يرأس من الناس يظلم كل من وقع بيده ويجــد فى الحــكام معوانا له عــلى ظلمه ، بل كيف كان الخلق يتظالمون عــلى الدوام ، وليس لهــم رادع من قانــون ، ولا عقــوبة تكف عاديتهم وتعاديهم •

ليقل لكم الشيوخ كيف كانت الأمية غالبة على الــكبير والصغير ، وكيف كان الأطفال يربون فى أماكن مظلمة منتنة لا شمس فيها ولا هواء ، يسمونها الكتاتيب والمدارس ، ثم هم يضربون بالعصى على رؤوســهم ووجــوههم وظهــورهم وأرجلهم بدون شفقة ، وبذلك يتعلمون للخلاص من هــذا العذاب الاحتيال والحلف الكاذب ، ثم عــودوا فألقوا بعــد ذلك نظرة على مدارسنا لتروا كيف أصــبح الولد ــ بتنظيم التعليم بنظام الغربيين اليوم ــ يعرف من المــواد ما لا يكاد يعرفه العالم أمس ، تشهدون كيف اختصرت مراحل التعليم والتهذيب ، حتى لنرى فى شــبابنا اليــوم من هم مفخــرة بمعارفهم ما رأى أجدادنا أمثالهم فى بضعة عصور وأجيال• ولعمرى متى كنا نسمع بمثل هذه المعلومات تجتمع لفتى فى الخامسة عشرة من عمره ، ومتى شاهدنا الأولاد يربون فى

رياض الأطفال هذه التربية العملية الصحية النافعة ، ومتى كان ربات الحجال ، ينافسن فى التعليم الرجال .

هل عهدتم اللغة العربية تقرأ وتكتب بهذه السلاسة والرشاقة ، الا اذا كان فى القرنين الثالث والرابع ، متى عهدكم بلغتكم يكون لها فى التمثيل الذى اقتبسناه عن الغرب فى الجملة ، تلك الروعة فى الالقاء حتى لتظنن أنفسكم وأنتم فى احدى قاعات التمثيل أنكم رجعتم الى عصر الرشيد والمأمون ، تأملوا عدد ما حيى من الفصح العربية التى ما كان يعرفها حتى الأدباء ، وأصبحت بفضل المدارس والصحف السيارة أو دور التمثيل وبيوت الغناء واسطوانات الحاكى واذاعات الراديو فى ألسن الناس وعلى أسلات أقلامهم ومكتوباتهم ، كأنها من المتعارف ، لنحكم ولننصف فى أحكامنا ، متى كنا نتخيل ظهور مثل هؤلاء الرجال الذين تسمعون بهم ، وتقرءون أعمالهم فى كتبهم ورسائلهم ومصوراتهم ولوحاتهم وخطبهم ، متى عهدتم هذا العدد الدثر (٧) من رجال القانون والادارة والجندية والطب والهندسة والزراعة والكيمياء والطبيعة والفلك والاجتماع والاقتصاد والتاريخ والجغرافيا والشعر والكتابة والأدب والتصوير والموسيقى والنحت والنقش ، ومنهم من لا يقل عن أرقى الطبقات أمثالهم فى الغربيين ، ولا يفرقون عن النابهين من الرجال عند الأمم الممدنة ، الا بفروق مرجعها الى المحيط ، واذا شهدتم فى بعضهم فتورا فى هممهم ، فثقوا بأن فتورهم ينقلب نشاطا اذا رأوا من أمتهم تنشيطا .

للغرب على الشرق العربى فضل عظيم فى احياء مدنيته ولغته أيضا ، أنشأ منذ القرن الرابع عشر للميلاد مدارس

لتعليم العربية فى بلاده ، وكلما كان بعض أبنائه يتلقفونها، كانوا يفكرون فى اقتناء كتب العرب ، ويتنافسون فى ذلك تنافسهم فى الاحتفاظ بالآثار التى هى محصــول القــرائح العربية • ولما اخترعت الطباعة كانت المخطوطات العربيــة أول ما طبع فى بلاد الغرب ، وأول مطبعة أنشئت فى مدينة فانو فى جون البنادقة (بحر الأدرياتيك) سنة ١٥١٤ طبع فيها القرآن وكتب الطب والحكمة والطبيعة باللغة العربية • وفى مدينة البندقية طبع الايطاليون تأليف يوحنا بن ماسويه فى الطب والفلسفة ، ومثلوا بالطبع قانــون ابن ســينا مع كتاب النجاة فى روما وذلك ســنة ١٥٩٣ • ومنــذ ســنة ١٦١٥ بدا الهولنديون فى مدينة ليدن بطبع كتب العرب ، ومازالوا الى اليوم يطبعون من أمهاتها كل مفيد • وقد أنشأت فرنسا وانجلترا وألمانيا والنمسا واسبانيا وروسيا وأمريكا وغيرها من الممالك الغربية مطابع مهمة طبعت فيها عشرات من كتب العرب النفيسة ، ودلوا قومهم وغير قومهم على فضل العرب ، نوهوا بحضارتهم ونبوغ آفرادهم ، كانوا يأتون ذلك والعرب يغطون فى سباتهم غطيطا غريبا ، تحت ظــل خلفاء العثمانيين ودولتهم المباركة(٨) ! وبينما كانت العربية آخذة بالانقراض فى مصر والشام والعراق ، دع ســائر الأقطار العربية الأخرى ، كانت أوربا لا تخلو جامعــة من جامعاتهــا منــذ القرن الســادس عشر من دروس عربيــة ، ولا سيما جامعات ألمانيا وانجلترا وهولندا ثم فرنسا والنمسا وايطاليا واسبانيا وبولونيا وســويسرا والسويد والنرويج وفنلندا وروسيا والولايات المتحدة •

ولقد جمع الافرنج فى كل دولة صغيرة كانت أم كبيرة خزائن عامة أو خاصة من نفائس الكتب العربية المخطوطة ما هو العجب العجاب ، عنوا بها أشد عناية ورتبوها ونشروا فهارسها ونشروا منهـا بالطبع جـزءا من كتبنـا الدينيـة والفلسـفية والتاريخيـة والجغرافيـة والعلمية والأدبيـة واللغوية وغيرها مما لا يقل عن خمسمائة مجلد ، ونحن لـم نعرف بعد الطبع بالحرف ، مجتزئين بطبع الحجر السقيم • وفى الآستانة ومصر من المخطوطات العربيـة وفى خـزائن الكتب العمومية والخصوصية ، ما لا يقل بعدده عما عند أهل أوربا منها ، ولم نطبع منها غير أسفار قليلة ومنها التافه الذى قصدوا به التجارة لا خدمة العلم كما فعل علماء المشرقيات من الغربيين ، وجاء القرن التاسع عشر وما مثل بالطبع منها غير بضعة كتب نافعة • فبفضل الغرب عرفنا الطبع وعرفنا فضل أجدادنا وتعرفنا الى الطرائق فى احياء كتبنا ، ولكن طالت مدة تعليمنا أكثر من مائتى سـنة ، حتى خجلنـا من أنفسنا ، فجاريناهم بعض المجاراة ، ولما نلحق بهم بعـد فى تدقيقهم وتحقيقهم •

فللغرب الفضل الأول باحياء حضـارتنا ، وتعريفنـا بمزايا لها كنا عنها فى غفلة ، فهم لقنونا طرائق الاستفادة مما أملته قرائح الأسلاف ، وأبقته الأيام من تراثهم الثمين ، على نحو ما كان لهم الفضل الأكبر فى البحث عن دفائن بلادنا ونبش عادياتها ومصـانعها القديمـة ، وبهم اهتدينـا الى معرفة آثار أرضنا وتاريخها وعظمتها السالفة ولغات بلادنا القديمة • فعلمونا كيف نحتفظ بآثارنا الثابتة والمنقولة ،

ودربونا على العناية بتركة أجدادنا واحترامها وتقديسـها والولوع بها ، وكنا فيها من الزاهدين ٠

نحن اذا قلنا ان الغربيين أحيوا لغتنا لا نكون الى المبالغة فى شىء ، هم نشروا أمهات كتبنا ، فانتبه علمـاء العـرب وأخذوا يدرسون فيها ، وكلما درسوا ودرسوا (بتشديد مع فتح الراء) واحكموا من اللغة فصيحها فى أمهات كتب الأدب مما سبق الغرب الى طبعه ، ارتقت ملكات الكاتبين والمؤلفين والمدرسين عندنا ، وكلما انتظمت أصول التعليم فى المدارس زاد أسلوب العربية ارتقاء ، وكلما ثقف أبناء العرب لغـات العالم الحديث ، نسجوا فى لغتهم عـلى أسـاليبها فى الأدب والشعر والتمثيل والخطابة ٠ ولولا الغرب ما نبغ فينا شعراء وكتاب وخطباء فى العصر الأخير لم يعهد لهم نظير فى لغتنا منذ المائة الخامسة ، قد كاد كتاب مصر والشـام والعـراق وتونس وشعراؤها وخطباؤها يرجعون الى العربية نضرتهـا القديمة ، وبرزوا بها فى أجمل حلة عربية ٠ وما تم هذا بغير مدارس الغرب وفضل رجالهم ممن أخذنا عنهم واقتدينا بهم ، وساقتنا الغيرة الى الجرى على طرائقهم فى النظم والنثر والتأليف والوضع والبحث ، وكلما مازجناهم فى رحلاتنـا الى بلادهم ومازجونا فى نزول بلادنا عرفوا منا ـ والبعـد جفاء ـ ما كانوا يجهلونه ، وعرفنا منهم ما كنا نجهله ، من غيرتهم على العلم والمدنية ٠



أخذ الغربيون عن العرب كل ما نفعهم يوم نهضتهم من ضروب المعارف البشرية وها هم اليوم يعيدون الينا ، عن

سماحة نفس ، شيئا مما تعلموه من أجدادنا وزادوه بعلمهم وبارتقاء الزمن وتداول الأيام فلا يشقن ذلك علينا ، فهذه سنة المدنيات التى درجت عليها أجناس البشر • تقلبت على المدنية أيد كثيرة منذ دون تاريخها ، واليوم وصلت بفضل أهل الغرب الى هذا المظهر الباهر ، وغدوا سدنتها القائمين على بثها فى المشرق والمغرب يعنون بوضع أسسها فى الكنغو والسودان والسنغال وجاوه ، كما وضعت فى البلجيك وانجلترا فرنسا وهولندا • وللغربيين السلطان الأكبر على النفوس وعلى السياسة والتجارة والعلم • وسنظل متوفرين على الأخذ عنهم ، ولا غضاضة على المتأخر اذا أخذ عن المتقدم •

ولا يفوتنا النظر وقد بلغ بنا نفس الكلام الى هذا الحد ، أن نعرض لما حوته المدنية الغربية من المساوىء بعد أن ألممنا بما حملت من عظيم المحاسن ، ولكل مدنية سيئات تندمج فى مطاوى الحسنات ، وصعب أن يكون الخير تاما والشر تاما ، وكان علينا أن نقتصر على اقتباس النافع ونتحامى الضار ، ونجعل السلطان للعقل لا لهوى النفس • والظاهر أن المدنية وحدة لا تتجزأ من آخذ بخيرها لابد أن يستهدف لشرورها طوعا أو كرها ، وما هذه السيئات بالذى أقره عقلاء الغرب دعاة الحضارة الحديثة ، ونحن نعلم أنهم يشكون منها شكايتنا وزيادة •

هجمت علينا المدنية الغربية بأصناف من المسكرات والمخدرات كان أجدادنا لا يعرفونها ، وعاشوا بدونها قرونا فى هناء وراحة ، وكان يقتصر من يعاقرون الراح سرا ،

وهم قلائل جدا ، على ما تنتج البلاد من خمور ، وضررها على الجملة أخف من مضار الغول الجديدة ، وهكذا فى عامة المخدرات كالمورفين والكوكايين والهروبين التى جاءت مع القرن الماضى فاضعفت العقول وقتلت الأنفس وفتح التوسع فى الحرية أبواب العهر والفجور والاسراف على النفس ، فأنشأ الفحش يمارس تحت سمع القانون وبصره ، فزادت بذلك الأمراض الزهرية ، وتعطل التناسل فى بعض الرجال والنساء ، ثم انتشر القمار على اختلاف صوره ، ومنه المضاربات وألعاب النصيب ، وكان الناس فى غابر الدهر يقنعون بالرزق المحلل ، يأتيهم من أعمالهم الصناعية والزراعية والتجارية لا يغامرون هذه المغامرات التى يردها العقل والشرائع ٠

وأدت الحرية الشخصية بالسلطة الأبوية فى بعض البيوت الى الفتور ، فكان فى الماضى الافراط فى هذا المعنى وصار اليوم التفريط ، وضعفت سلطة الأب على ابنه وابنته بالنسبة ، وضعفت معها الشفقة والرحمة والكرامة الا قليلا، وأصبح كل أمر يقاس بمقياس الماديات ، ولا يسأل الرجل من أين اكتسب ماله ، اذا اجتمع له مال ، لأن المعنويات لا شأن لها فى نظرهم وانما الشأن للماديات ٠ وقضت المدنية على من قبلوها أن يجدوا ويسرعوا ان أمكن بقوة البخار والكهرباء والأثير ، وكان الناس منذ قرن على تؤدة وتأن وصبر لا نشاهده فى أهل هذا الجيل ، ولذا رأينا التشاؤم اكثر من التفاؤل فى كل بلد ، والقناعة والرضى أقل من الشراهة والطمع ، وأمسى كل صعلوك يحاول أن يغتنى بين عشية وضحاها ، بأى الطرائق التى تفتح أمامه ، وكثر حب

الظهور بل الجذون فيه ، وتبع ذلك البذخ والتفخل(٩) والاسراف ، بحيث تعذر التوازن بين الدخل والخرج ، فكان فى ذلك خراب بيوت كانت عامرة لولا التقليد المصنع ، والعادات المستحدثة وكثرت بذلك السويداء والماليخوليا والخبل وضعف الأعصاب وفقر الدم والسل . كانت الرفاهية فى الأيام الماضية مقصورة على قصور الملوك والأمراء فشارك فيها اليوم أهل الطبقات الثانية والثالثة ، والرفاهية تتوقف على كثرة بذل ووفرة دخل ، وكان للمجتمع فى الشرق عادات مستحسنة من جمال الألفة ، وحسن العشرة ، وصحة العهد والوفاء ، وقوة الايمان ومعرفة الجميل ، فعرا هذه الصفات بعض الفتور خصوصا فى البيئات التى اقتبست مدنية الغرب بعجرها وبجرها .

هذه جريدة بما لقفناه عن الغرب ، ذكرنا فيها الحسنات وأتبعناها بالسيئات ، وربما كان فيها بعض النقص ، غفلنا عنه بخيانة الذاكرة ، أوردنا منها ما أوردناه على سبيل الذكرى ، لننصف غيرنا وننتصف منهم .

★★★

الهـــــوامش

(١) فى هذه العبارة مبالغـة كبيرة ، فقد شهد القرن التاسع عشر جهود محمد على الكبير فى « تحضير مصر » كما شهد العـالم العربى حتى قبل ذلك حركات اصلاحية كحركة محمد بن عبد الوهاب فى شبه الجزيرة العربية ، كما شهدت تركيا نفسـها محاولات اصلاحية ٠٠ الخ ٠

(٢) لأن هذه الدول لم تتعرض للاستعمار بشكله التقليدى فقد احتكت بالحضارة الغربية بعـد ذلك احتكاكا اختياريا واخذت عنه مالا يتعـارض مع طبيعتها ، وكان هذا بشكل هادىء وئيد لم ينتج عنه تصادم ولم ترق فيه دماء كثيرة ، لكن المؤلف يتحدث عن المرحلة التى عاصرها ٠

(٣) المقصود التخصص ٠

(٤) بطاقات البحث ٠

(٥) جمع زمن ـ بفتح الزاى وكسر الميم أى كبير السن ٠

(٦) نسى الأستاذ كرد أن يذكر أنهم هم (الأوربيون) أول من تاجروا فى الرقيق على نطاق استثمارى واسع منذ القرن الخامس عشر ، وعلى أكتاف السود الذين استرقهم الأوربيون قامت مزارع أمريكا الضخمة ٠

(٧) لم نجد فى المعجم الوجيز (دثر) بمعنى كثير ٠

(٨) راجع المقدمة ٠

(٩) فى لسان العرب لابن منظور : « تفخل الرجل : أظهر الوقـار والحـلم ، وتفخل أى تهيأ ولبس أحسن ثيابه » والمقصود فى سـياق المؤلف ما يعـرف اليوم بالعـامية (نفخة كذابة) ٠

المبحث السادس

التنظير بين المدنيتين وأهلهما

عرضنا فى المحاضرات الأربع السالفة لاختلاط الغربيين بالعرب فى الأندلس وصقلية ، وفى الحروب الصليبية وعهد الاستعمار الغربى ، وذكرنا ما أنتجتـه عقـول العـرب من العلوم والفنون فأخذته أوربا عنها ، ثم تحدثنا اليكم فيما اقتبسه العرب بعد انحطاطهم من مدنية الغرب الحديثـة ٠ والآن ننهى هذه السـلسلة ببيان الفـرق بين الحضـارتين والقائمين بهما ٠ وهو موضوع منتشر الأطراف لا تتسع له عدة محاضرات ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله فنقول :

لكل مدنية قامت فى الأرض روح تتجلى فيها ، ذلك لأن المدنية ابنة عوامل كثيرة ، فالعامل الذى له الشأن الأول فى قيامها ، هو البارز فيها المتسلط عليها فالمدنيتان اليونانية والرومانية أقرب الى المدنيات المادية ، ومدنية الرومان هى المادة بعينها ، وفى المدنية اليونانية شىء من المعنـويات من شعر وفلسفة وعلم ٠ والمدنية الهندية روح كلها فنيت فيها المادة فى الروح ٠ وجاءت المدنية العربية (١) تنهج طريقـا وسطا ، فأخذت بقدر كبير من المعنـويات ، ولم تغفـل عن الماديات، فكانت فى ذلك معتدلة ، فما كثر الشقاء فى أرضها، ولا أفرطت السعادة ٠ ولعلنـا لا نبعـد عن الحق كثيرا اذا عرفنا المدنية الغربية الحديثة بأنها مدنية مادية والمعنويات تابعة لها ، والمدنية العربية مدنية روحية والماديات تبع لها ٠

واذا جئنا نحل المدنيــة الغربية اليــوم ، تجــدها تحت سلطتين ، سلطة المموليين خزنة الأموال ، وسلطة أرباب القوة من رجال الجندية ، وكل ما هناك من حسنات تلك الحضارة من علم وصناعة خادم لتينك السلطتين ، وهكذا كانت الحال منذ انبعثت، الشعلة الأولى من النهضة فى ايطاليا ، وتحررت العقول من قيودها ، والألسن والقلوب من عقالها • والظاهر أن مدنية الغرب منذ تخلصت من ســلطة الدينيين أزهــرت وأثمرت ، ومدنية العرب منذ ضعف جوهر الدين فى نفوس القائمين بها ، ووقعت فى سلطة الزعماء على الدين تراجعت وتضاءلت• أى ان البابوات لما كانوا هم المتحكمين بمعظم أهل الغرب، كانت المدنية هناك على حالة ابتدائية يصعب أن تسير الى الأمام ، فلما قام الاصلاح الدينى ونزلت الكنيسة عن تسلطها على كل شىء ، ورأى الناس عاقبة التنازع على الدين بما أصيبوا به من النكبات ظهرت تباشير المدنية ناجية من تلك القيود الثقيلة •

أما فى الشرق فان المدنيــة العربية قامت بروح الدين أولا ، وكانت سلطة رجال الدين ضــئيلة لا تتعــدى دائرة معينة ، لأن الرياسة الروحية مفقودة فى الاســلام ، خلافا للسلطة النصرانية فى القرون الوسطى ، فانها كانت منظمة مرتبة ، ولها السلطان كل السلطان على أرواح المــؤمنين ، تدبرهم فى عامة شؤون الحيــاة ، وتســيطر عــلى الدقيق والجليل من حركاتهم وسكناتهم • وكأن الكنيسة كانت حاكمة مطلقة والملوك عمالها ، ينفذون أمرها ويأتمرون برأيهــا ، فلما ارتخت تلك القوة خلصت المدنيــة من المــؤثرات التى

طالما عاقتها • والأمر عند العرب على خـلاف ذلك من بعض النواحى •

ويشهد الناظر فى تاريخ الغرب أن الكنيسـة بما كان لها من الحول والطول فى كل أدوارها ، وبما تمتعت به من السلطان على النفوس ، تختط لها طريق سلامتها فى الأرض والسماء ، قد خدمت المدنية بعض الشىء على عهد نوابغ من رؤسائها ، حتى اذا استمتع الملوك بحرياتهم تناولوا أعمال المدنية فخدموها زمنا ، فالمدنية انبعثت من الكنيسة أولا ، ثم وصلت الى الملوك ، وجاءت الشـعوب بعـد ذلك تأخـذ بطرائقها ، فتم للمدنية ما يتوقف عليه انهاضها • أما فى الأقطار التى خفق عليها علم العـرب ، وأمدوها بروحهـم وتعاليمهم ، فكانت المدنية يرعاها الرعاة والرعايا معا منذ خلقت ، يعمل العلماء فلا ينازعهم عقلاء الملوك ، ويحمونهم من اعتداء المتعصبين ، ويرعونهم كل الرعاية ، ويولونهـم صنوف الكرامة • فما عرفت فى الاسلام طبقات ولا امتيازات ، ولا دعا الى التسلط على نحو ما دعت الكنيسـة قبـل عهـد الاصلاح • وكان السلطان الأول فى الدول العربية للقائمين بالدولة من الملوك والأمراء فقط •

ومن اجمل ما كان فى المدنية العربية تجلى روح التسامح فيها ، مع من كان يدين بغير دين الدولة القائمة • ورأينـا المدنية الغربية لا تحتمل الى عهد قريب طائفة تخالف رأيها ، فقتلت من بنيها وغيرهم خلائق لا يأخـذهم العـد فى معظم أدوارها ، حتى أدخلتهم طـوعا أو كـرها فى دين السـواد الأعظم • وما رضى الغربيون حتى بعد عصر النهضة من بلد

رفع عنه علم العرب الا أن يتنصر أهله ، على نحو ما فعلوا في الأندلس وصقلية وجزيرة اقريطش وغيرها (٢) وما عهد للعرب مثل هذا الشطط • واذا أحسنا الظن في تعليل عمل الغرب نقول ان الغربيين في سيرتهم هذه دلونا على شدة غرامهم بالنظام والتوحيد ، فهم لا يرتاحون للشذوذ في قوانين الجماعة ، ولا يهنأ لهم بال الا اذا عاهدهم معاهدوهم على المطلق من الطاعة •

ومن غريب امر الغرب في تغاليه بالنظام أن الكنيسة قضت على الرهبان والراهبات أن ينذروا العفة لا يتزوجون، لينقطعوا الى ما هم بسبيله من الدرس والعبادة والدعوة الى دينهم • مع أن النصرانية لم تحرم في أصلها زواج الدينيين(٣) ومضت القرون الثلاثة الأولى عليها ورجال الدين فيها يولدون، ولكن حب النظام دعا الى أن حرموا مئات الألوف من البشر التناسل ، وبالحظر على خدمة (بفتح الخاء والدال : جمع خادم) الدين تأليف أسرة خرجوا عن الطبيعة الانسانية ، وتغاضوا عما يجر ذلك من الكبائر والمنكرات أحيانا ، على أن كلا من البروتستانتية والأرثوذكسية قضت على رعاتها بالزواج وما تخلخل نظامها •

أنكر بعض الشعوبيين من أعداء العرب فضل المدنية العربية على العالم في زمن المنجهيات القومية • أنكروا ذلك لما ضعف سلطان العرب في الأرض ، وسخروا مما يقول به المنصفون منهم متى عد ما أورثته العرب للانسانية ، وزعموا أن المدنية الغربية هي المدنية ، وما عداها فخطوط غير مرسومة على ما يجب ، فهي كعلم جابر « اقرأ تفرح جرب

تحزن » وان كان ثمة ما يسمى مدنية فهى مدنية الفراعنة والآشوريين والبابليين واليونانيين والرومانيين ، ذلك لأن المدنية العربية لم تنشأ فيها تماثيل ولا نصب ، ولم تثبت لها كفاءة عظيمة فى النقش والتصوير ، وهم على شىء من الحق فى دعواهم، ذلك لأن العرب لم يولعوا كثيرا بالمحسوسات(٤) وليس فى حضارتهم من هذه ما يعتد به كثيرا بالقياس مثلا الى ما خلفه الرومان • وذهب الغرض ببعضهم الى أن قالوا ان المدنية العربية لم تأت بغير الضرر، مع أن الغرب لم يعرف الرومان واليونان أيضا الا من طريق العرب : كلام من يعتز بالقوة القاهرة ، ويحكم بالظواهر ، ويعميه الهوى الجنسى والنزعات السياسية • فما دام القائل لم يحس المدنية العربية ولم ترها عينه ، فهى اذن غير موجودة ولا وجدت ! ومن يقول هذا من العبث أن نناقشه لنقنعه •

العرب لم يخلفوا آثارا عظيمة كأهرام الفراعنة ، ولا قلاعا وطرقا وهياكل من النوع الذى خلفه الرومان ، ذلك لأن شريعتهم حظرت السخرة(٥) وما أباحت اشقاء انسان لسعادة غيره ، والرقيق الذى قام بيده معظم ما تراه من مصانع الأمم البائدة ، كان يعامل فى الاسلام معاملة الحر برحمة وشفقة ، حتى كاد المولى يعد من أهل البيت الذى استرقه ، ودولة العرب لم تطل أيامها كما طالت أيام الفراعنة والعمالقة وعاد وثمود ويونان • ولو عرف الناقدون هذا ، وقدروا الأمور فى موازين القسط ، لما وسعهم الا الاعجاب بما تم فى زمن قليل من نهضة العرب • ومن لا يقيس الأمور بمقياس الماديات لا يتحرج من الاعتراف بأن العرب تجافوا كل التجافى عن ارهاق أحد ، فكانت مدنيتهم شعبية

ديمقراطيـــة ، بعيـــدة ما أمكن عن منـــازع الزعامات الأرستقراطية • وكان من نتـائج تعاليمها ، ومنهـا اكراه الأغنياء على اخراج زكاة أموالهم للفقراء ، اذا لم ينزلوا عن جزء منهـا برضاهم ، أن لم يعهـد فى العـرب اشتراكيـة ولا فوضوية ولا عدمية ، ولا ممولون كممولى الغرب يعملون الحرب ويعقدون الصلح ، ولا احتكارات كاحتكارات الغرب فى الصنائع والتجارة ، ولا هـذا الشـقاء الذى عم وطم ، وأهلك الحرث والنسل وقصاراه افقـار جمـاعات واغنـاء أفراد •

ربما كان من جمع الثروة فى أيدى أفراد بعض الفائدة للحضارة ، والحضارة ابنة الثروة والغنى ، لأن من أهلها من يبنون القصور والمصانع الجميلة ، وقد يفضل بعضهم على الأعمال العامة(★) ، ولكن هل يوازى يا ترى قتل الوف من النفوس لاحياء نفس واحدة ، وهل من العدل الطبيعى أن أسمن وأتخم ويهزل مئات ويجوعوا ، وأن أستوفى حظى من السعادة وأسباب الهناء ، ويشقى لأجلى من وراء جدارى كل الشقاء • تعاليم العرب بعيدة عن هـذه الهنات ، وان شـذ عنها بعض الأغمار من أصحاب السلطان فى بعض العصور ، اعتدادا بما لهم من القـوة والجبـروت • فمجمـوع تاريخ الاسلام كان صورة أخرى • ومعظم المصـانع العربيـة قام بأموال الدول ، أو بأيدى زعمائها وأصحاب الخير من الناس، وفيها مسحة الفردية •

(★) عبارة غير واضحة •

المدنيــة العربيــة ما فرقت منــذ كانت بين الأجنــاس والعناصر . فكان كل من يدخل فى الاسلام ، أو يعاهد أهله ويخلص لهم من أهل الملل الأخرى موفور الكرامة فى الدولة . ذلك هدى الدين وليس فى وسع القائمين بالأمر أن يتعدوا حدوده ، بل كانت مرونتهم فى تطبيق النقل على العقل أبدا ، ومن حاول أن يخرج عن هذا الحد هلك فيما كان يتوهم فيه النجاة . قام فى ذهن جلال الدين محمد أكبر سلطان المغول فى الهند وأعظم ملوك القرن الخامس عشر أن يوحد الأديان والأجناس ، فجمع لذلك مؤتمرا انتهى بالسباب والشتائم بين المؤتمرين ، وفاته أنه يحاول اخراج الناس عن طبائعهم ، وعن نظم الحرية الشخصية ، وأعظم ما يستميت المرء فى حبه دينه ولسانه ، ومن المتعذر أن يعقهما الانسان الا بدافع لا قبل له بدفعه ، أو بوازع نفسى شاذ ولا قياس على الشذوذ .

حاول أكبر ادخال التجديد فى الهند ، ونسى — على نبوغ فيه — ان الاسلام مع ما بلغ من سلطانه ، لم يكره أحدا على انتحاله . وأجمع أرباب العقول أن من السخف فرض الأديان على الناس . ورأينا بعض دعاة المدنيــة الحديثــة ينوعون الأســاليب لادخال الناس فى معتقدهم بطريقــة من طرائق الدعوة ، وقلما أفلحوا على كثرة ما بذلوا وجهدوا . وهــذه اسبانيا حكمت الفيليبين ثلاثمائة سنة ، وما تركت فى قوس الجهد منزعا لتزحزح المسلمين عن عقيدتهم : أغلقت جوامعهم ، وحظرت اجتماعاتهم ، وشردت زعماءهم ، ولمــا استولت الولايات المتحدة الأمريكية على تلك الجزائر ، سهلت للمسلمين من أهلها جميع طرائق الارتقاء ، وأتتهم بمن علمهم أصول

دينهم ، فارتقوا فى ظلها فى ثلاثين عاما رقيا ما عرفته أمة آرية بيضاء فى مائة سنة • والغالب أن لطبيعة العنصر الاسبانى والعنصر الأمريكى دخلا كبيرا فى ذاك التحكم البارد ، وهذه الحرية المطلقة (★) •

ما قامت دولة العرب بروح القومية ، ونغمة القوميات جديدة رددت صداها الأرجاء الغربية فى القرن الماضى • فتألفت الأمم بحسب ما ارتأت من أنظمة وضعتها لها • وعلى ما كان فى الدعوة الى القوميات من المنافسة المحمودة بين البلاد كان منها ان أدت أيضا الى أن يكره أهل لسان أهل اللسان الآخر ، ودينهم واحد وكتابهم واحد ، فالأمم الأنجلوسكسونية تبغض الشعوب اللاتينية ، والشعوب الجرمانية تكره الصقالبة ، واللاتينية تحقد على الجرمانية والسكسونية • وهكذا رأينا فى عصرنا أثر هذه الكراهة باديا على ما لم يعرف البشر أفظع منه ، وها قد انقضت الخمس عشرة سنة الأخيرة ، وأمم الأرض تحاول أن تنجو من غوائل الحرب التى أوقدوا نارها ، فلا يجدون الى ذلك مخرجا ، وثبت للأمم أن ما دهمها من الدواعى هو من نتائج الأوهام التى تتخيلها الدول الكبرى من الاستئثار بمغانم الأرض كلها ، وأن المغريات التى كان بعض من لا يهمهم الا الظفر ، ولو باهلاك ربع البشر ، كان قانونا جائرا لا توافق الطبيعة على تطبيق مفاصله • وعجيب بعد هذا حال من يعدون السعادة كل السعادة الفوز برضى مجالس

(★) ليس هناك (عنصر) امريكى ، فسكان الولايات المتحدة خليط • ولم تكن الولايات المتحدة فى هذه المرحلة تتطلع للاستعمار ــ لذلك سرعان ما جلت عن الفلبين ــ أنظر المقدمة •

النواب ، والذهاب بأماديح الصحف وصفحات التاريخ ، وعجيب في هذه المدنية الحديثة أن تتمحل الأعذار للقتلة وتقدس السفاكين ، واذا نصح لهم ناصح من أهلهم عدوه غرا جاهلا ، وألبوا العوام عليه فمقتوه وشردوه ، أو قتلوه ، لأنه قال الحق ولم يزل قائله من الممقوتين .

وضع الرئيس ويلسون مواده المشهورة فزيفه بعض أرباب الأهواء من الغربيين ، وقالوا انه كلام أستاذ في جامعة أي ان تعاليمه نظرية غير عملية ، وبعد مدة ظهر أن الحق كان في جانبه ، ولكن العمل بالحق في هذه المدنية من الأمور الصعبة . ويلسون الذي تشبع بقاعدة بلاده الذهبية آمريكا للأمريكيين ، لا يرى السعادة للمدنية والانسانية الا أن يطبق رمزه في كل مكان ، يريد الهند للهنود ومصر للمصريين وتونس للتونسيين ، هو يقول بالرحمة فوق العدل ، وعسى أن لا يكون عقل أهل القرن العشرين في هذا المعنى أحط من عقل العرب في القرن السابع .

نحن لا نتابع رأى من يقول من الغربيين اليوم ان الغرب الآن في دور سقوطه ولم يبق أمل في نهوضه ، وأن أهل الطبقة الوسطى قد اضمحلوا ، وأن الغرب اغتر بأن نجاحه أبدى مضمون النتائج ، وأخرج الناس من عمل الأرض وأنشأ طبقات من الفقراء كانت الآلة داعى شقائها ، وأن المجتمع الحديث حاول أن يبتاع كل شيء . ابتاع الصحافة والأفكار والنساء والرفاهية ، وما استطاع أن يشترى روح الأشياء . ولذلك يعود الغرب الى الهمجية ،

ويدخل في دور يشبه القرون الوسطى بل أحط منه ، وكان ذاك الدور يفضل هذا بسذاجته وجميل فطرته(★) نعم، نحن لا نشايع القائلين بذلك ، ونعوذ هذه المدنية أن تصيبها بائقة تأتى على الشرق والغرب معا • وهذا القرن على ما فيه من الشرور والمآثم يعيش الناس فيه عيشا طيبا لم يكتب في الدهر السالف مثله حتى لكبار الزعماء والملوك ، وابن الطبقة الوسطى اليوم أنعم حالا وأهنأ عيشا من عظماء أمس ، يتمتع ويغتبط بما لم يعهد مثله في الدهر الغابر •

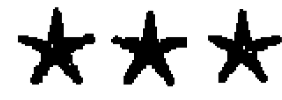
يقول كاتب العصر أناتول فرانس : « ان الواجب أن لا نثلب هذه الحضارة ومن يجسر أن يفعل ذلك ! أما أنا فأحب النور حتى ما يحرق منه • أساء رينان الظن بعقبى الأجيال القادمة ، وما ظلمهم كثيرا فيما أحسب ، فقد كان يعتقد أن الجهل يفشو في العالم على صورة مطردة هائلة • وأن آخرة مدنيتنا ربما انتهت بالجهالة • ولعله كان يبالغ ، وأنا أيضا أحمل نفسي على المبالغة ، ولن نعدم برهانا لاثبات هذا القياس المقلق • ولعمرى ! هل المدنية المادية غير سهولة كل شيء ، والتمهيد لكل شيء ، وقلة الجهد ، وفقد الشخصيات • ان الآلات تعمل عملها لا تحفل ما فيها من ضرر ،ونحن لسنا بمأمن من شر سحقها لنا • وسيتجلى لفلاسفة الأجيال المقبلة ، أن الحضارة في القرن التاسع عشر ، وهي ميكانيكية وعلمية ، قد أدخلت البلادة على عقول الناس ، وأنزلت المستوى العقلي حتى ابتذل • وعلى قدر ما انتفعنا بالصحافة والكهرباء تخلينا عن الدرس ، فنحن نهمل درس

(★) يفضل ـ بفتح الياء وضم الضاد اى افضل •

العلوم الأدبيـــة ، ونعنى كل العناية بصنع آلات اكثـــر من عنايتنا بتربية نفوس ، والجراثيم الضارة تربى فى أرضنا على غاية من الســـهولة • وفى الزمن الغـــابر كانت بذور الجراثيم تنمو فى بعض النفوس الخاملة على خفاء ، أما الآن فتنمو وتلوث جميع الرؤوس التى آلفت الرذيلة • ففساد السياسيين ، وفضائح المضــــاربين ، ومفـــاخر الســـارقين ، وجرائم المجرمين • كل أولئك يطير ويسير ويفســـد النفوس باسراع الصاعقة ، أريد أن أقول بسرعة البرق أى على معدل ثلاثمائة ألف كيلو متر فى الثانية •

ثم ذكر فضـــائح الصحافة وســـعيها أبدا لاسقاط كل صاحب مكانة لتضـــحك قراءها ، وتعلمهم ثلم الأعراض ، وكشف كل ستر • وقال ان القحة هى أول ما يتجلى فى المجتمع الحديث ، والثانى احتقار الثقافة الحقة التى استعيض عنها بطلاء أولى سطحى مستعار • وكان الناس قبل هذه المخترعات الكبرى يتفاوضون قليلا ، ويوجزون فيقتصرون فى تناجيهم على ايراد الأمور الجوهرية • وكان الناس طبقتين : علماء وجهلاء • أما الآن فقد قربت المساوف ، وتعبد كل صعب ، وسهل كل أمر ، وأخذ كل واحد يتحف صاحبه بما عنده من التافهات والبلاهات ، يتكلمان فى كل شىء ولا يحفلان شيئا من الأشـــياء • وكيف نعجب بمدنيتنـــا وهى تفقد الروح ولا معبود فيهـــا ولا هدف لها ، وليس فيها حقيقة جوهرية واحدة تزيد على ما كان فى الحضارات السالفة • نحن مقبلون فى كتيبة من الجهل الغرور على مستقبل فيـــه قحـــة ، وفيـــه بلبلة ، وفيه سفاهة ، ولعله لايخلو من بلاهة وغباوة • كان فلاماريون يرى أن العالم ينتهى أمره ببرودة سطح الأرض •

ومن رأى سولى برودوم أنه سيضمحل بالافراط فى الشهوات ، وأنا أرى أن الترهات المنبعثة عن الجهالة والغرور تطفىء النور الأوربى على نحو ما أطفأت الأنوار القديمة » ·



قارن علماء هذا العصر بين المدنية العربية وغيرها · ومن أقرب الآراء التى رأيتها الى الاعتدال رأى العلامة جوستاف لوبون ، قال انه كانت للعرب صفات ومساوىء عظيمة جدا واستعداد عقلى عال ، فهم أحط من الرومـــان بأوضاعهم السياسية والاجتماعية وأعلى منهم كعبا فى اتساع معارفهم فى العلم والصناعة · وقد أحرزوا فى الجملة مقاما عاليا فى التاريخ ، ولم يظهر الرومان كفاءة فى الصناعات والعلوم ، وكان اليونان سادتهم فى عامة الشؤون العقلية ومع هذا ، فقد استعبد الأولون الآخرين · والحكم على القيمة العقلية فى أمة ، وعلى ارتقائها فى سلم المدنية مقرون بما أخرجت من الرجال ، فاذا جمعت الى تفوقهـا العقلى عددا غير قليل من أبنائها النابغين ، وكان سوادها الأعظم مؤلفا من أفراد هم وسط فى ذكائهم وتعلمهم ، واتصفوا بأخلاق عالية كان فى ذلك رفعتها · ولقد جاء رجال ممتازون من العرب ، وما وفقوا اليه من الاعمال ، وكشفوه من الحقـائق العلمية دليل على مكانتهم · ولكن لم يرزقوا فيما أحسب رجالا من عيار نيوتن وليبنز اللذين قلبا العالم بما كشفاه · فالعرب اذن أحط من اليونان فى كثير من المسـائل ، مساوون ولا شك للرومان بذكائهم · واذا قست العرب بالشعوب الأوربية الحديثة ، أمكنك أن تقول انهم من حيث العقل والأخلاق أسمى مكانة

من كل الأمم التى عاشت قبل عصر النهضة ، وقد فاقوا بأخلاقهم أجدادنا كثيرا (★) •

قال (★★) : «ذهبت ريح العرب قبل عصر النهضة فى الغرب أى قبل القرن الخامس عشر ـ ولا يتيسر لنا الحكم الآن عما يكون من أمرهم ذات يوم لو كتب لهم البقاء • ولا نعتقد انه كان فى وسعهم أن يتجاوزوا المستوى الذى بلغوه ، فان انحطاط أوضاعهم كان يحدث لهم مشاكل صعبة ، ومن الحيف أن يقابل بين العصور الحديثة ، والعصور التى اضمحل فيها سلطان العرب • واذا كان لا مناص من هذا التنظير ، فلنا أن نقول ان الرجال الممتازين عند العرب كانوا أحط من الرجال الذين يقابلونهم من أهل العصر الحاضر • ولكن الأفراد المتوسطين فيهم ساووا وربما فاقوا أهل الطبقة الوسطى فى الشعوب المتمدنة اليوم • ولو رزق العرب بل الصينيون والهنود اليوم طبقة ممتازة من الرجال بالنظر لما عندهم من الطبقة المتوسطة الصالحة ، لضاهوا الأوربيين وفاقوهم وخلفوهم فى تمثل هذه المدنية الحديثة » •

وقال العلامة دوزى : «ان العرب ترجموا كثيرا من كتب الأقدمين وعلقوا عليها شروحا فاغتنت بأعمالهم بعض فروعها ، واتسع نطاقها باستدراكاتهم البالغة غاية الدقة والوضوح ، ولكنهم لم يخترعوا شيئا ، ولا ندين لهم بأدنى فكر عال أو واسع • وهكذا ، فان بيننا وبينهم اختلافات أصلية ، وربما كانت أخلاقهم أسمى من أخلاقنا ، ونفوسهم

(★) الحديث على لسان جوستاف لوبون •
(★★) أى جوستاف لوبون •

أكبر من نفوسنا ، وهم أكثر ميلا الى العظمة الانسانية ، لكنهم لايحملون بذور النهضة والنجاح ، ومع ما هم عليه من الولوع بالاستقلال الشخصي ، يظهر أنهم ، على ما انطووا عليه من الأفكار السامية ، غير قادرين على الخضوع لقوانين المجتمعات » ٠

وقول لوبون : «ان العرب لم يظهر فيهم مثل نيوتن وليبنز اللذين قلبا العالم في مادياته» لا يصح فيما نرى على اطلاقه ، فقد ظهر فيهم علماء غيروا بأبحاثهم صورة المادة ، وأحسنوا الانتفاع بها في مسائل كثيرة ، ولكن أولئك العلماء لم يوفقوا الى أن يتموا أعمالهم كلها ، وما كتب لهم أن يسير من بعدهم على آثارهم، لما دب من الانحطاط في الدول العربية ٠ أما من ذكرهم لوبون ممن قلبوا في العهد الحديث صورة العالم بما أبدعوا ، فقد تجسدت فيهم حكمة القدماء ، وورثوا علومهم كلها ، واهتدوا بتجاربهم ، وزادوا عليها أمورا هيأها الزمن لهم ، فكان منهم ما كان ٠ وقول دوزى ، ان الغرب لا يدين للعرب بأدنى فكر عال ، مردود عليه ، لأن العرب كما قال كثير من الباحثين من الأمريكان والانجليز والألمان والفرنسيس هم الذين مدنوا أوربا بأن نقلوا اليها أنوار الأقدمين ، وما أضافوه من مخترعاتهم وأبحاثهم ٠ ولا مجال للمماحكة فيما استنبطوه وخدموا به المجتمع الانساني ٠ أما قوله ان العرب كانوا غير قادرين على الخضوع لقوانين المجتمعات فهذا صحيح في الجملة ٠ ذلك لأن افراط العرب في حب الحرية حملهم على التجافي عن الخضوع للزعماء ٠ وايغالهم في عزة النفس دعاهم الى الخروج على الجماعة ، فعادوا بعد حين الى ما كانوا عليه في الجاهلية

لا يأتمرون بأمر ، ولا يذعنون الا لسلطان شهواتهم ، فكان ذلك علة العلل فى ذهاب سلطانهم ·

عرضت للعرب عوارض عرض مثلها للأمم التى أحطنا بتاريخها قبلهم وبعدهم ، فقد امتزجوا بغيرهم من الشعوب امتزاجا كثيرا قوى فيهم نواحى وأضعف أخرى · فمن أنحاء الضعف أنهم خلطوا دمهم بدماء غريبة ، فأدخلوا فيه ما لو تصونوا عنه لظلوا أرسخ قدما وأسلم دما(★)دخل فيهم الترك والفرس والروم وغيرهم كما دخل فى دم الترك العثمانيين بعد دم البجناكي والبولوني والبندقي والرومي والروسي والمجرى ، فولد لهم جنس جميل الملامح والسحنات ، ولكنه أخرجهم عن عنصرهم فكان من ذلك انحلال أمرهم(★★) ·

ومهما قال القائلون ان الغرب لا يدين للعرب بفكر عال ولم يخرج منهم أمثال نيوتن وليبنز فان العرب هدوا(٦) أوربا الى العالم اللاتينى واليونانى ، وعاشت الجامعات الأوربية ستمائة سنة من مترجمات كتبهم ، وجرت على أساليبهم فى البحث · فقد قال لوبون أيضا : « ان المدنية العربية من أدهش ما عرف التاريخ ، وان المرء كلما تعمق فى دراستها تجلت له أمور جديدة ، واتسعت الآفاق أمامه ، وثبت له أن القرون الوسطى لم تعرف الأمم القديمة الا بواسطة العرب ، وأنهم هم الذين أتوا أوربا بما أتوها به من مدنية أنعشتها فى الماديات والعقليات والأخلاق ، ومتى درس المرء أعمال

(★) طبعا هذا كلام غير علمى ·

(★★) هذا عامل قوة لا ضعف · وانما الضعف فى عدم تمثل هذا التراث فى حضارة لها صفات مشتركة ، والولايات المتحدة ـ وكرد معجب بها ـ تضم عناصر على هذا النحو ·

العرب العلمية وما كشفوه ، ثبت له أنه ما من أمة أنتجت مثل ما أنتجوه فى هـذه المدة القصـيرة التى كتب لملكهـم قضاؤها » • وقال : « قد يكون من الأوربيين مسـتعمرون ماهرون ولكن منذ عهد روما كان المسلمون من الشعوب الوحيدة التى حملت علم الحضارة حقيقة ، وهم الذين فازوا وحدهم بنشر المواد الجوهرية من المدنية ، وأعنى بها الدين والأوضاع والصنائع ، بين ظهرى عناصر جديدة من غير عنصرهم » • وقال : « واذا نظر المرء فى صنائعهم وفنونهم ، لا يسـعه الا الاعتراف بأنه كانت لهم ميزة خاصـة لم تبلغهـا أمة ، ولئن كان تأثير العرب فى الغرب عظيما ، فان تأثيرهم فى الشرق أعظم • وما من عنصر أثر تأثيره قط • فان الشعوب التى دانت لهـا الأرض كالأشـوريين والفـرس والمصريين واليونان والرومان قد عفت القرون آثارها ، ولم يخلفـوا سـوى آثار ضـئيلة بحيث لم يبق سـوى ذكريات أديانهـم وألسنتهم وفنونهم ، وقد اضمحل أمر العرب أيضا ، ولـكن أعظم عناصر مدنيتهم وهى الدين واللسان والصنائع لا يزال حيا » • وقال : « ان العرب أول من علم العـالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين » •

وقال العلامة فمبرى : «كان الاسلام وما برح الدين الذى فاق سـائر أديان العالم شـورى وديمقراطية ،وكان مصدر الحرية وينبوع العدل والمسـاواة ،فان كان العالم قد شهد حقا منذ أول عهد العمران البشرى الى اليوم حكومة شورية دستورية ، فهى لعمرى حكومة الخلفاء الراشدين » • وقال نوبرجر : «فاقت المدنية العربية فى أوج امبراطورية الاسلام مدنية روما القديمة فى حيويتها وتنوعها ، وكان لحضارة

الأندلس مركز يشبه من عدة وجوه حضارة اليونان القديمة» ·
وقال دوسن : « ان المدنية الأوربية بل المدنية الغربية كلها مدينة للمسلمين بثمرات حكمة الأقدمين ، وان فتوحات العرب فى امبراطورية الاسلام من القرن السابع الى الخامس عشر لتعد احدى عجائب التاريخ · ومن المدهش أن يصبح العرب — وكانوا أول أمرهم على الفطرة — عنصرا فاتحا ويمسوا سادة نصف العالم فى مائة سنة ، ومن أشد العجب حماستهم العظيمة ، وسرعتهم البالغة فى تحصيل العلوم ، وتكوين الثقافة اللازمة لعظمتهم حتى بلغوا مستوى عاليا فى مائة عام ، بينما نرى الجرمانيين لما فتحوا الامبراطورية الرومانية قضوا ألف سنة (★) قبل أن يقضوا على التوحش ، وينهضوا لاحياء العلوم » وقال جوتيه : « ان محصول المدنية العربية فى العلم على اختلاف أنواعه ، يفوق محصول المدنية اليونانية كثيرا ، ذلك لأن العلم العربى كانت له أصول قديمة ، أما فى الفنون والآداب فان دائرة اليونان أوسع من دائرة العرب بكثير » ·

وما لنا وكل هذا فحسنات المدنية العربية ثابتة لا ينكرها الا ذو غرض متعصب ، واذا كان فيها بعض نقص فالوقت لم يسمح للعرب بتلافيه ، أو الأخذ به الى مستوى أرقى منه ، ووضع الأساس فى كل بناء أصعب من نقشه وترتيبه · وهل يعقل أن تخلق المدنية كاملة من أول يوم ، وهى تحتاج الى أن تعمل فى تشييدها عقول كثيرة وأجيال مختلفة ، حتى تبلغ درجات الكمال · ومخترعات أوربا ومكشوفاتها فى القرنين الأخيرين تشهد بذلك ، رأينا أمما كثيرة شاركت فيها حتى صعب فى بعضها أن تتبين يد الواضع الأول ·

(★) سقطت روما سنة ١٤٧٦م ·

وشهدنا القرنين اللذين سبقا القـــرن التاسع عشر والقرن العشرين كأنهما كانا ممهدين لما سيقع بعد من العجائب فى العلم والصنائع •

واذا جئنـــا نســـتفتى لوبون أيضا فى سر هذه المدنية العربية ، أجابنا ان اعتيـــاد العـــرب الحروب والغارات فى الجاهلية كان منه قيام أمرهم فى الاسلام ، فبعد أن كان بأسهم بينهم ، وجهـــوا غاراتهم نحـــو الأجانب فكان فى ذلك قوام أمرهم ، ولما لم يبق أمامهم أعداء يقاتلونهم ، عادوا يتقاتلون فأدى ذلك الى انحطاطهم • وأهم العوامل فى امتداد حكمهم ، اجتماع كلمة قبائلهم المختلفة تحت علم واحد ، وهو الاسلام فوجه هذا نفوسهم الى هدف سام أورثهم حماسة ، فكانوا أبدا على استعداد للمفاداة بأنفسهم فى سبيله ، وكان هذا الهدف دينيا صرفا ، ودولة العرب قامت على هذا الأساس • وكانت الدولة الوحيدة الكبرى القائمة باسم الدين ، ومنه انبعثت سياستها وحالتها الاجتماعية • وســـاعد العرب على فتوحهم كون العالم القديم كان يهوى الى السقوط ، فكان حريا بأمة متوحدة المقاصد والمنازع أن تفتح البلاد وتستبقيها ، وما ضعف نشاطهم فى هـــذه السبيل ، بل تعلموا فى مدرســـة مغلوبيهم ، ولما ساووهم فى الجندية وفنون القتال كان نجاحهم مضمونا • ولقد كنت ترى كل جندى فى الجيش العربى على استعداد لبذل روحه لانجاح المقصد الذى يقاتل لأجله ، على حين كان كل اخلاص وحماسة وعقيدة قد اضمحل من نفوس اليونان منذ زمن بعيد • وما كانت انتصارات العرب لتعمى أبصارهم لأول نشأتهم ، وتحملهم على الافراط المألوف عند الفاتحين فى العـــادة ، ولا اشـــتدوا فى ارهاق المغلـــوبين ،

ولا فرضوا عليهم بالقوة دينهم الجديد الذى كانوا يودون بثه فى أقطار العالم ، ولو فعلوا ذلك لأهاجوا عليهم جميع الشعوب التى لم تخضع لهم ، فاتقوا حق التقاة هذه التهلكة التى لم ينج منها الصليبيون عندما دخلوا الشام فى القرون اللاحقة ٠

قال(★) : «ولقد أدرك الخلفاء الأول بعبقريتهم السياسية النادرة فى اتباع معتقد جديد ، أن الأوضاع والأديان لا تفرض على الناس بالقوة ، بل رأيناهم حيث دخلوا فى الشام ومصر واسبانيا يعاملون الشعوب بمنتهى الرفق ، تاركين لهم أنظمتهم وأوضاعهم ومعتقداتهم ، غير ضاربين عليهم فى مقابلة السلام الذى ضمنوه لهم الا جزية ضئيلة ، وكانت على الأغلب أقل من الضرائب التى كان عليهم أداؤها من قبل ، وما عرفت الشعوب فاتحا بلغ هذا القدر من المسامحة ، ولا دينا حوى فى مطاويه هذه الرقة واللطف ٠ وكانت هذه السماحة وهذا اللطف اللذان تجاهلهما المؤرخون ، من بعض العوامل التى هيأت بسرعة انتشار فتوح العرب ، وأعظم سبب دعا الى قبول دينهم وأوضاعهم ولسانهم ، ونحن ندرك كيف تأصلت هذه العوامل الثلاثة بين ظهرانى الشعوب التى رحبت بمقدمهم ، وأنها قاومت بعد جميع الغارات ، ووقت العرب من آفات الاضمحلال ، وما تم من هذا القبيل فى مصر من أعظم ما يسترعى النظر ٠ فقد حكم الفرس واليونان والرومان وادى النيل ولم يوفقوا الى أن يقلبوا المدنية الفرعونية القديمة ، وأن يستعيضوا عنها بحضارتهم (أما العرب فكان شأنهم فى مصر غير هذا

(★) اى لوبون ٠

أعربوها وأسلموها) . وهناك عوامل أخرى غير سماحة العرب ولطف حكمهم ضمنت لهم النجاح فى بث دينهم وما تفرع من أوضاعه ، وكانت هذه الأوضاع على غاية السذاجة فى أهل الطبقات المتوسطة من الشعوب المغلوبة ، واذا حدث أن هذه الأوضاع لم تلتئم مع تلك الجماعات كان العرب يعمدون الى تعديلها بحسب الحال . وهكذا كانت الأوضاع الاسلامية فى الهند وفارس وبلاد العرب وأفريقية البربرية ومصر ، تختلف كل الاختلاف وكتابها واحد وهو القرآن » .

وقد أرجع لوبون انحطاط العرب الى اختلاف العناصر الخاضعة لهم ، واختلاط دمائهم قال : « ولطالما كان هذا التمازج بين شعوب مختلفة فى مملكة واحدة من عوامل الانحلال الفعالة ، ويعلمنا التاريخ أن من المتعذر استبقاء عناصر مختلفة فى يد واحدة الا اذا روعى فى ذلك شرطان أساسيان ، أحدهما أن تكون سلطة الفاتح قوية الى الغاية ، بحيث يوقن كل انسان أن كل مقاومة باطلة ، والثانى أن لا يختلط الغالب بالمغلوب ولا يفنى فيه ، وهذا الشرط الثانى لم يحققه العرب بتاتا وكذلك كان شأن الرومان ، ومن المتعذر حياة شعوب مختلفة بقانون واحد اذا تباينوا فى المصالح والأجناس ، ولا يتأتى ضبطهم الا بضغط شديد ، وما قامت العرب بمثل هذا الضغط مع العناصر المختلفة التى خضعت لهم » . وقال فى معنى اختلاط دم الفاتحين بغيرهم ، « زعموا أن المستقبل للخلاسيين والهجناء وقد يكون ذلك ، بيد أننى لا أرجو تحقيقه لشعوب تريد أن تحتفظ بمستواها فى العالم » .

★★★

آن لنا بعد أن عرضنا فى الجملة لتصوير المدنية العربية والتنظير بينها وبين غيرها من المدنيات ، وللعوامل التى وهنت بها دولة العرب ودخلها الهرم ، آن نذكر طرفا من الفروق بين أهل المدنيتين • اننا مهما أعجبنا بمدنية العرب القديمة ومدنية الغرب الحديثة ، فاعجابنا غير قليل بمن يعملون اليوم لمدنيتهم من الغربيين ، والفوارق بين الشرق والغرب فى هذا المعنى محسوسة ، ومنها ما يعلل بالهواء والبيئة ، ومنها ما يعلل بالطوارىء الاجتماعية القاهرة • ففى الغرب دؤوب دام قرونا مطرد الأوائل والأواخر ، ونظام نافذ لا يرحم من لا يعمل ، ولا يبقى على جاهل ولا ضعيف • فكأن قاعدة الانتخاب الطبيعى أخذت فى الغرب حكمها ، فأبقت على القوى ، ونبذت آكثر الضعيف ، وفى الشرق لانت الطبيعة وما قست ، فعاش الضعيف والأضعف ، والقوى والأقوى •

قالوا ان المدنية ابنة البلاد الباردة ، ولكن العرب جاءوا من جزيرة محرقة فأنشأوا أيضا هذه المدنية الفتانة على أيدى من نبغوا فيها من أهل الطبقة المختارة ، وتآلفوا كلهم بروح الجماعة على نحو ما نرى فى الغرب اليوم فناء الأفراد فى المجموع ، اذا هلك الفرد لا يكاد يشعر به لأن من بعده يأتى فيتناول عمله فيتمه(★) • والغرب كما قال أحد النابهين هو المتسلط على الطبيعة بالعمل ، والشرق هو استثمار الانسان للانسان • ونظن الغرب أيضا يستثمر الانسان للانسان، أما تسلطه على الطبيعة فهذا حق صراح •

(★) آراء اجتهادية غير مؤكدة •

امتاز الغربي بتسلسل الفكر والتبصر في مصادر الأمور ومواردها ، والأخذ من تجارب غيره والانتفاع بكل ما يرى ويسمع ، وقلما يخرج عما تعلمه واستعد له مهما كلفه الحال ، لأنه يعرف أن النجاح في الاختصاص أو الاخصاء ، وهذا من أعظم أسرار نبوغه في صنائعه وعلومه ، وعرف الغربي بمحافظته على القوانين يراعيها على كل حال ، حتى صار ذلك طبيعة له وعادة ، وخلافها منكر مستهجن • وجميع ما في الغرب من قوى الجماد والحيوان والانسان مستثمرة منتفع بها ، وقوى الشرق مبعثرة ضائعة ، الغربي يعنى بالأمر الصغير والخطير على السواء ، يحاول الاتقان والكمال في كل معانيه ، ويفادى بكل عزيز في سبيل قوميته ووطنيته • يراعي الوقت والزمان ، ويسير في حياته على منهاج لا يعدوه ، ويستحي أن يرمي بالقصور فيما هو آخذ نفسه به • الغربي محافظ مجدد في آن واحد ، والشرقي محافظ يصعب عليه التجديد • أصلح الغربي بنفسه لنفسه معمله ومزرعته ، وجود عمله وقام بواجبه ، فاضطر حكوماته الى أن تصلح نفسها • والشرقي يتوقع من حكومته أن تصلحه ، وقد يحاول افسادها اذا أرادت اصلاحا • والغرب لم تعمره حكوماته بل عمره أهله ، وحملوها بطول الزمن على أن تحسن سيرها فتساند الراعي والرعية •

قد وصف الحالة التي صار اليها الشرقي الأستاذ أحمد فتحي زغلول باشا بقوله : « ضعفنا حتى أصبحنا نرجو كل شيء من الحكومة ، فهي التي نطالبها بحفظ حياتنا ، وخصب أرضنا ، وترويج تجارتنا ، وتحسين صناعتنا ، هي التي نطلب منها أن تربي الأبناء ، وتطعم الفقراء ، وترزق

العجزة ، وتنفى أسباب البطالة ، وتحفظ الأخلاق ، وتلم شعث العائلات ، وتجمع أشتات القلوب · هى التى نطالبها بتعويض ما نقص من ارادتنا ، وتقويم ما اعوج من سيرنا وسيرتنا ، ورد هجمات المزاحمين عنا · والسهر على مصالح كل واحد منا ، فاذا تأخرنا فى عمل من تلك الأعمال باهمالنا رميناها بسوء الادارة ، واتهمناها بحب الأثرة ، وألقينا عليها تبعة خمولنا كلها · لا ريب فى أننا بهذا الزعم قد ضللنا السبيل ، فانما الحكومة وازع لا يكلف الا ما اقتضته طبيعته ، وشأن الحكومات فى الأمم تأييد النظام ، وحفظ الأمن ، واقامة العدل ، وتسهيل سبل الزراعة ، ومعاهدة بعضهم بعضا على ما يضمن حرية التجارة ، ويشجع أهل الصنائع والحرف كما تقتضيه المصالح المشتركة ، وعلى قدر ما تسمح به المكنات · وبالجملة ، فالحكومة وازع عام لا واجب عليه الا الأمر العام مما يدخل تحته جميع الناس · ولا ينفرد بالاستفادة منه واحد بخصوصه · وعلى الأمة بعد ذلك أن تستفيد من هذا النظام ، وتنتهز فرصة الأمن والطمأنينة لتسعى وراء منافعها ، وتطلب الكمال فى زراعتها وصناعتها وتجارتها ، وفى نشر المعارف واحياء العلوم ، وفى أداء الواجب والمحافظة على الحقوق ، وهذا هو الذى أهملناه حتى أضعناه » ·

وحقا لو قام كل واحد فى الشرق بواجبه ، لما انتشرت الأمية فيه مثلا هذا الانتشار المريع · والأمية سبب كل بلية ، ومن المستغرب أن نشهد شعوبا صغيرة فى الغرب تحررت منذ عهد قريب من ربقة غيرها ، ونجت أو كادت من الأمية على فقرها ، ورأينا فى الشرق شعوبا تكاد تكون

مستقلة منذ زمن طويل ، وهي من الغنى بما لا ينكر محله ، وما استطاعت أن تخرج شعبها من الجهل ، واكتفت أن صاغت عمالا أو راغبين في العمالة ، وتخلت عن اعداد أبنائها لمذاهب المعاش الطبيعية ، فبأى شيء نعلل هذا ؟ وعلى من تلقى تبعة هذا الوباء ؟ ولو صرف في تعليم هذه الشعوب واحد من مائة تبذل في التبذير ، لفارقت دور الجهالة في أقل من نصف قرن ·

وبينا نرى عامة أهل الغرب وخاصتهم ، أغنياءهم وفقراءهم رجالهم ونساءهم ، يعملون ويدأبون ، ولا تكاد تجد من لا يعمل ولا يفكر فيما فيه فائدة عامة أو خاصة ، نرى الشرقي اذا حاز مظهرا صغيرا ، أو نال شهادة من مدرسة ، أو شدا شيئا من أدب وعلم ، أو اقتنى مالا وعروضا ، اغتبط بما صار اليه ، وعد نفسه قد بلغ اقصى الغايات ، فيغلو في سرفه وترفه ، ويصاب بالغرور والعجب، يستنكف عن أعمال اليد وعن الاحتراف ويعد الحرف دنيئة ، وما الدنيء الا من لا يتعلمها ويتقنها ، ولا ساقط الهمة الا من يذل لغيره حتى يعيش كلا عليه · على أننا رأينا الغربي مهما أحرز من مظاهر الغنى والمجد ، لا تقف همته عند حد ، ولا تنتهي مطامعه الى غاية ، فهو لا يعرف ما يقال له قناعة ورضا ، وكل عمل يجلب نفعا هو في نظره شريف محلل ، كأن طبيعة البلاد الغربية ، وهي تستلزم من ساكنيها غذاء أوفر ولباسا أدفأ ، وكنا (٧) جامعة شروط الراحة ، ليقاوم قسوة الطبيعة ، تضطر الفرد الى أن يعمل شاق الأعمال ينتج ويعيش · والشرقي لا تتقاضاه أرضه وسماؤه شيئا كثيرا من مثل هذه الأسباب في الحياة : يتبلغ بميسور العيش،

ولا يتشدد فى تطلب السعة ، وحرارة اقليمه تغنيه عن أمور يراها الغربى ضرورية له كالخمـور والأغـذية الدسمة ·
تأملوا حال أسرة مؤلفة من والدين وأربعة أولاد ، الوالد يعمل فى حرفته ، والوالدة تشتغل بتربية أولادها وترتيب منزلها ، فاذا فرغت شغلت أوقات فراغها بتطرين أو خياطة أو نسج أو تصوير أو موسيقى أو غير ذلك ، والولد يعـد المدرسة الابتدائية يعمل فى حقل أو حانـوت أو معمـل ، وأخته كذلك تحترف وتجمع لنفسـها مالا ، ولا يسـتنكف أحدهم من الأعمال الزراعية والصناعية ، ولو تعلم التعليم العالى ، اذا لم يجد رزقه فيه ــ تأملوا هذا البيت المغل وكيف يدخله من الربح ما يعادل على الأقل ما يكسبه الأب وهو تامة أدواته فى جهاد الحياة ·

الانسان فى الغرب مهما علت منزلتـه ، اذا بلـغ سن الرشد أو قرب منها ، لا يتكل الا على نفسـه رجـلا كان أو امرأة · لا فرق فى قانون العمل وروابط الحياة الا ما لا يال له · والشرقى اتكالى لا يعمل الا بقدر ما يرزق الكفاف ، وبلغ من شفقته الكاذبة على أولاده اذا كان ذا سـعة ، أن يترك لهم الحبل على الغارب ، لا يهتم لهم عملوا أم لم يعملوا ، فكيف بهذا تبقى ثروة ويحفظ مجـد · ولو كان قانـون المواريث عندنا مثل قانون الانجليز لا يورث الكبراء والنبلاء جلاءهم أى لقبهم وأملاكهم الا الكبير من الأولاد ، ويروح سائر البنين والبنات يكدحون لمعـاشهم ، لرأينـا كثيرا من الشرقيين يموتون جوعا لا يرضون أن يعملوا عملا صناعيا ولا زراعيا ولا غيره ·

يقول العلامة قاسم بك أمين : « ان أهل أوربا يقسمون الى ثلاث طبقات كسائر الأمم عليا ووسطى ودنيا . فالدنيا أكبر حظها من التربية معرفة القراءة والكتابة ، وأما الطبقة العليا فتصيب حظا عظيما من التربية الفعلية ، ولكن يغلب عليها ما يغرى به الغنى والبطالة ، وتستولى عليها الشهوات ، فهم يتفننون فى اللذائذ تفنن أهل الجد فى الاختراعات والصنائع» قال : «وهذا الفساد فيهم مماتتحمله المدنية الغربية وتصبر عليه ، لأنها لا تستطيع محوه ، فان هذه المدنية مؤسسة على الحرية الشخصية ، فهى مضطرة لأن تقبل ما يتبع هذه الحرية من الضرر ، وهى تعلم أن منافعها أكثر من مضارها ، ووجود الفساد فى الغرب انما هو لاحق طبيعى من لواحق الحرية الشخصية ، ونتيجة من نتائجها فى الطور الأدبى الحالى الذى توجد فيه تلك البلاد الآن» . قال : «وهذا الفساد فى الأممالغربية لم يضعف فيهم الفضائل من بذل الأنفس والأموال فى سبيل تعزيز الوطن أو الدفاع عنه ، فأدنى رجل فى الغرب كأعلى رجل فيه ، اذا دعا داع الى هجوم ، أو قيام لداع أو الى عمل نافع، يترك جميع لذائذه وينساها ، وينهض لاجابة الداعى ، ويخاطر بنفسه ، ويبذل ماله ، الى أن يتم للأمة ما تريد . وأما الطبقة الوسطى فلا ريب أنها أرقى من التى تقابلها عندنا » .

وبعد فالأعلون والأوسطون والأدنون فى الأمم الغربية هم كما وصفهم عالمنا الاجتماعى فأحسن فى وصفهم ، وقد قال شاعرنا الاجتماعى حافظ ابراهيم فى وصف الاختلاف بين العالمين الشرقى والغربى :

شمسهم غادة عليها حجاب فهي شرقية حوتها الخدور
شمسنا غادة أبت أن توارى فهي غربية جلاها السفور
جوهم في تقلب واختلاف غير أن الثبات فيهم كثير
جونا أثبت الجواء ولكن ليس فينا على الثبات صبور
ولديهم من الفنون لباب ولدينا من الفنون قشور
فاذا ما سألتني قلت فيهم أمة حرة وفرد أسير

وعلينا بعد هذا أن نعلم أن ليس لشعب من طبيعته وجنسه ما يحول دون انحطاطه ، فقد قال العلامة ألفريد فوليه : « قاعدة من قواعد التاريخ أن العوامل العلمية والاجتماعية أو العقلية والأخلاقية ، تتغلب على العوامل الجنسية والجغرافية والاقليمية بالنظر الى ما بلغته الحضارة الحديثة من الارتقاء ، وأن حركة العلوم وما أوجدته الصناعة لا تزال تبدل أسباب الحياة الاجتماعية وأساليب العمل ، على نحو ما تبدل العلائق المتبادلة بين الطبقات المختلفة . وليس لشعب أن يتبجح بأنه راق وسيظل راقيا على وجه الدهر ، وما من شعب يحكم عليه بالانحطاط الذى لا يشفى منه ، وكل شعب يستفيد بما فى التضامن العام من مكتشفات وتجارب ، وليس المستقبل للانجلوسكسونيين ولا للجرمانيين ولا للاتينيين ، بل المستقبل للعاملين والصانعين ومن كانوا أحسن أخلاقا وخلاقا » .

الهـــوامش

(١) المقصود طبعا وسطية الاسلام الذى احترم الجسد ونهى عن الرهبنة ، وحث فى الوقت نفسه على العبادة والسمو بالروح ، فالرسول ﷺ حبب اليه من دنيانا الطيب والنساء ومع هذا كان دائم التقرب الى ربه عبادة وجهادا ·· والموضوع مطروق معروف · لكن الأستاذ كرد كما ورد فى مقدمة الكتاب يكتب وأصداء الثورة العرابية فى اذنيه ، ومحور النقاش بين الناس هو العروبة أى الاسلام أو بمعنى آخر دولة عربية أم تبعية للدولة العثمانية ، وكان الأستاذ كرد من أنصار الدولة العربية الكبرى التى لم تتحقق بعد الحرب العالمية الأولى · وربما لهذا السبب اعتزل الرجل الحياة السياسية بعد الحرب · وعلى أية حال ليس هناك تناقض بالضرورة بين العروبة والاسلام ، لكنها روح العصر ·

(٢) جزيرة اقريطش هى جزيرة كريت فى البحر المتوسط ·

(٣) مسألة خلافية بين المسيحيين ، والمقصود بالمدنيين رجال الدين (الاكليروس) ·

(٤) هضم العرب مظاهر الحياة المدنية فى المناطق التى فتحوها ، وأصبحت جزءا من حضارتهم وفى مرحلة من المراحل أصبح كل من ينطق العربية ويتقن ثقافتها عربيا حتى لو كان غير مسلم · وهناك مسيحيون كثيرون من أصول قبلية عربيـة خالصـة ·

(٥) ربط المنجزات الكبرى بالسخرة ، ليس مبررا كافيا ، ومع هذا فقد شهدت الحضارة العربية الاسلامية منشآت ضخاما فى الأندلس وآسيا الصغرى ، وفى عهد المماليك فى مصر ·· الخ وفى التاريخ الحديث : السد العـالى الذى تم بلا سخرة ، وهناك مشروع توشكى الحالى ، وكلها مشروعات عربية فى بلاد اسلامية ، ولم يكن الاسلام عائقا لانشائها ·

(٦) هدوا أى دلوا ·

(٧) فى المعجم الوجيز : كن ــ بتشديد النون وفتحها ــ ستر ، واكتن الشىء استتر ·

صدر من هذه السلسلة

أولاً: الموسوعات والمعاجم

ليونارد كوتريل، الموسوعة الأثرية العالمية
ويليام بيتر، معجم التكنولوجيا الحيوية
ج.كارفيل، تبسيط المفاهيم الهندسية
ب. كوملان، الأساطير الإغريقية والرومانية
و. د. هاملتون وآخرون، المعجم الجيولوجي المصور في المعادن والصخور والحفريات
حسام الدين زكريا، المعجم الشامل للموسيقى العالمية (ج١)
خيرية البشلاوي،معجم المصطلحات السينمائية
دونالد نيكول، معجم التراجم البيزنطية

ثانياً: الدراسات الاستراتيجية وقضايا العصر

د.محمد نعمان جلال، حركة عدم الانحياز في عالم متغير
إريك موريس؛ آلان هو، الإرهاب
ممدوح عطية، البرنامج النووي الإسرائيلي
د. لينوار تشامبرز رايت، سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر
إزرا .ف. فوجل، المعجزة اليابانية
د. السيد نصر السيد، إطلالات على الزمن الآتي
بول هاريسون، العالم الثالث غدا
مجموعة من العلماء، مبادرة الدفاع الاستراتيجي: حرب الفضاء
و. مونتجمري وات، الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر
ادى أونيمود، أفريقيا الطريق الآخر
فانس بكارد ، إنهم يصنعون البشر (٢ج
مارتن فان كريفلد،حرب المستقبل
ألفين توفلر ، تحول السلطة (٢ج)
ممدوح حامد عطية ، إنهم يقتلون البيئة
د.السيد أمين شلبي، جورج كينان
يوسف شرارة ، مشكلات القرن الحادي والعشرين والعلاقات الدولية
د. السيد عليوة، إدارة الصراعات الدولية
د. السيد عليوة، صنع القرار السياسي
جرج كاشمان، لماذا تنشب الحروب(٢ج)
إيمانويل هيمان، الأصولية اليهودية
أنجيلو كودفيللا، المخابرات وفن الحكم
آلان أنترمان، اليهود (عقائدهم الدينية وعباداتهم)

ثالثاً: العلوم والتكنولوجيا

ميكائيل ألبي، الانقراض الكبير
فيرنر هيزنبرج، الجزء والكل: محاورات في مضمار الفيزياء الذرية
فريد هويل، البذور الكونية
ويليام بينز، الهندسة الوراثية للجميع
د. جوهان دورشنر، الحياة في الكون كيف نشأت وأين توجد
إسحق عظيموف، الشموس المتفجرة (أسرار السوبرنوفا)
روبرت لافور، البرمجة بلغة السي باستخدام تيربوسي (٢ج)
إدوارد إيه فايجينباوم، الجيل الخامس للحاسوب

د. محمود سرى طه، الكمبيوتر فى مجالات الحياة
د. مصطفى عنانى، الميكروكمبيوتر
ى. رادو نسكاياى ، الإلكترونيات والحياة الحديثة
جلال عبد الفتاح، الكون ذلك المجهول
إيفرى شاتزمان، كوننا المتمدد
فرد س. هيس، تبسيط الكيمياء
كاتى ثير، تربية الدواجن
د.محمد زينهم، تكنولوجيا فن الزجاج
لارى جونيك ومارك هوبليس، الوراثة والهندسة الوراثية بالكاريكاتير
جينا كولاتا، الطريق إلى دوللى
دور كاس ماكلينتوك، صور أفريقية: نظرة على حيوانات أفريقيا
إسحق عظيموف، أفكار العلم العظيمة
د.مصطفى محمود سليمان، الزلازل
بول دافيز، الدقائق الثلاث الأخيرة
ويليام هـ.. ماثيوز، ما هى الجيولوجيا؟
إسحق عظيموف، العلم وآفاق المستقبل
ب. س. ديفيز، المفهوم الحديث للمكان والزمان
د. محمود سرى طه، الاتجاهات المعاصرة فى عالم الطاقة
بانش هوفمان، آينشتين
زافيلسكى ف. س.، الزمن وقياسه
ر .ج. فوربس، تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ج)
د.فاضل أحمد الطائى، أعلام العرب فى الكيمياء
رولاند جاكسون، الكيمياء فى خدمة الإنسان
إبراهيم الفرساوى، أجهزة تكييف الهواء
ديفيد ألدرتون، تربية أسماك الزينة
أندريه سكوت، جوهر الطبيعة
إيجور إكيموشكين، الإيثولوجي
بارى باركر، السفر فى الزمان الكونى
ديمترى ترايفونوف، ظلال الكيمياء
بول ديفز، جونر جريبين، أسطورة المادة
جيفرى ماوسايف ماسون، حين تبكى الأفيال
ليونارد أ. كول، السلاح الحادى عشر
و. جراهام ريتشاردز، أسرار الكيمياء
د. زين العابدين متولى، وبالنجم هم يهتدون

رابعاً: الاقتصاد

ديفيد وليام ماكدوال، مجموعات النقود (صيانتها تصنيفها، عرضها)
د. نورمان كلارك، الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا
سامى عبد المعطى، التخطيط السياحى فى مصر
جابر الجزار، ماستريخت والاقتصاد المصرى
ولت ويتمان روستو، حوار حول التنمية الاقتصادية
فيكتور مورجان، تاريخ النقود
د. تشارلز سى مانز، إدارة الأعمال بلا مديرين

خامساً: مصر عبر العصور

محرم كمال، الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء
فرانسوا ديماس، آلهة مصر
سيريل ألدريد، إخناتون
موريس بيرابر، صناع الخلود

بكـــنت أ. كتشن، رمسيس الثانى: فرعون المجد والانتصار

ألن شورتر، الحياة اليومية فى مصر القديمة

ونفرد هولمز، كانت ملكة على مصر

جاك كرابس جونيور، كتابة التاريخ فى مصر

نفتالى لويس، مصر الرومانية

عبده مباشر، البحرية المصرية من محمد على للسادات (١٨٠٥ ــ ١٩٧٣)

د. السيد طه أبو سديرة، الحرف والصناعات فى مصر الإسلامية

جابرييل باير، تاريخ ملكية الأراضى فى مصر الحديثة

عاصم محمد رزق، مراكز الصناعة فى مصر الإسلامية

ت. ج. هـــ. جيمز، كنوز الفراعنة

حسن كمال، الطب المصرى القديم

أ. أ. س. إدواردز، أهرام مصر

سومرز كلارك، الآثار القبطية فى وادى النيل

كريستيان ديروش نوبلكور، المرأة الفرعونية

بيل شول وأدبنيت، القوة النفسية للأهرام

جيمس هنرى برستد، تاريخ مصر

د. بيارد دودج، الأزهر فى ألف عام

أ. سبنسر، الموتى وعالمهم فى مصر القديمة

ألفريد ج. بتلر، الكنائس القبطية القديمة فى مصر (ج٢)

روز أليندم، الطفل المصرى القديم

ج. و. مكفرسون، الموالد فى مصر

جون لويس بوركهارت، العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية

سوزان راتييه، حتشبسوت

مرجريت مرى، مصر ومجدها الغابر

أولج فولكف، القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة

د. محمد أنور شكرى، الفن المصرى القديم

ت.ج. جيمز، الحياة أيام الفراعنة

إيفان كونج، السحر والسحرة عند الفراعنة

تشارلز نيمس، طيبة (آثار الأقصر)

رندل كلارك، الرمز والأسطورة فى مصر القديمة

ديمترى ميكس، الحياة اليومية للآلهة الفرعونية

محمد عبد الحميد بسيونى، بانوراما فرعونية

حمدى عثمان، هؤلاء حكموا مصر

جوزيف دلى، العمارة العربية فى مصر

ميكل ونتر، المجتمع المصرى تحت الحكم العثمانى

بربارة واترسون، أقباط مصر

إيريك هورنونج، فكرة فى صورة

بيير جرانديه، رمسيس الثالث

سادساً: الكلاسيكيات

جاليليو جاليليه، حوار حول النظامين الرئيسين للكون (٣ج)

وليم مارسدن، رحلات ماركو بولو (٣ج)

أبو القاسم الفردوسى، الشاهنامة (٢ج)

إدوارد جيبون، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها (٣ج)

ناصر خسرو علوى، سفر نامة

فيليب عطية، ترانيم زرادشت

جورج جاموف، بداية بلا نهاية

محمد كرد على، بين المدنية العربية والأوربية

سابعاً: الفن التشكيلى والموسيقى

عزيز الشوان، الموسيقى تعبير نغمى ومنطق

ألوير جرابتر، موتسارت

شوكت الربيعى، الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربي

ليوناردو دافنشي، نظرية التصوير

د.غبريال وهبه، أثر الكوميديا الإلهية لدانتى في الفن التشكيلى

روبين جورج كولنجوود، مبادئ الفن

مارتن جك، يوهان سباستيان باخ

ميخائيل ستيجمان، ثيفالدى

هيربرت ريد، التربية عن طريق الفن

أدامز فيليب، دليل تنظيم المتاحف

حسام الدين زكريا، أنطون بروكنر

جيمس جينز، العلم والموسيقى

هوجو لا يختنتريت، الموسيقى والحضارة

محمد كمال إسماعيل، التحليل والتوزيع الأوركسترالى

د.صالح رضا، ملامح وقضايا فى الفن التشكيلى المعاصر

إدموندو سولمى، ليوناردو

سيونايد ميرى روبرتسون، الأشغال الفنية والثقافة المعاصرة

ثامناً: حضارات عالمية

جاكوب برونوفسكى، التطور الحضارى للإنسان

س. م. بورا، التجربة اليونانية

جوستاف جرونيباوم، حضارة الإسلام

أ. د. جرنى، الحيثيون

ل. ديلابورت، بلاد ما بين النهرين

ج. كونتنو، الحضارة الفينيقية

آدم متز، الحضارة الإسلامية (٢ج)

جوزيف نيدهام، تاريخ العلم والحضارة فى الصين

ستيفن رانسيمان، الحضارة البيزنطية

سبتينو موسكاتى، الحضارات السامية

تاسعا: التاريخ

جوزيف داهموس، سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى

هنرى بيرين، تاريخ أوربا فى العصور الوسطى

أرنولد توينبى، الفكر التاريخى عند الإغريق

بول كولز، العثمانيون فى أوربا

جوناثان ريلى سميث ، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية

د. بركات أحمد، محمد واليهود

ستيفن أوزمنت، التاريخ من شتى جوانبه (٣ج)

و بارتولد، تاريخ الترك فى آسيا الوسطى

فلاديمير تيسمانيانو ، تاريخ أوربا الشرقية

د.ألبرت حورانى، تاريخ الشعوب العربية (٢ج)

نويل مالكوم، البوسنة

جارى. ب . ناش، الحمر والبيض والسود

أحمد فريد رفاعى، عصر المأمون (٢ج)

آرثر كيستلر، القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم

ناجاى متشيو، الثورة الإصلاحية فى اليابان

محمد فؤاد كوبريلى، قيام الدولة العثمانية

د. إبرار كريم الله، من هــم التتار؟

ستيفن رانسيمان، الحملات الصليبية

آلبان ويدجرى، التاريخ وكيف يفسرونه (٢ج)

جوسيبى دى لونا، موسولينى

جوردون تشيلد، تقدم الإنسانية

هــ. ج. ولز، معالم تاريخ الإنسانية (٤ج)

هــ . سانت موس، ميلاد العصور الوسطى

يوهان هويزنجا، اضمحلال العصور الوسطى

هـ ج. ويلز، موجز تاريخ العالم
لورد كرومر، الثورة العرابية
و. مونتجمرى وات، محمد فى مكة

عاشراً: الجغرافيا والرحلات

ت.و فريمان، الجغرافيا فى مائة عام
ليستر ديل راى، الأرض الغامضة
رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف)
إميليا إدواردز، رحلة الألف ميل
رحلات فارتيما (الحاج يونس المصرى)
رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز (٣ج)
رحلة عبد اللطيف البغدادى فى مصر
رحلة الأمير رودلف إلى الشرق (٣ج)
يوميات رحلة فاسكو داجاما
س. هوارد، أشهر الرحلات إلى غرب أفريقيا
إريك أكسيلون، أشهر الرحلات فى جنوب أفريقيا
وليم مارسدن، رحلات ماركو بولو (٣ج)

حادى عشر: الفلسفة وعلم النفس

جون بورر، الفلسفة وقضايا العصر(٣ج)
سوندر اى، الفلسفة الجوهرية
جون لويس، الإنسان ذلك الكائن الفريد
سدنى هوك، التراث الغامض: ماركس والماركسيون
إدوارد دو بونو، التفكير المتجدد
رونالد دافيد لانج، الحكمة والجنون والحماقة
د.توماس أ. هاريس، التوافق النفسي: تحليل المعاملات الإنسانية
د. أنور عبد الملك، الشارع المصرى والفكر
نيكولاس ماير، شارلوك هولمز يقابل فرويد
أنطونى دى كرسبنى، أعلام الفلسفة المعاصرة
جين وروبرت هاندلى، كيف تتخلصين من القلق؟
هـ ج. كريل، الفكر الصينى
د. السيد نصر السيد، الحقيقة الرمادية
برتراند راصل، السلطة والفرد
مارجريت روز، ما بعد الحداثة
كارل بوبر، بحثا عن عالم أفضل
ريتشارد شاخت، رواد الفلسفة الحديثة
جوزيف داهموس، سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى
د. روجر ستروجان، هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال؟
إريك برن، الطب النفسى والتحليل النفسى
بيرتون بورتر، الحياة الكريمة (٢ج)
فرانكلين ل. باومر، الفكر الأوربى الحديث (٤ج)
هنرى برجسون، الضحك
إرنست كاسيرر، فى المعرفة التاريخية
و. مونتجمرى وات، القضاء والقدر
إدوارد دو بونو، التفكير العملى

ثانى عشر: العلوم الاجتماعية

د.محيى الدين أحمد حسين، التنشئة الأسرية والأبناء الصغار
م. و ثرنج، ضمير المهندس
رايموند وليامز، الثقافة والمجتمع
روى روبرتسون، الهيروين والإيدز
بيتر لورى، المخدرات حقائق نفسية
د.ليو بوسكاليا، الحب
برنسلاو مالينوفسكى، السحر والعلم والدين

بيتر ر. داى، الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي

بيل جيرهارت، تعليم المعوقين

أربولد جزل، الطفل من الخامسة إلى العاشرة

رونالد د. سمبسون، العلم والطلاب والمدارس

ثالث عشر: المسرح

لويس فارجاس ، المرشد إلى فن المسرح

برونو ياشينسكى ، حفلة مانيكان

جلال العشرى ، فكرة المسرح

جان بول سارتر ؛ جورج برناردشو؛ جان أنوى مختارات من المسرح العالمى

د.عبد المعطى شعراوى ، المسرح المصرى المعاصر: أصله وبدايته

توماس ليبهارت، فن المايم والبانتومايم

زيجمونت هبنر، جماليات فن الإخراج

أوجين يونسكو، الأعمال الكاملة (٢ج)

ألان ماكدونالد، مسرح الشارع

نك كاى، ما بعد الحداثية والفنون الأدائية

بيتر بروك، التفسير والتفكيك والإيديولوجية

أندريه فيليبه، الممثل الكوميدى

لى ستراسبرج، تدريب الممثل

جلال جميل محمد، مفهوم الضوء والظلام فى العرض المسرحى

رابع عشر: الطب والصحة

بوريس فيدوروفيتش سيرجيف، وظائف الأعضاء من الألف إلى الياء

د.جون شندلر، كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة

ناعوم بيتروفيتش، النحل والطب

م. هـ. كنج، التغذية فى البلدان النامية

خامس عشر: الآداب واللغة

برتراند رسل، أحلام الأعلام وقصص أخر

ألدس هكسلى، نقطة مقابل نقطة

جول ويست، الرواية الحديثة : الإنجليزية والفرنسية

أنور المعداوى،على محمود طه: الشاعر والإنسان

جوزيف كونراد، مختارات من الأدب القصصى

تاجور شين ين بنج وآخرون، مختارات من الآداب الآسيوية

محمود قاسم، الأدب العربى المكتوب بالفرنسية

جابرييل جارسيا ماركيز، الجنرال فى متاهة

سوريال عبد الملك، حديث النهر

د.رمسيس عوض، الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها

مختارات من الأدب اليابانى: الشعر، الدراما، الحكاية، القصة القصيرة

ديفيد بشبندر، نظرية الأدب المعاصر

نادين جورديمر وآخرون، سقوط المطر وقصص أخرى

رالف ئى ماتلو، تولستوى

والتر ألن، الرواية الإنجليزية

هادى نعمان الهيتى، أدب الأطفال

مالكوم برادبرى، الرواية اليوم

لوريتو تود، مدخل إلى علم اللغة

د. جابرييل جارسيا ماركيز، سيمون بوليفار

ديلاسى أوليرى، الفكر العربى ومكانه فى التاريخ

د. على عبد الرءوف البمبى، مختارات من الشعر الإسبانى فى العصور الوسطى (ج١)

ب. إفور إيفانز، **موجز تاريخ الدراما الإنجليزية**

ج. س. فريزر، **الكاتب الحديث وعالمه (٢ج)**

جورج ستاينر، **بين تولستوى ودستويفسكى (٢ج)**

ديلان توماس، **مجموعة مقالات نقدية**

فيكتور برومبير، **ستندال**

فيكتور هوجو، **رسائل وأحاديث من المنفى**

يانكو لافرين، **الرومانتيكية والواقعية**

د.نعمة رحيم الغزاوى، **أحمد حسن الزيات كاتباً وناقداً**

ف.برميلوف، **دستويفسكي**

لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، **الدليل البيليوجرافى:روائع الآداب العالمية (ج١)**

محسن جاسم الموسوى، **عصر الرواية : مقال من النوع الأدبى**

هنرى باربوس، **الجحيم**

ميجيل دى ليبس، **الفئران**

روبرت سكولز وآخرون، **آفاق أدب الخيال العلمى**

يانيس ريتسوس، **البعيد (مختارات شعرية)**

ب. إفور ايفانز، **مجمل تاريخ الأدب الإنجليزى**

فخرى أبو السعود، **فى الأدب المقارن**

سليمان مظهر، **أساطير من الشرق**

ف.ع. أدينكوف، **فن الأدب الروائى عند تولستوى**

د. صفاء خلوصى، **فن الترجمة**

بلدوميرو ليلو وآخرون، **قصص من أمريكا اللاتينية**

سادس عشر: الإعلام

فرانسيس ج. برجين، **الإعلام التطبيقى**

بيير ألبير، **الصحافة**

هربرت ثيلر، الاتصال والهيمنة الثقافية

سابع عشر: السينما

هاشم النحاس، **الهوية القومية فى السينما العربية**

ج.دادلى أندرو، **نظريات الفيلم الكبرى**

روى آرمز ، **لغة الصورة فى السينما المعاصرة**

هاشم النحاس، **صلاح أبو سيف (محاورات)**

جان لويس بورى وآخرون ، **فى النقد السينمائى الفرنسى**

محمود سامى عطا الله ، **الفيلم التسجيلى**

ستانلى جيه سولومون ، **أنواع الفيلم الأمريكى**

جوزيف وهارى فيلدمان، **ديناميكية الفيلم**

قدرى حفنى، **الإنسان المصرى على الشاشة**

مونى براح، **السينما العربية من الخليج إلى المحيط**

حسين حلمى المهندس، **دراما الشاشة: والتطبيق للسينما والتليفزيون (٢ج)**

إدوارد مرى، **عن النقد السينمائى الأمريكى**

جوزيف م. بوجز، **فن الفرجة على الأفلام**

سعيد شيمى، **التصوير السينمائى تحت الماء**

دوايت سوين ، **كتابة السيناريو للسينما**

هاشم النحاس، **نجيب محفوظ على الشاشة**

يوجين فال، **فن كتابة السيناريو**

دانييل أريخون، **قواعد اللغة السينمائية**

كريستيان ساليه ، **السيناريو فى السينما الفرنسية**

آلان كاسبيار، **التذوق السينمائى**

تونى بار، **التمثيل للسينما والتليفزيون**

بيتر نيكولز، **السينما الخيالية**

بول وارن، **خفايا نظام النجم الأمريكى**

دافيد كوك، **تاريخ السينما الروائية**

ثامن عشر: كتب غيرت الفكر الإنساني

سلسلة لتلخيص التراث الفكري الإنساني في صورة عروض موجزة لأهم الكتب التي ساهمت في تشكيل الفكر الإنساني وتطوره مصحوبة بتراجم لمؤلفيه وقد صدر منها ٩ أجزاء

تاسع عشر: الأعمال المختارة

يوهان هويزنجا، أعلام وأفكار

د.مصطفى طه بدر، محنة الإسلام الكبرى

ت. كويلر ينج، الشرق الأدنى

جيمس نيومان؛ ميشيل ويلسون، رجال عاشوا للعلم

ابن زنبل الرمال، **آخرة المماليك**

د محمد عوض محمد، **نهر النيل**

آرثر كريستنسن، **إيران في عهد الساسانيين**

أوجست دييس، **أفلاطون**

يعقوب فام، **البراجماتية**

بلوطرخوس، **العظماء**

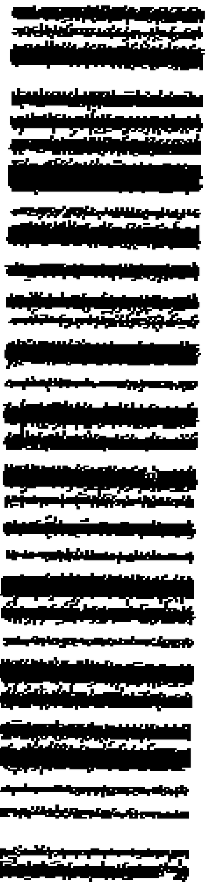
روبرت دبيو جراند وآخرون، **مدخل إلى علم لغة النص**

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٦٤٠/٢٠٠١

ISBN — 977 — 01 — 7201 — 4

يتناول الأستاذ محمد كرد علي (١٨٧٦ - ١٩٥٣) الذى تولى رئاسة المجمع العلمى العربى فى دمشق، فى أبحاثه الستة التى يضمها هذا الكتاب، عدة أفكار يسوق الأدلة عليها : أن الحضارة الأوربية الحديثة تضم بين ثناياها كثيراً من مفردات الحضارة العربية الإسلامية ، وأن أوربا لم تتوان عن الأخذ بأفكار الحضارة الإسلامية ومنجزاتها يوم أن كانت هذه الحضارة مزدهرة راقية، ورأى الأستاذ كرد فى الحركة الاستعمارية الأوربية يتضمن بعض الجوانب الإيجابية، ومن ثم فإن هذا الأمر تطلب قدراً من التعليق والتوضيح وهو ما قام به المحقق فى تعليقاته ودراسته. ويشرح المؤلف بأدلة حاسمة طبيعة الإسلام السمحة .. والكتاب فى مجمله دراسة فى تفاعل الثقافات وحوار الحضارات.



٣٧٥ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب